

ثابت الظُّمة



# ثابت الظلمة

رواية

أمل بوشارب

منشورات الشهاب



© منشورات الشهاب 2018

ردمك : 8-263-39-9947-978

الإيداع القانوني : السداسي الأول، 2018



## تنويه

جميع الحكايات الأسطورية، القصص الشعبية، الشروحات العلمية والتقارير الاخبارية المشار إليها في الصحف والمجلات الأجنبية، وكذا عناوين المؤلفات الوارد ذكرها في هذا الكتاب حقيقية، إلا أن هذه الرواية خيالية ولا تمت للواقع بصلة، وكل شخصها والمؤسسات والهيئات الوارد ذكرها فيها هي من وحي خيال المؤلف، وأي تطابق أو تشابه بينها وبين الواقع هو من قبيل الصدفة.



« ما لا نعرفه أكثر بكثير مما نعرفه. فنحن  
نعلم بوجود الطاقة المظلمة لأننا نعرف  
أنها تؤثر على تمدد الكون. وعدا عن ذلك،  
تبقى الطاقة المظلمة لغزا كاملا. ولكنه لغز مهم. »

موقع وكالة الفضاء الأمريكية. الناذا



## پرولوج

كانت القصاصة الموضوعة بعناية فوق طاولة المكتب توحى بأنها كانت على نحو ما ترباس ذلك المبنى الصغير المغروس وسط الصحراء، والذي بدا للحظات وكأنه مركز عمليات بدائي لفك شفرات آبقة.

نمت هزة غامضة من باطن كفه أشعرته لسبب ما بالتهديد. وغرز نظرة خاوية في الورقة العاجة بالرموز، وسرعان ما أخذ الصوت الثقيل لأنفاسه يطغى على الصمت الجنائزي للمكان.

كان من الواضح أن حروف التيفيناغ المستلة من جوف التاريخ والمكتوبة بخط اليد على تلك الورقة السمكية والمشقوقة من دفتر أجندة جيب، قد بثت على ذلك اليوم المزيد من الغموض والكثير من الألغاز. كز على رشاشه الأم بي 5 بحركة غريزية، وواصل تمشيط المكان بالكثير من التوجس بعد أن دس القصاصة المرتعشة في جيبه.

فكر برية في الملاحظة المسجلة على الورقة أسفل تلك الجمل المكتوبة بأبجدية التيفيناغ، وخرج من الغرفة قابضا على سلاحه الألماني بتحفز أكبر. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي من شأنه أن يشعره عادة بالسيطرة على الوضع. لكنه لم يشعر مع ذلك بالراحة. ما الذي حصل تماما في هذا المكان قبل ساعة؟ غمغم بتوجس وهو يدفع إحساسا غريبا بالتكرس في حلقة.

\*\*\*

وضع كتاب أفلاطون جانبا، وأصاخ السمع لوقع تلك الخطوات المرئية القادمة من الساحة. شعر للحظات بدفقة أدريالين قوية تجتاح كامل بدنه، تتبعها مباشرة نشفان في حلقه ازداد معه انقباض أوعيته الدموية.

لم تكن تلك الأصوات حتما مألوفة في مثل هذه الساعة من الليل. فكر وهو يتحسس على نحو غريزي خصره، وحط يده اليمنى على كليته مدلكا بحركة دائرية خفيفة موقع الغدة الكظرية من جسمه وكأنه يحثها على الخمول، إلا أن دفقات الدم كانت تزداد في أوعيته كلما دنا صوت تلك الخطوات من غرفته.

وجّه جانلوكا نظره إلى النافذة بحركة لإرادية، وأجال بصره في الساحة الخاوية التي كانت تطل على صحراءٍ مواربةٍ بدت غير مبالية بحالة الفرع التي تلبسته في تلك اللحظات، واكتفت ببث عفيف خفيف في المكان من ليلة ربيعية صافية. لم يكن هناك ما ينبئ بحالة طوارئٍ في الخارج. فكر في محاولة يائسة لافئاع نفسه بأن شعور الخطر الذي استبد به فجأة لم يكن مبررا ولا منطقيا، فقاعدة كهذه للعمال الأجانب وسط الصحراء الجزائرية كانت مؤمنة على نحو من شأنه تحويل فكرة تعرضها للاقتحام محض أوهام، بل دليل خبل.

إلا أن صوت تلك الخطوات المأتمية الذي كان يقترب أكثر فأكثر من غرفته بدا من الواضح الآن أنه لم يكن نابعا من رأسه ولا من قصص « قل السوف » المنتشرة في المنطقة، بل من البهو المؤدي إلى المبنى المجهز الذي كان يقطنه بمفرده، وكان يبعد بعشرة أمتار عن أقرب مبنى له، وهي مبان لم يكن يُسمع منها عادة سوى أزيز مكيفات الهواء في هذه الساعة من الليل حين يأوي جميع الموظفين إلى غرفهم بعد تناول العشاء، ويختلي كل واحد منهم بعد ذلك بهاتفه الذي

أو حاسوبه أو كتبه الورقية منها أو الإلكترونية، غير أن صوت تلك الأقدام المرئية لم يأتِ اليوم ليقطع على جانلوكا فيرو متعة معاورة الكتاب الذي أدمن فك شفراته منذ أشهر فقط، بل جاء ليحرر شعور الفرع الذي بدأ يختلج نفسه منذ فترة.

نظر إلى مقبض الباب بحركة يائسة وقبل أن يقدم رجله خطوة إلى الأمام للتأكد من إقفاله وجد نفسه يلقي نظره على محاورتي « تيمايوس وكريتياس » اللتان جُمعتا في كتاب واحد في طبعة إنجليزية أنيقة عن دار « كلاسيكس »، وسحب منه فاصلة صفحات جلدية مزينة بحروف تيفيناغ اقتناها من المتحف الأركيولوجي كويفا بينتادا<sup>1</sup> بغران كناريا عن الصفحة 49. وفكر للحظة بالسبب المجهول الذي جعل أفلاطون لا ينهي محاوره كريتياس على الرغم من أنها كانت ثاني محاوره من ثلاثية بدأها بتيمايوس ويُفترض أنه قد أنهاها بهيرموس. ليبقى سر عدم انهاء أفلاطون محاورته الثانية وضياح المحاوره الثالثة كليا، لغزا لم يتمكن أي باحث إلى حد الساعة من فك أغلاقه. إلا أن كل هذا لم يكن الآن مهما بقدر تأكد جانلوكا أنه كان طيلة فترة إقامته في الجزائر يحمل سرا يراد له أن يبقى مدفونا في تابوت أبدي من العتمة... وإلا ما الذي يبرر ما يحصل في هذه اللحظات ؟

واجتاحه شعور جامح بدنو ساعته التي يبدو أن عدها العكسي لم يبدأ مع نقرات أقدام هؤلاء المجهولين، بل بعد هبوطه في مطار تمنغاست أول مرة منذ أسابيع قليلة.

بلع ريقه ومرر كفه بحركة تحفيزية على لحيته البيضاء الخفيفة وهو يلاحق أنفاسه مترقبا انبلاج الباب لمواجهة أصحاب تلك الأقدام الجنائزية. لم يكن يعلم ما الذي كان ينتظره تماما في تلك اللحظة إلا

---

.1 Cueva Pintada

أنه شعر بأن اجتماع جنيف الذي سبق قدومه إلى هنا قبل أشهر، قد أعقبته حلقة ثانية لم يكن حتما مدعوا لها. كان على شبه يقين أن لهينريك فورتسنبورغ علاقة بما يحصل في هذه الآونة. فكر بتشوش. أم أن الأمر من تدبير جهات أخرى؟ وقبل أن يخوض في احتمالات جانبية ممكنة تناول بسرعة هاتفه النقال. نقر الكلمات المتفق عليها... لم يكن متأكدا من جدوى تلك الخطوة... ودفع الباب من أمامه بقوة...

## القسم الأول



- 1 -

إنغرست أصابع يده اليمنى في عضلة كتفه حتى بدا وكأنها عبرت  
النتوء الأخرمي لتخترق التجويف الحقي من عظامه. أطلق زفرة  
مكتومة وهو يدلّك كتفه بحركة متجلّدة حتى كاد يهيء لمن يراه أنه  
يحمل على كتفه عبء القبة السماوية.

- لا أريد للخبر أن يتسرب للصحافة. قال بنبرة لازبة وهو يضع  
التقرير العاجل القادم من الهوقار جانبا.

- ماذا عن السلطات الـ...

- أعلمهم أننا سنعلمهم بتطورات الأمر أولا بأول. قاطع بصوت  
مصدام أوحى بطيف انزعاج. « ولا أريد للخبر أن يتسرب للصحافة ».   
كرر الأمر على غير عادته.

- حاضر. قال وهو يحدق فيه بارتباك في الظلمة.

كانت الهالة الدامسة التي تحيط عادة به تبدو اليوم ولسبب  
ما أشد قتامة. لكنه خيل له مع ذلك أن طيف انفعال أو اثنين قد  
تسريا فعلا من حركاته المعتمدة.

- وأريد الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب. قال على نحو مباغت وهو  
يكتب كلمتين بحركة مقتضبة على قصاصة شاحبة.

نظر إلى الورقة دون فهم. حفظ الاسم الغريب في رأسه بشيء من الجهد دون أن يتجرأ على لمس القصاصة. ثم رفع رأسه بحذر مستعيدا الرغبة للاستغراق في ذلك الوجه السديمي للتقاط تعبير ما وغمغم :

- حاض...

لوح بظهر كفه صارفا إياه وهو يدس السيجار بين شفثيه وقد ضغط عليه على نحو ظاهر.

\*\*\*

خرج من الغرفة وهو يشعر باصطكاك خفيف لركبتيه. لا بد أن الأمر أخطر مما كنت أتوقع. بلع ريقه بصعوبة، وأغلق الباب وراءه وهو يحمل بين عينيه تلك الزجرة ومعه دخان السيجار الرجراج على غير العادة.

سجل اسم الكتاب الذي طلب منه بقلق واضح وهو يجلس على مكتبه مستحضرا كل الحركات والسكنات التي تركها في المكتب الأكثر تأثيرا من مكاتب الجزرالات الست لذلك البلد المقفل حد الإلغاز، محاولا إيعاز تأويل لها قد يخرج معه بخيط فكرة ما.

وما هي سوى لحظات حتى بدأت أشباح الشك التي لم تفارقه يوما في ذلك المكان الغميق تنقر العظم الجداري من رأسه... لا بد أنه كان يعرف شيئا قبل وصول التقرير. فكر بريية. لقد كان يتحدث بصقيعية غير مقصودة. حلحل ربطة عنقه وقد اجتاحه إحساس غامض بالاختناق. لقد كان من الواضح أنه يعرف كل شيء. وحاول تذكر نبرة صوته. لقد كان هو من يعرف كل شيء. وبلع ريقه مع عبور

هذه الفكرة برأسه. ومع ذلك فقد أظهر انزعاجا غريبا كليا عنه. أطلق زفرة سميكة. الأرجح أنه سمع بالخبر منه. ومسد على صدغيه بعجز وقد تداخلت إشارات العتمة في ذهنه.

- فيزيائي مختص بعلم الفلك يلتحق ببعثة تنقيب عن الآثار في بقعة قصية من الصحراء ؟ وقلب الآن ملف ذلك المشروع الأجنبي وقائمة التراخيص الحاصل عليها من طرف المعهد المكلف بالبحث في الحضيرة الوطنية للهوقار من وزارة الثقافة.

المركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية

أعاد قراءة اسم ذلك المركز وهو يمسد ذقنه بريية.

ما الذي أتى بهؤلاء إلى تمنغاست ؟ ونظر الآن إلى الورقة التي سجل عليها العنوان الغريب لذلك الكتاب على نحو بدا خارجًا عن أي سياق. - ما كل هذا ؟

وعاد لتقليب صفحات ذلك التقرير بعجز. كان من الواضح أنه لا بد من العودة كثيرا إلى الورا للقبض على شيء من المعنى في قلب كل تلك الدهمة.

- 2 -

لم يكن كل ما نعرفه ينبغي أن نخبر به الجميع بالضرورة. هذا ما كان مقتنعا تماما به، ليس لكون المسألة تتعلق بمبدأ أخلاقي يتعلق بحفظ الأسرار مثلا، ذلك أن الأخلاق لم تكن سوى اختراعا بشريا ذا أهداف براغماتية بحتة. فكر وهو غارق في تلك اللوحة. بل لأنه وببساطة هذا ما يجب أن يكون عليه الأمر في عالم لا يستوي فيه الجميع في القدرات العقلية.

إبتسم هينريك للفكرة ومسد رأسه في حركة شبه روحانية مقتربا أكثر من اللوحة المعروضة في بالاتزو فيكيو<sup>1</sup>، وتمتم بشيء من التهكم : فالأمر يتعلق حتما بـ « نوال مادة منظورة بواسطة نعمة سرية (غير منظورة) ». وابتسم بالكثير من السخرية وهو مستمتع بقلب تعريف السر الكنسي الذي لم يبق منه سوى سرين مقدسين بحسب المذهب البروتستاني الذي ورثه عن عائلته، من أصل الأسرار السبعة الخاصة بالكنيسة الكاثوليكية. لتنبج الآن أساريه وهو يتأمل تلك الجزئية شبه المخفية من رائعة دومينيكو غيرلاندايو<sup>2</sup> المرسومة في القرن الخامس عشر والتي كانت بطلتها المفترضة مريم العذراء... « ولا حتى في القدرات الحسية ». غمغم وهو يخفض نظره بلامبالاة إلى يسوع الطفل يسار اللوحة والذي لم يكن يمثل سوى تفصيلا بسيطة باعتقاده في « العذراء ويوحنا الطفل ».

وعاد لتأمل ذلك الجسم الصغير المرسوم بدقة من أعلى يمين اللوحة... « فـ من له أذنان فليسمع ومن له عينان فليبصر ». فكر دون أن يدري كم هي المدة التي أمضاها وهو واقف أمام ذلك الرسم، إلا أنه كان يعلم أنه يمضي أوقاتا روحانية خاصة في هذا المكان، وهو من استحق عن جدارة هذه العطلة حتى وإن كانت وجيزة.

وقد كان معدل العمل اليومي للمدير التنفيذي للـ « الفيوشر إينيرجي كوربوريشن » والمعروفة اختصارا باسم « أف إي سي » أحد أكبر الشركات متعددة الجنسيات في العالم والمختصة بالطاقة هو ستة عشر ساعة، إلا أنه كان يحرص من حين لآخر على « شحن بطاريته »، كما كان يحلو له أن يقول، من خلال برمجة عطل قصيرة تأخذه إلى عواصم الفن الطاقوي في العالم أو هكذا ما كان يطلق

---

1. Palazzo Vecchio

2. Domenico Ghirlandaio

عليها. وقد اختار هذه المرة فلورنسا للوقوف أمام لوحة غيرلاندايو بالرغم من أنه كان يفضل زيارة كيمبرلي في أستراليا لمشاهدة آثار الوانجينا. إلا أن فترة الراحة القصيرة التي منحها لنفسه هذا الأسبوع لم تكن تحتمل برمجة رحلة يمضي فيها اثنتا عشرة ساعة في الطائرة، فقد كان هينريك فورتسنبورغ على أي حال يستعد يوم غد للعودة إلى جنيف من أجل عقد « الاجتماع الاحتفالي » الذي كان لا بد فيه من وضع اللمسات الأخيرة على أهم مشروع كانت تنوي شركته خوضه منذ تأسيسها، بل وأهم إنجاز شخصي يتحقق له على الاطلاق. وسحب بحركة آلية من جيبه هاتفه الذي ونظر من جديد إلى تلك الاحداثيات المجيدة :

23° 17' 19" N

5° 32' 3" O

كانت سعاده بأرقام خطي الطول والعرض تلك لا يمكن مقارنتها بمجرد سعادة تحقيق صفقة رابحة لم يكن سوى لرجل أعمال مثله أن يعرف طعمها، بل كانت تشبه اكتشافا استثنائيا لرمز خفي في عمل فني نادر أو نقش محفور على موقع أثري بائد.

وتحسس هينريك بحركة حميمية تلك الدائرة الحمراء التي كانت تشير إلى الموقع المطلوب على الخريطة، وعاد بحركة سريعة من إصبعه إلى التقارير التي كانت بحوزته عن آخر تطورات عملية الاستحواذ على المكان.

كان يعمل على أنه لن يتكبد أعباء كبيرة من أجل وضع يده على ما يفترض أنه اكتشاف غير مسبوق حققه من خلال مركز الأبحاث الأركيولوجية الذي كان يمول أبحاثه بتفان كبير طيلة السنوات الماضية، ولم يكن يحق لأي طرف آخر غيره الاستفادة من ثماره، خصوصا أن الموقع الجغرافي للاكتشاف الأخير لم يكن بالعصي البتة :

الهورار !

تمتم بنشوة وهو يكبس على رقم مساعده. كان عليه أن يطمئن على الصفقة.

- 3 -

أغلق سماعة الهاتف بيد متييسة وقد اعتراه الاضطراب. لم يكن يتوقع تلقي مكالمة كتلك على الاطلاق طيلة مسيرته العسكرية الحافلة بالدسائس والوساوس والخفايا.

- ما هذا العبث الحاصل في مركز التاريخ ؟

- عفوا... لكن... وصمت قليلا محاولا تبين عناصر تلك الجملة وأردف وهو يشعر ببلبله ذهنية غير مبررة : « البحوث في قسم التاريخ تحت السيطرة... من المفترض... لا يوجد شيء... آسف... لا... لكن الجامعة تحت السيطرة... كل شيء تحت السي... »

- أقصد ذلك المركز السقيم التابع لوزارة الثقافة ؟

- في الواقع... أنا لا... وتلعثم وهو يحاول تذكر اسم المؤسسات التابعة لوزارة الثقافة... لكن ذهنه كان قد انقفل. أي مركز... « ما الذي حدث ؟ ... أقصد لم يصلني أي تحرك مشبوه على أي مستوى... التقارير لا... »

- ألا يفترض بأن وظيفتك هي الحرص على تطبيق الملحقات السرية « للاتفاقيات » ؟ قاطع بعصية.

- الملحقات السرية لم تتسرب لأيدي أي باحث... أنا متأكد. أجاب بصدمة. كان من الواضح أن القضية أكبر مما تصور...

- إذن ما هذا الذي حصل في المركز الوطني للبحوث في عصور

ما قبل التاريخ ؟

- من المفترض أن... كل شيء... وشعر الآن أن لسانه قد انعقد.  
كان مجرد ذكر أمر « الاتفاقيات » تحت هذه النبرة ينبئ بوقوع نازلة.  
الملحقات السرية للاتفاقيات التي بقيت في العتمة لأكثر من خمسين  
سنة ولا تزال محفوظة بعناية في دواليب مديرية المخابرات العسكرية  
تحت حجاب الظلام المطلق لم يكن لها أن تشكل تحت أي ظرف كان  
موضوع مكاملة ملتهبة لهذا الحد... لقد كان هذا يعني أن قيامة البلد  
قد تحل في أي لحظة...

- المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وفي علم الإنسان  
والتاريخ تحت السيطرة... لم يدر ما كان لا بد من قوله في تلك اللحظة.  
لم يكن يذكر بالأساس مدير ذلك المركز عديم القيمة. لكنه متأكد أنه  
من رجالنا... ولكن بالأساس ما الذي قد يجعل كارثة تسرب الملحقات  
السرية للاتفاقيات تحصل من ذلك المركز عديم الفائدة... ونظر لكومة  
الجرائد الصادرة اليوم من على مكتبه. كان آخر مرة تم فيها الحديث  
عن الملحقات السرية للـ« اتفاقيات » في الفضاء العام قد حصل قبل  
سنتين تقريبا، ولم يعد يذكر حتى اسم تلك الجريدة القزمة التي أثارت  
القضية. لكنه كان يعلم أنه كان مقالا ابتزازيا تم التعامل معه بسرعة  
وقد فهم منه أنذاك أنه محاولة استجداء بأئسة لفتات إشهار من المال  
العام. والمهم أن ذلك المقال لم يلفت انتباه أحد بالمرّة. ليتم بعدها  
ومن باب الاحتياط سدّ حلق صاحب تلك الجريدة بربع صفحة إعلان.  
إلا أن الأمر حينها لم يصل حد استنفار القيادات العليا مثلما يبدو  
وكأنه يحصل الآن.

تناول على نحو غريزي إحدى الجرائد الكبرى من أمامه، وهو  
يشعر بتزايد نبضات قلبه وانغراس مفاجئ لألم هاصر في مؤخرة الرأس.  
لم يعد يسمع ما الذي كان يجري على الطرف الثاني للخط... لم يكن  
يدري في تلك اللحظة ما الذي عليه أن يصنع... ألقى الجريدة بيد

مرتعشة وهو يحاول ملممة أعصابه، فكوارث من هذا النوع لا يمكن أن تنتهي أبداً على صفحات الجرائد... إنها أمور تولد عادة في رحم الظلمة... تترعرع في الظلمة... وتنتهي وسط الظلمة... لكن ليس قبل أن تأخذ معها في صمت دامس رجال لا يعرف اسمهم نور الشمس، قد يكون هو أولهم... وشعر وكأن غمامة سميكة قد حطت على شبكيتته... شعر بالضيق ولم يعد يفكر في شيء آخر سوى تذكر اسم ما في تلك الوزارة التافهة يصب عليه لعناته. من الذي تجرأ على العبث بالملحقات السرية للاتفاقية الأهم على الإطلاق في تاريخ الجزائر المعاصر والتي لم يتجرأ أحد على الاقتراب من بنودها المظلمة منذ أكثر من خمسين سنة...

- لكن مستحيل أن يكون هناك تسريب... لقد كان فقط أحد الجزرالات الست من يملك نسخة مصورة عن النسخة الأصلية التي سرقت بعيد الإستقلال من وزارة الخارجية، وقد كان من المستحيل عمليا أن يتم تسريبها لأي كان. لقد كان الأمر ينطوي على حدوث انقلاب صامت في مكان ما... وشعر بثقب في بطنه. « ما نوع المعلومات التي في حوزتك ؟ »

- الأمر يتعلق بمعاهدة تخرق « الإتفاقيات » تم مع مؤسسة أجنبية. لكن... وتنفس الآن الصعداء. الأمر إذن لا يتعلق بتسريب للبنود ! فكر بارتياح وقد خفتت وتيرة أنفاسه. لكن في جميع الأحوال الأمر يدعو للقلق. وحاول الآن العودة لهدوئه : « كل اتفاق ثنائي بين هذا المركز وأي مؤسسة أجنبية من أي نوع لا بد أنه قد مر على موافقة رجالنا في وزارة الثقافة لمنح التراخيص... لا أعرف ما الذي حدث لكن... »

- لست في وارد سماع تبريرات. لقد وصلني تحذير رسمي شديد اللهجة من فوق. علينا وضع حد لهذه الكارثة.

- سأفتح تحقيقا...
- الملف تم تهريره عن طريق نزييم خنخان...
- الأمر إذن خارج عن السيطرة...
- علينا بأي طريقة وضع حد لذلك النكرة.
- وماذا عن...
- الأمر لا يحتمل تسويات من أي نوع لا بد أن نتحرك بسرعة.

- 4 -

خرج هينريك إلى ساحة البلاتزو فيكيو بخطى سريعة، وتوقف إلى جانب تمثال دافيدي منتظرا رد مساعده عن المكالمة وهو مدرك أنه غير قادر على فصل نفسه عن العمل حتى خلال العطلة :

- كيف تتم الأمور مع ذلك « الكآ... » وابتعد على نحو غريزي عن رائحة ميكايل أنجيلو، وجاهد نفسه ليتذكر ذلك الاسم التي كانت توصي التقارير بالعبور من خلاله لتسوية الصفقة، « كآ... » وكرر المحاولة، إلا أن ذهنه لم يكن مجهزا لتسجيل أسماء من هذه النوعية.

- نا... كآ... كا. تلعثم بانزعاج وهو يفرك صدغيه بعصية. سحقا لذلك البرميل !

والواقع أن هينريك فورتنسبورغ كان يؤمن بأن العقل البشري أشبه بالقرص الصلب الذي يبقى ذا طاقة استيعاب محدودة حتى وإن بلغ مبالغ كبيرة من التطور، ولذلك فهو لم يكن يحتفظ بملفات عديمة القيمة في حاسوبه الدماغى من أمثال اسم ذلك الكآ... وبدا الآن وكأنه سيفقد أعصابه، « تبا... كآ... كآ... » غير أنه كان يعلم أنه

يستطيع الاعتماد على قرصه الصلب الخارجي لحفظ هذه الأسماء  
القدرة بعيدا عن رأسه المقدسة...

- تقصد نزييم كا...

- نعم... نعم... قاطع هينريك مساعده بعد أن عاد إليه هـدوؤه  
من دون أن يسمح له بضخ ذلك الاسم على رأسه. « هل أتمتم  
الصفقة مع ذلك البرميل ؟ »

- تماما كما هو متفق عليه. وأردف فرانك بنبرة شبه روبوتية :  
« لقد وقّع للتو مدير المركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية الاتفاقية  
الثنائية مع... » وصمت للحظة وكأنه يبحث عن شيء ما : « المركز  
الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وفي علم الإنسان والتاريخ  
في الجزائر العاصمة ». قال دفعة واحدة.

- جيد.

- لم يشتهه أحد بشيء ؟

- لا، كل شيء تم بسلاسة.

- ممتاز، أبقني مطلعاً على كل جديد.

كان هينريك يدرك أنه من المهم بمكان أن يتم كل شيء تحت  
غطاء المركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية وليس باسم شركة الفيوتر  
الإينيبرجي كوربوريشن بأي حال من الأحوال. وذلك بالرغم من أن  
كل الطرق كانت تؤدي إلى روما. وابتسم بمكر وهو يدس الهاتف  
في جيبه عائداً إلى قاعة العرض ليتأمل جزئته المحببة من تلك اللوحة  
الذي كان يحتفظ بها المتحف عن مجموعة لوسير والتي كان يفضل  
أن يطلق عليها اسم « المستنير » بدل من اسمها الديني المموه لكنهاها.  
يوحنا الطفل.

- غير مقنع بالمرّة ! غمغم بكلية وهو يفكر بأن عمله التجاري البحث في مجال الطاقة قد بدأ يتقاطع أخيراً مع لحظات مفصلية في تاريخ البشرية لم يغفل الفن عن تسجيلها، حتى وإن كان ذلك من خلال تفاصيل خفية مدسوسة في لوحات دينية. وعاد لتأمل تلك التفصيلة الدقيقة بزهو. ذلك أن عقول العامة لم يكن لها أن تتحمل اكتشافات تتجاوز قدراتها المتواضعة. هكذا فكر.

والحقيقة أن صاحب الفيوتشر الإينرجي كوربوريشن والممول الرئيسي للمركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية كان يؤمن أنه قد فعل جميع مناطق عمل الدماغ عنده عكس بقية البشر. وهو من كان يمتلئ فرحاً كلما أخبره طبيبه الخاص بأن ثمة تغيرات تطرأ باستمرار على المادة البيضاء والرمادية في دماغه في كل مرة كان يخضع فيها لتصويرٍ للدماغ، ذلك أنه كان يحرص على تصوير دماغه حرصه على تنظيف أسنانه بالخيط والفرشاة الكهربائية كل ليلة. والواقع أنه وبالرغم من أن الأبحاث العلمية لم تكشف بعد سر التغيرات في هاتين المادتين الحيويتين لدى أي إنسان عقب مروره بتجارب جديدة كما كان يؤكد له الدكتور ماكسيميليان كل مرة. إلا أنه كان شخصياً مقتنعاً بنظريته الخاصة. ومرر كفه الآن بفخر على رأسه. لقد كان هينريك يؤمن على نحو تام أن الإنسان العادي لا يستخدم سوى عشرة بالمائة من قدرات عقله، وهي حقيقة يبدو أن دومينيكو غيرلاندايو وغيره من فناني عصر النهضة قد تفتنوا لها، قبل أن يعلن ذلك عالم النفس الأمريكي ويليام جامس<sup>3</sup> عام 1908 على ما يذكر، ولأجل ذلك لم يكن من اللائق أن يصدّم المستنيرون أصحاب العقول « العُشرية » بمعلومات قد تتسبب لهم بأضرار وجودية. فكر هينريك

---

William James .3

وهو ينظر بحنو لذلك الخيال الضئيل المرسوم بعناية في خلفية اللوحة، وأحس على نحو ما أنه قد يكون هو وفق مبدأ الكارما البوذي، الروح المنسوخة لذلك الرجل الذي كان يقف من بعيد جدا إلى يمين العذراء التي كانت تصلي وقد أدارت ظهرها لما كان يحدث حولها. بينما كان هو يراقب السماء فوق تلك الهضبة. لقد كان مستنيره يتأمل شيئا يشبه القرص الطائر في خلفية الرسم.

وخامره في هذه اللحظة شعور خاص بالنشوة قبل خوض اجتماع يوم غد في جنيف مع مستشاريه لا سيما الفيزيائي الإيطالي القادم من الوكالة الأوروبية للفضاء (الإيزا) : جانلوكا فيرو. همس بنبرة متصلبة. ولا بأس من اعتماد بعض الأسرار إن كان ذلك ما يصلح فعلا لعقول العامة. وابتسم بشغف وفكر أنه لا بد من بدأ العمل بأسرع وقت ممكن في الصحراء الجزائرية.

- 5 -

بقي مهدي محدقا في شاشة الحاسوب لبضع دقائق، بعد انتهائه من مشاهدة الفيلم، وهو لا يدري إن كانت السعادة الغامرة التي كانت تختلج نفسه في هذه اللحظات نابغة من مشاهدته للتو لعمل وُصف بأنه أحد أروع خمسمائة فيلم عبر التاريخ، أم أنه نابع من سرعة تدفق الانترنت التي سمحت له بمشاهدة الـ« مان إن بلاك 3 » عبر اليوتيوب من دون انقطاع ولا توقف لدرجة أن دهشته بمتابعة خط مرور الدقائق أسفل الفيديو كان يضاهي دهشته من أسلحة الليزر المستخدمة في الفيلم.

والواقع أن مهدي لم يكن يتصور قبل ستة أشهر فقط إمكانية مشاهدة مقطع فيديو بمقهى الانترنت التعيس في حيه من دون

توقف، إذا كان طوله يتجاوز الخمس وثلاثين ثانية. إلا أن كل شيء كان يبدو مختلفا داخل قاعدة « المركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية » التي كانت الانترنت تتدفق عليها دون انقطاع وبسرعة فائقة وسط صحراء تمنغاست الشاسعة. وقد يكون ذلك هو أروع شيء حصل في حياته بعد أن بدأ العمل هنا بتوصية من عمه الذي طالما عمل طباحا في الشركات الأجنبية بالصحراء، ليحصل له مؤخرا على وظيفة الساعي، الذي كانت توكل إليه أيضا أعمال التنظيف المختلفة، وقد كان عموما سعيدا بعمله هذا على الرغم من أنه لم يكن يتناسب مع حجم طموحاته.

وقام مهدي الآن من مكانه وأخذ يبحث بجد بين أغراضه، ليسحب منها نظارة شمسية مخبأة بعناية في الخزانة، كان قد اشتراها منذ سنوات من بائع متجول بمبلغ مائتين وخمسين دينارا. ثبتها بهدوء استعراضي على قمة أنفه، ووقف نافخا صدره أمام مرآة الحمام وقد ربّع ذراعيه على نمط تومي لي جونس وويل سميث، وفكر أنه لم يكن ليستحق وظيفة أقل شأنًا من وظيفة ذوي البدلات السوداء بالرغم من أنه كان يرتدي الآن بيجاما شبه أثرية.

لكن سرعان ما فرد مهدي ذراعيه بحركة مفاجئة وقد ذكرته حركة الذراعين المربعة المستعملة في الفيلم كجدار حمائي لصاحبها تصد عنه الأخطار الخارجية، بحركة مدرسية ترمز إلى الخنوع والطاعة والامحاء والاختفاء وسط قاعة القسم الشاسعة في حضرة المعلمة. وحيث كانت هذه الحركة مرتبطة في نفسه بشعور بالقلق نابع من قلة ثقته بتلك المخلوقات المدرسية المربعة والتي كان يتعين عليه مقابلتها بشكل يومي طيلة أيام طفولته دون أي حماية، وهو ما ولد لديه لاحقا إحساسا داخليا مزمنًا بعدم الاطمئنان وشعورا دائما بالهشاشة.

لكن لم تكن كل هذه التحليلات تهتم مهدي في هذه اللحظة، وقد كان كل ما يريده هو طرد ذكريات الدراسة المهيبة من رأسه. وحملق في وجهه لحظة، وشعر لوهلة أن أنفه الأفطس وشفاهه الغليظة لم تكن بالسوء الذي كان يتصوره، وبدا له للحظات أنه يشبه ويل سميث، بل لا يقل وسامة عن ألمع نجوم السينما حتى أن ملامحه كانت أقرب إلى ملامح برايان جي وايت نفسه، وذلك على الرغم من أن الأخير كان يدعى « وايت » إلا أنه كان مثله إفريقي الملامح أسمر البشرة شأنه شأن باراك أوباما.

نفخ مهدي صدره بالتزامن مع عبور هذه الفكرة لرأسه، وانتابه إحساس طفولي بالفخر كان آخر مرة شعر به في ساحة المدرسة قبل عشر سنوات وهو ينشد « قسما »، وهو شعور سرعان ما تبدد بعد سن الثالثة عشر، ليعود ويدغدغ وجدانه مجددا من بوابة بشرته الإفريقية التي أتت بدرجة هوليوودية فاتحة. وموضوع مجددا على نحو ذوي البدلات السوداء، وربّع ذراعيه وتخيل نفسه وكأنه قد ولد في أمريكا. لكن تبا لتلك الحركة عادت لتذكره على نحو ما بالمدرسة. وارتمى الآن على سريره وقرر كعادته عدم مواجهة سر انزعاجه من تلك الفترة في حياته. فهو لم يكن غبيا البتة والدليل أنه تعلم اللغة الانجليزية لوحده دون أن يحتاج لعون تلك المدرسة، حيث كان يجلس هو دائما في آخر طاولة مربعا ذراعيه ومثبتاً عينيه على السبورة، دون أن يلتفت يميناً ولا شمالاً فكل تركيزه كان منصبا على السبورة، وما يكتب على السبورة... وقد أصبح محور حياته السبورة... وذلك بعد أن عجز عن ترجمة حركة شفاه معلمته وجميع أساتذته لاحقا وهم الذين لم يكن يفقه من تمتماتهم وهماتهم شيئا.

والحقيقة أن مهدي لم يكن بالأساس يسمعهم حيث أنه كان يعاني من التهابات متكررة في أذنه الوسطى تسببت له في ضعف السمع

منذ الصغر، وهو ما جعله غير قادر على التفاعل سوى مع تلك اللوحة السوداء المستطيلة التي كان متعلقا بها تعلقا حملا لرفعها إلى مرتبة القداسة في نفسه، حيث كانت الوحيدة التي يفتح ذراعيه لها عند مقابلتها ويبدأ بتدوين ما خط عليها بصدر مكشوف دون أي خوف أو رهبة، فينقل كل كلمة تخط عليها، حرفا حرفا وسطرا سطرا بنفس الرسم وذات الطريقة.

والحقيقة أن السبورة غالبا ما كانت تزوره في منامه أيضا فكان يحلم بمعانقتها والتعبير لها عن حبه في لحظات تعبدية أمام الملائم تقضي بتأدية حركات دائرية على طولها وعرضها، وكان ذلك يعني ببساطة مسحها. وهو الشرف الذي لم يكن يحظى به سوى قلة قليلة من عليّة تلامذة القسم. دع عنك شرف مناجاتها ومخاطبة النقاط المخفية منها، وهي أماكن سرية لم يكن يتسنى للكثيرين ملامستها، حيث تُقلب إحدى دفتيها ويتم الانحشار بينها وبين الحائط والالتصاق بها لتسجيل أسماء المشاكسين من طرف تلميذ مدلل ما، يتم تعيينه لحراسة القسم في حالة غياب المعلم لتدخين سيجارة أو للركون إلى بيت الخلاء في لحظات بيولوجية لا مناص منها.

ولأن مهدي لم يكن يحلم بالحصول يوما على شرف الحراسة من المعلمة ومقابلة حبيبته السوداء صعبة المنال في عليائها، خطرت بباله يوما فكرة مازوشية تقضي بتنفيذ عملية شغب ما تدفع لشرع ابن تاجر التمور لتسجيل اسمه على سطح محبوبته، فيرى اسمه محفورا أخيرا عليها.

وهكذا قرر في أحد الأيام ومع اشتعال الرغبة في رأسه تنفيذ عمليته الاستشهادية تلك وبدأ بفتح ذراعيه دون أن يفكر تماما في مغبة ما كان مقدما عليه، لكنه كان يدرك في جميع الأحوال أنه كان لا بد أن يبدأ

بفتح ذراعيه تمهيدا لأي خطوة. إلا أنه وما إن هم بذلك حتى أوقع مقلمته دون قصد، وقد كان ذلك كافيا لدفع لقرع لاعتبار ذلك التحرك عمل شغب هدفه إحداث جلبة في القسم، ليبدأ مباشرة بتسجيل اسم زميله « خفية » من وراء السبورة.

كانت تلك لحظات قوية شهد فيها مهدي على نقش ما يفترض أنه اسمه على هيكل حبه المصقول. تبعته لحظات ترقب وارتباك شديدة قبل رجوع المعلمة وقلب دفة السبورة للتعرف على أسماء المشاكسين الذين كان ينتظرهم عقاب تتنوع أشكاله وضرابه.

إلا أن مهدي لم يكن يفكر في الألم الذي سيشعر به مقارنة بنشوة مشاهدة التصاق حروف اسمه بجسد محبوبته الأزلية... لتأتي الآن لحظة الحقيقة : « ماهدٍ مخطرار ». هكذا دون لقرع اسمه على السبورة. لم يكن ذلك هو. فكر وقد اعتصره شعور الخيبة.

لكن وعلى نحو عجيب لم يتمكن يوما من تفسيره تعرفت المعلمة عليه، وبحركة حازمة من سابقتها دعته للامتنال أمامها. وهناك وعلى بعد أقل من متر من السبورة تلقى عقابه بصفتين محكمتين على خديه من قفا يد المعلمة متبوعتين بعبارة تهذيبية فضفاضة لم يعد يذكرها. وعلى الأغلب كانت « يا حمار بالاك تزيد تعاودها », أو « يا بغل ما نزيدش نشوفك هنا ».

لكنه في تلك اللحظة لم يكن يفكر سوى في شيء واحد : هل فهمت السبورة اسمه كما فهمته المعلمة ؟ وإن كان اسم مهدي مختار يساوي ماهدٍ مخطرار، فلماذا كان يحصل على أقل النقاط في الإملاء لأنه كان يكتب كلمات تختلف عما يفترض أن المعلمة قد نطقت بها ولم يكن قادرا بالأساس على سماعها.

- حفارة !

كان ذلك هو كل ما شعر به في ذلك اليوم وهو من تعرض للإهانة المجانية أمام محبوبته. وأصبح مهدي منذ ذلك اليوم يحرص على تربية ذراعيه في القسم بإحكام أكبر، بل وشد أكتافه بكل ما أوتي من قوة.

إلا أن حالة الحب من طرف واحد والتي اكتشف مهدي لاحقا أنه كان يعيشها مع السبورة لم تكن هي أقسى تجربة طفولة مر بها، بل كانت تمكنه أخيرا من تمييز أول لفظ نطق به الأستاذ من على بعد عشرة أمتار طويلة فترة دراسته في المدرسة الابتدائية. وقد كان متأكدا من أنه تبين نطق تلك الكلمة IDIOT. هكذا وصفه معلم اللغة الفرنسية، الذي كانت تقول كنزة ابنة مدير الصناعة القادمة من الشمال بأنه كان يخطئ في تصريف الأفعال كما كانت تتندر هي وابنة الطبيب ريمة على لكنته الفرنسية التي كانتا تصانها بالمشيرة للسخرية. لكنه مع كل ذلك فقد اختاره هو ليكون مثال القسم ليشرح لجموع التلاميذ الغفيرة هذه الكلمة الواردة في الكتاب المدرسي.

ليدرك بذلك أنه كان طويلة فترة جلوسه على ذلك المقعد في آخر طاولة مضرب العته بين المعلمين بل وأحد الوسائل التوضيحية البيداغوجية التي كانوا يستعينون بها لشرح صفات البله ومشتقاتها، وهو من كان يتصور أنه كائن شفاف لا ينتبه لوجوده أحد. حتى أنه لم يكن يعتبر تصرفات المعلمة الغريبة نابعة من موقف شخصي إزاءه، وذلك عندما كانت تسدد إليه من حين إلى آخر نظرات شرسة وهي مشرعة من بعيد فكيفها والشرر يتطاير من عينيها محركة بلاغمها بأصوات كانت تشبه لفظ « مختار » وإن كانت تختلف قليلا في نطقها حيث أنه لم يتمكن يوما من تمييزها، ليركن مع الوقت لفكرة أن

ما كانت تقوم به معلمته الابتدائية كان شيئاً يشبه الصيحة القتالية من قبيل الصرخات التي كان يؤديها أبطال كرتون الأنيمي الذين كان يحبهم قبل تنفيذهم لأي لقطة بارعة من قبيل الهجمات الشرسة للنمر المقنع أو الضربات القاضية لستروغر زعيم منظمة اتحاد مصارعي الفضاء. وقد كان يخيل له غالباً وهو في حضرة المعلمة أنه في معركة جماعية في مواجهة المصارع العضاض من تايلاند والمثقب من ألمانيا والثور من إسبانيا والمحنط من المكسيك والمدرع من اليونان وهو لم يكن سوى الخنفوس الذي لا حول له ولا قوة من الجزائر، ذلك أن تلك الصرخة الهستيرية التي كانت تطلقها المعلمة في كل مرة، كانت تليها هجمة شرسة إلى مكان جلوسه تتبعها صفعات وضربات مختلفة على الرأس والصدر والوجه والأنف والذراعين واليدين وأما إذا ما سولت له نفسه حماية وجهه، كانت تأتيه ضربات على البطن مفاجئة... إلا أنه على الأقل استنتج بفضل حصة الفرنسية أن تلك الصرخة القتالية التي لم يتبين يوماً نغمها كانت ببساطة « يا حمار » وليس مختار وحتماً ليست أية لفظة يابانية معقدة لم تكن لتليق بمعلمته غريبة الشأن تلك المدعوة « نبيلة ».

والحقيقة أن الأساتذة كانوا مخلوقات عجيبة بالنسبة له، إذ لم يفهم مهدي قط كيف كانوا قادرين على تغيير تعابيرهم الوجهية في لمح البصر، فينتقلون من حالة الانبساط وتبادل القهقهات السمجة بين بعضهم البعض في ساحة المدرسة وهم يتجهون نحو قاعة الأساتذة، إلى حالة الجدية المصطنعة ولباس أقتعة لوجوه مغلقة بمجرد دخولهم القسم أو إلقاء تلميذ ما عليهم التحية.

وهكذا عاد مهدي إلى جهاز الحاسوب وهو ينفذ من رأسه صور تلك الكائنات المنقرضة لحسن حظه من حيزه الاجتماعي والتي

لم يبق منها سوى بقايا آثار عالقة في ذكريات ما قبل عصر الكمبيوتر في حياته، وراح يعبث بفأرته باحثاً عن عالم جديد قد تحمله إليه تلك الشاشة التي حل عشقها محل السبورة في نفسه. وسرعان ما انتبه إلى أن اليوتيوب كان يقترح عليه من يمين الشاشة فيديوهات قد تثير اهتمامه بعد مشاهدة « المان إن بلاك 3 »، وكان من بينها عنوان بدا وكأنه شريط وثائقي عن ذوي البدلات السوداء تلاه مقطع آخر يظهر فيه رئيس الوزراء الروسي وكأنه في مقابلة صحفية بعنوان « رويترز تؤكد التسريبات : ديميتري ميدفيديف يتحدث عن ذوي البدلات السوداء ». ضيق مهدي عينيه بتعجب وهو يلحق برابط الفيديو بحذر من على الشاشة. رويترز... ميدفيديف... والمان إن بلاك ؟ ما علاقة هذا بذاك ؟ فكر بدهشة. وكبس على رابط الفيديو وهو يشعر بشيء من الإثارة.

لكنه سرعان ما نظر إلى الساعة وتذكر أنه رجل عامل عليه أن يستيقظ باكراً لانتهاء عمله في الوقت المحدد إن لم يكن يرغب في أن يصرخ في وجهه موحوش مدير الموارد البشرية.

- ذلك البائس.

غمغم مهدي باستياء وهو يطفئ حاسوبه بعد أن حرص على حفظ الفيديوهات التي يرغب في مشاهدتها في وقت لاحق. وقرر الآن الخلود للنوم، فغدا لديه غرفة نوم جديدة مخصصة للشخصيات الهامة في القاعدة كان عليه تنظيفها.

- أوروبي جديد بيننا.

وابتسم لفكرة زمالاته الأجنبية المتنوعة ونفض عن رأسه صورة موحوش الزفرة.

استوى على مقعده في الإربوس، واستعد للانطلاق في الرحلة رقم 874 AFR على الخطوط الجوية الفرنسية من مطار باريس أورلي إلى مطار أفتار - حاج باي أخاموك بتمنغاست، جنوب الصحراء الجزائرية. ابتسم جانلوكا فيرو وهو يعدل وسادة السفر « ترافيلريست » المخملية حول عنقه، محضرا نفسه للمرحلة الأهم من البحث الذي قضى سنوات في العمل عليه بعد استقالته من الإيزا والتفرغ لتطوير القمر الصناعي « نيبيرو » الخاص بالمركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية. وشعر في هذه اللحظات وكأنه يسافر حرفيا إلى سبق علمي يعتقد الجميع إلى الآن أنه لا يزال بعيد المنال.

وسرعان ما تذكر آخر مشاركة له في المؤتمر الذي تنظمه الجمعية الفلكية الإيطالية بروما كل عام، والذي ألقى فيه منذ سنوات تلك المحاضرة الملتهبة التي تناولت البحث الأخير لفريق عمله في الإيزا آنذاك. حيث شرح الآليات المتبعة لإثبات أن حيز الزمكان بالمفهوم الذي أدخله أينشتاين لعلم الفيزياء، قابل للتحديد وأنه غير مسطح، وهو ما كان من شأنه أن يمثل فتحا مدويا في علم الفلك، كونه يعني ببساطة أن فكرة السفر عبر الزمن لم تعد فكرة خيال علمي، بل أصبحت نظريا قابلة للتحقق.

- إنه لمن المذهل فعلا أيها الرفاق أن نتجه لإثبات نظرية وضعها أينشتاين قبل مائة عام !

قال بفخر وهو يخاطب ممثلي فرق الأبحاث العلمية المشاركة في ذلك المؤتمر، والتي كانت تتنافس بحدة فيما بينها لإثبات تلك النظرية. لاسيما فرق بحث معهد التكنولوجيا في كاليفورنيا، معهد

ماساشوستس، ومعهد ليغو العريق وغيرها من المؤسسات العلمية المهتمة بأبحاث الفيزياء الفلكية. إلا أن أعجوبة ذلك المؤتمر كما بدا للجميع لم تكن البتة ورقة جانلوكا العلمية الهامة، بل قميصه القطني المريح الذي كان يستقر على صدره وجه هومير سيمسون الأصفر. وتنهذ جانلوكا وهو يتذكر كم الأعين الجاحظة التي كانت تبحلق في صدره ذلك اليوم. وذلك بالرغم من أنه كان يحاول دوما إقناع نفسه بأنه رجل فكر لا رجل مظاهر، إلا أنه كان يشعر بالغصة كلما تذكر تلك الحادثة التي تسببت له فيها شركة الطيران الوطنية المشرفة على الإفلاس والتي كانت مضيفاتها لا يزلن يرتدين بدلة خضراء صممتها لهن دار موندريان عام 1998، وتسببت له بحضور مؤتمر دولي جاد بقميص قطني وحذاء رياضي بعد أن ضيعت حقيبتته خلال رحلته من ميلانو إلى روما، ولم يكن لدى وصوله إلى العاصمة متسع من الوقت لاقتناء بدلة رسمية أو إرسال أحد لذلك. وهو ما لم يكن ليثير انزعاجه في بادئ الأمر، ذلك أنه بالأساس لا يحب الرسميات والدليل أنه لم يكن يفضل السفر على مقاعد الدرجة الأولى بجانب رجال الأعمال بل كان يهوى الاصطفاف مع عامة الشعب في الدرجات الاقتصادية الدنيا. كما أنه كان يستمتع بتبادل الأحاديث مع المهاجرين الأفارقة غير الشرعيين والمنتشرين أمام مواقف السيارات لاقتناعه التام بأنه لا يشبه في شيء أثرياء اليمين المتطرف المتأنقين دوما والمشمئزين أبدا من القادمين من الجنوب دع عنك جنوب الجنوب، وذلك مع أن دخل جانلوكا فيرو السنوي كان يفوق دخل أعتى الأثرياء بفضل عمله مع الإيزا في تلك الفترة ليتضاعف الآن ثلاث مرات من عمله مع المركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية والذي كان يموله الملياردير الألماني هينريك فورتسنبورغ. ليبقى الفرق بينه وبين هؤلاء بنظره هو أنه

لم يستغل يوما أخاه الانسان للثراء مثلما يفعل هؤلاء وهو ما كان يشعره بالراحة، وإن كان يعيش فعلا بين أولئك الأغنياء في مسكن أنيق بحي إيزولا غاربيالدي التاريخي ذي المذاق النيويوركي وسط ميلانو. إلا أن ذلك لم يكن مهما، والأهم أنه كلما تذكر كيف أن ذلك الوجه الأبله فاغر الفاه والمطبوع على قميصه الأبيض الفضفاض قد سرق الأضواء من محاضرته آنذاك شعر بالكثير من اللوعة، وتذكر معها شركة الطيران تلك التي أصبحت تمثل الوجه البائس للوضع المالية للبلاد بأسرها، لدرجة أنها لم تكن تستطيع تأمين وجبة طعام للمسافرين على متنها، وتكتفي بتوزيع حبات بسكوت معدودة تأتي بطعم الليمون أو تارالي بزيت الزيتون.

تحنح محاولا استحضار ذكريات أنسب للحظات الإمتلاء التي كان يعيشها في هذه الفترة. وفكر أنه وإن تسنى له إلقاء محاضرة عن آخر اكتشافاته مع المركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية في قادم الأيام فلا شيء من شأنه أن يخطف الأبصار عما سيقوله، حتى وإن ألقى محاضرتة عاريا كشحمة هذه المرة. وخطر له مع مرور هذه الفكرة بباله رحلاته سنوات السبعينيات إلى أمريكا على متن البانام، الخطوط الجوية الشهيرة ذات الشعار الأزرق السماوي والمضيفات المبتسمات ذوات الكعوب السوداء العالية، ويكفي أن « بوند، جيمس بوند » لم يكن له ليسافر إلا على البانام ! وابتسم جانلوكا مسترجعا تفاصيل أسفاره القديمة وذكريات شبابه الجميلة. ليقرر الاسترخاء عند هذه الذكرى.

« سيداتي سادتي، قائد الطائرة يحييكم ويرحب بكم على متن خطوطنا في الرحلة المتجهة نحو مطار أقتار - حاج باي أخاموك

بتمنغاست. مدة الرحلة مقدرة بـ 8 ساعات، ونتوقع لهذا اليوم جوا صافيا ورحلة سلسلة. نشكركم مجددا على اختياركم شركتنا...». وأخذ نفسا عميقا وهو يستعد لرحلة الهوقار بدعة.

- 7 -

- وقعت في القفص.

إرتسمت على وجهه إيماءة غامضة. أخذ نفسا بطيئا من سياره المفضل: « الري ديل موندو شوا سوبريم». نهض عن مقعده وهو يستند بحركة غير مرئية من يديه اليسرى على متأكه الجلدي. وقف إلى النافذة. نظر إلى ميناء الجزائر الذي كان يطل عليه مكتبه من الطابق الأخير في المبنى الذي كان بالكاد يلفت انتباه أحد إليه في تلك المدينة العاجية بالوساوس. نظر مجددا إلى التقرير. نزييم خنخان. لم يكن يتوقع سيناريو كهذا على أي حال...  
- لكن الأكيد أن النهاية قد حلت. غمغم من دون صوت، وهو يتابع دخان سياره الذي أخذ يتبدد بصمت من أمامه.  
جميلة هي الهوقار !

- 8 -

نظر بهدوء لساعته وكأنه يترقب إعلان أمر جلل. دلف بخشوع إلى غرفة مكتبه الشاسعة، والتي كان أثاثها المصنوع يدويا والمنتقى بحرص من مجموعة ريبليكا لماركة لوريغيني الإيطالية الفارهة، قد أضفى على المكان إحساسا لذيذا بتداخل عجيب للأزمنة، امتزج فيه الطابع العصري مع الكلاسيكي بانسيابية انتزعت من المكان كل شكل

من أشكال النمطية، وفتحته على عوالم التقت فيها ثقافات وأشكال متعددة على نحو غاية بالسلاسة.

مرر هينريك كفه بهدوء على تلك الرأس الرمادية المنحوتة من الحجر، وهو يتأمل تفاصيل ذلك النحت الاستثنائي الذي كان يمثل أحد أغلى مقتنياته الفنية : الشق التوأم لإله الأونواكي القادم من الحضارة السومرية. إبتسم الرئيس التنفيذي للفيوتشر إينيرجي كوربوريشن مطالعا بوجد تمثاله المدلل. والواقع أنه وبالرغم من أن رحلته الأخيرة لفلورنسا كانت مقتضبة إلا أنها زودته بالطاقة اللازمة لمتابعة عمله بالكثير من الشغف.

وأخذ نفسا عميقا وهو يتأسف بالمقابل كون الأوضاع الأمنية لم تكن تسمح له بزيارة العديد من بلدان الجنوب للوقوف على ما يعرف أنه أولى الحضارات البشرية. وواصل تأمل ذلك النحت الغريب. إلا أن أوضاعه المادية لحسن الحظ كانت تسمح له باقتناء ما يشاء من آثار من شأنها أن تضعه على اتصال دائم مع منابع الطاقة الأزلية. والحقيقة أنه وبالرغم من أن الفيوتشر إينيرجي كوربوريشن لم تحظ بمشروع للمساهمة في إعادة إعمار العراق قبل سنوات مثلا، إلا أن فورتسنبورغ استفاد من تلك الحرب بالظفر بالعديد من التماثيل الأثرية الفريدة. وابتسم بزهو وعاد من جديد ليمرر كفه على تلك الرأس الأشبه بسحلية صحراوية، والتي كانت تعود لنفس حقبة نحت إله الأونواكي المعروف في المتحف العراقي وكان هينريك قد اشتراها قبل حوالي العشر سنوات من لندن، العاصمة العالمية للتجار الشرعي بالتحف الثقافية. تحف من العراق وأفغانستان عُرضت بعد غزو هذين البلدين للبيع في جنيف ولندن تهافت عليها تجار الآثار وجامعو التحف ودور المزادات، وقد كان له نصيب كبير منها.

وبسط هينريك عضلات وجهه وهو يطالع بعينيه الجاحظتين مقتنيات خزانته الزجاجية الممتدة على طول جدار مكتبته الأنيقة. « خزانة الأنوناكي » كان ذلك هو الاسم الذي أطلقه عليها، وهي التي كانت تضم تماثيل نادرة عن الآلهة السومرية والأكدية والآشورية والبابلية.

وحبس هينريك فورتسنبورغ نفسا عميقا لأربع ثوان في صدره، وعاد ليتأمل بامتنان مقتنياته ذات الطعم الإلهي المترف والتي أخذت اسمها من إله السماء « أنو » في الحضارة السومرية، وهو كبير الآلهة ورب الأرواح والشياطين ومن كان بيده حق محاكمة الخطّائين. وقد كانت الروايات الآشورية والبابلية تذكر أن الأنوناكي آلهة من نسل إله السماء أنو وإلهة الأرض كي. وبالرغم من أن معظم المؤرخين اتفقوا على أن لفظة الأناونوكي تعني « سلالة أنو » إلا أن هينريك كان يفضل ترجمة زكريا سيتشين<sup>4</sup> للمفردة وهي « القادمون من السماء إلى الأرض ». وهو من كان يحتفظ بذلك المؤلف المثير حول أصول الحضارة السومرية « الكوكب<sup>5</sup> 12 » حيث كان يهوى بشكل خاص قراءة الكتب التي تغرف من أسرار الماضي عله يتلصص من خلالها على تاريخ الحضارات البائدة. وقد كاد عدد كتب التاريخ القديم التي يحتفظ بها يوازي كتب الهندسة الكهربائية والطاقات المتجددة والاقتصاد البيئي في مكتبته. ليبقى شغف هينريك فورتسنبورغ السري هو تاريخ البشرية. وأخرج الآن من خزانته الأثرية تمثالا صغيرا للإيجي بحجم الكف، كان يشعر دوما أنه يحملق به كل ما دخل إلى تلك القاعة التي كانت تبث شيئا يشبه ذبذبات مغناطيسية خاصة نظرا لمقتنياتها النادرة التي كانت تحسده عليها أكبر المتاحف العالمية. إلا أن أغلى مقتنياته الإلهية

---

Zecharia Sitchin .4

The 12th Planet, 1976 .5

على الإطلاق كانت قطعة أرض لا تسعها خزانة الأنوناي هذه الزجاجية. وابتسم هينريك مستحضرا آخر صفقاته في الصحراء الجزائرية. وتأمل عن قرب العينين الواسعتين لذلك الصنم الذي انخرط في تدليك رأسه برهافة وكأنه يمسد حرفيا قطعة من السماء.

لقد كانت آلهة الإيجي بحسب أسطورة أتراخيسيس الأكادية عن الطوفان تشير إلى أن هذه الآلهة لم تعش على الأرض أكثر من أربعين يوما بعد خلقها من طرف آلهة الأنوناي التي كانت قد خلقت قبلها خمسة أجيال من الآلهة لتسهر على خدمتها، إلا أن الإيجي الذين كانوا يسكنون الجنة والتي تشير أسطورة الخلق الأكادية أن عددهم كان ثلاثمائة تمردت على آلهة الأنوناي بعد هذه المدة القصيرة من الخلق لتعاقبها هذه الأخيرة بخلق الإنسان.

وتذكر هينريك لسبب بغيض ما نزيم خنخان ومشتقاته، وحاول بسرعة العودة لأفكاره المتعالية. حيث قرر فرود كبير آلهة بابل والمعروف أيضا باسم مردوخ، بعد خلق الإنسان وبحسب قصة الخلق البابلية إينوما إيليش توزيع المهام على الأنوناي، فأصبح ثلاثمائة أنوناي يعيشون في السماء وثلاثمائة آخرين يعيشون على الأرض. ليبسط هينريك كفه لدقيقة على سطح تلك المنحوتة الحجرية كالمتعبد وهو يشعر بعظمة ملامسة لحظات جبروت سماوية. فبحسب ملحمة غلغاميش كان للأنوناي دور في الطوفان العظيم من حيث أن حكام جهنم السبعة كانوا من الأنوناي وقد أحرقوا هم الأرض قبل بدء العاصفة. لتقطع الآن دقائق تأمله هذه رنة من هاتفه أتت بنغمة حيادية...

- تمت آخر التحويلات المالية بنجاح.

- جيد.

- نسيما لم يتطلب الأمر الكثير من المال، فنزيم كا...

- حدثني عن التفاصيل لاحقا. قاطع هينريك مساعده بشيء من الانزعاج وكأنه لم يكن يود أن يُضح اسم ذلك الكائن الرخوي على مسامعه وهو يقف في حرم خزائنه الزجاجية المقدسة. لقد كان يعلم على أي حال بأن رأس ذلك البرميل المدعو نزييم أو بالأحرى بطنه لم يكن ليتجاوز سعرها في أحسن الأحوال عُشر سعر أرخص تحفة حجرية يملكها. بل كان مقتنعا على نحو ما أن جمجمته كان من شأنها أن تضلل علماء الآثار بعد ملايين السنين إذا ما تم فحصها بغاية دراسة تطور العقل البشري في هذا العصر. « سأكون على أي حال في المكتب خلال ربع ساعة لنضع اللمسات الأخيرة على مشروع الهوقار ». ثم نظف حلقة بشيء من العصبية: « ماذا عن جانلوكا فيرو؟ »

- لا بد أنه دخل الآن الأجواء الجزائرية.

- حسنا سأقرر وضعه لاحقا.

## - 9 -

تحسس جانلوكا وسادة سفره بارتياح، ثم سحب من جيب معطفه الخفيف لوح قراءته الأبيض الذي لم يكن يتخلى عنه في أسفاره الأخيرة. قلب محتويات مكتبته الإلكترونية، وارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة. فعدا عن إمكانية حفظ أكبر كم من الكتب داخل هذه الأداة، اكتشف جانلوكا لتوه أن أروع خاصية للكتب الإلكترونية هو حفظ خصوصية القارئ في الأماكن العامة... كتب تشرح مثلا وضعيات الكاماسوترا في مكتبة راهب مبتدئ لا يليق به سوى قراءة كتب اللاهوت والعقيدة، أو أعمال من نوع كيف تتزوجين مليونيرا في مكتبة شاعرة حساسة أعلنت أنها تزوجت الحرف والقصيدة، وحتما Secret Mars لأم. جي. كريغ، وهو كتاب لم يكن لعالم في الإيزا أن

M. J. Craig .6

يصرّح علنا وبأيّ شكل من الأشكال أنه قرأ أياً من فصوله. والواقع أن جانلوكا قد وجد نفسه يقتني بالخطأ كتاب أم. جي. كريغ هذا من على موقع أمازون في صالة الانتظار بالمطار، بعد أن بدأ بحثاً عن آخر الكتب المنشورة عن الوكالة الأمريكية للأبحاث الفلكية، ليجد نفسه يقرأ تعريفاً بالكتاب لا يختلف عن تقديرات البرامج الوثائقية التشويقية على الناشيونال جيوغرافيك...

لماذا لم تعلن النازا للعالم عن أعظم اكتشاف تم في تاريخ الفتوحات الفضائية؟ هل تود أن تعلم ما الذي تم فعلاً اكتشافه من خلال الكاميرات المرسلة لكوكب المريخ على متن رحلات الأوربيتر والروفر؟ ففي الوقت الذي لا تزال النازا تنفق فيه مليارات الدولارات فقط لتؤكد لك بأنه يوجد ميكروبات تعيش على سطح المريخ، ثمة من يقوم أيضاً بدراسة...

ليجد عالم الإيزا سابقاً نفسه متورطاً في فتح الكتاب قبل أن يتراجع عن الدفع بعد أن عُرضَ به على نحو ما، أو هذا ما كان يود أن يقنع به نفسه، للكبس على زر Acquista (اقتن) ويتلقى بعدها مباشرة إشعاراً من الموقع يهنئه على نجاح عملية الاقتناء وانضمام كتاب «خفايا المريخ» لمكتبته الإلكترونية. وقبل أن يتراجع عن العملية وجد جانلوكا نفسه يضغط على عنوان الكتاب ليصبح الدفع الإلكتروني بذلك لا مناص منه.

والواقع أن جانلوكا فيرو لم يكن يشعر بالانزعاج من اقتطاع مبلغ الـ 7 أورو والبضع سنتات من بطاقته الائتمانية في تلك اللحظة بقدر شعوره بالحرج من ستيفين هوكينغ<sup>7</sup>، وجيمس هانسن<sup>8</sup> وهوانغ وو ساك<sup>9</sup> أو ربما بالذنب لضم كتاب إثارة شبه علمي كهذا لقائمة

---

Stephen William Hawking .7

James Hansen .8

Hwang Woo-suk .9

كتبه الرصينة. غير أنه مع ذلك قرر الاستمتاع بهذا الخط الكوميدي، وفكر بمنح كريغ فرصة من وقته فما حصل قد حصل، والآن لم يبق له سوى أن ينصاع لقراءة هذا الكتاب، والأهم من ذلك أن الأمر سيتم بكل خصوصية !

- خفايا المريخ !! غمغم الفلكي الإيطالي بسخرية طفولية وهو يعيد قراءة عنوان ذلك المؤلف الذي كان سيشكل حتما قراءة طريفة قبل أن تحط الطائرة في مطار تمنغاست، لينطلق بعدها العمل الجاد. واسترق النظر بحماس إلى النافذة.

والحقيقة أن جانلوكا فيرو كان أكثر من يدرك بأن المعلومات الحقيقية التي تتناول التطورات الحاصلة في الأبحاث العلمية غير متاحة في الكتب التجارية وحتى تلك المتخصصة، وأن أغلب الأبحاث حالياً تبقى نتائجها سرية لصالح جهاتها الممولة.

هذا عدا أن المعلومات التي نتهياً عليها بخصوص مجرات بعيدة أوفر بكثير مما نعرفه عن باطن الأرض ومكوناتها. وتداعت إلى ذهنه الصور الغريبة للقمر الصناعي « نيبيرو » التي رصدها في قلب منطقة الهوقار.

والحقيقة أنه وفي الوقت الذي لم يستغرق القمر الصناعي فواياجير واحد سوى 26 سنة من أجل الخروج من مجموعتنا الشمسية قاطعا بذلك مسافة 16,5 مليار كلم، استغرقت البشرية نفس المدة لحفر 12 كلم فقط في باطن الأرض وهو أقصى ما تمكنت من فعله...

- لكن ليس بعد الآن !

وسرعان ما تراءت أمامه صور تلك الصحراء الشاسعة وشعر بانقباض لذيذ في المعدة.

- ما الذي تخفيه أعماقك غير الغاز والمياه الجوفية يا ترى ؟ فكر وقد لمعت عيناه ببريق غريب. ونظر الآن إلى النافذة وكأنه يودع آخر أفكاره في عالم ما قبل مشروع تمنغاست وما بعده. كان يعلم بأن كل شيء من حوله كان من شأنه أن يتغير بعد سويغات قليلة.

## - 10 -

جلس إلى مكتبه وتناول الملف الخاص بالوافد الجديد لبعثة الهوقار الخاصة بالمركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية، جانلوكا فيرو. وتوقف أمام عنوان ذلك الكتاب الذي أدخله بصيغته الورقية وسط أمتعته عبر مطار أقتار - حاج باي أخاموك بتمنغاست بحسب التقارير الأمنية. ضيق عينيه وهو يسحب نفسا طويلا من سيجار الباريهو الذي كان يفضل تدخينه في المكتب، بينما كان يميل لمعاقرة سيجار فيغورادو خارج أوقات العمل. لم يكن متأكدا من السبب. إلا أن الرؤوس المدورة كانت تمنحه شعورا أكبر ببسط السيطرة، عكس النهايات المدببة التي كانت تحشر سلطته في قناة ضيقة.

فرك طرفي جفنيه الخارجيين بصبر... كان قد أصبح مؤخرا يعاني من ضعف في البصر... لكنه لسبب ما كان يتقبل الأمر.

أعاد قراءة عنوان ذلك الكتاب غير المألوف ونفث الآن دخان سيجاره ببطء... لم يكن في وارد تذكر كل القائمة. لكنه على الأرجح لم يكن كتابا ممنوعا من الدخول. فكر وهو يدلك كتفه بكبسات بطيئة من إبهامه متفاديا باحتراف ملامسة شحمة أذنه للسيجار. حط نظراته على عنوان ذلك الكتاب من جديد دون استشعار أي تهديد من هذه الناحية. الأكيد أنهم مروّضون بما فيه الكفاية.

فكر باطمئنان وهو ينفث دخان « الري ديل موندو » بتؤدة، وتذكر في هذه اللحظة زعيم البلد الراحل. رسم على وجهه ابتسامة رضية. مط ظهره ببطء. وسحب الآن من درجه ذلك الكتاب الذي أصبح في حكم النادر وقد ارتسمت على وجهه علامات الحزم. Le Hoggar. وغرس نظراته في الإحالة الصغيرة المكتوبة بأحرف صغيرة على هامش الصفحة 30 من الكتاب :

وقد سجل كلود بلونغرنون<sup>10</sup> ملاحظة غريبة عام 1953 عندما لاحظ درجة إشعاعات عالية وصلت إلى 25 في مجموعة من الصخور قام بجمعها وهو أعلى رقم كان يمكن تسجيله على عداد غيغر مولر أحد أدوات اكتشاف الإشعاعات المؤيَّنة. وقد ذكر بلونغرنون أنه أطلع ب. بوردي<sup>11</sup> على هذه الحالة الشاذة وهو الجيولوجي الذي كان يزور المنطقة من أجل دراسة النشاط البركاني في الهوقار. وقد اشتبه بوردي في كونها إشعاعات كونية لكنه لم يؤكد شيئاً قبل عرض المسألة على اختصاصي.

وغمس عينيه في الهامش المسجل بحروف صغيرة من قلم رصاص على يسار الصفحة شارحاً مصادر الأشعاعات الكونية التي قد تصدر عن التتوءات التي تبرز من قرص الشمس ويطلق عليها الرياح الشمسية. وضيق عينيه وهو يحاول تتبع بقايا الغرافيت على تلك الصفحة المصفرة، لتبين المصدر الثاني لتلك الأشعة وهو النجوم حيث تكون خاطفة وقوية جداً وتنشأ من اندماج المجرات وتشكل الأجرام السماوية. وعاد ليشعر بذلك الوجع الغامض في كتفه الأيسر والذي لم يفارقه منذ أكثر من خمس وعشرين سنة. وزفر محاولاً التركيز على تلك الأشعة التي قد تأتي من مصادر مجهولة في أقاصي الجزء

---

Claude Blanguernon .10

P. Bordet .11

المنظور من الكون. وتوقف برهة عن القراءة وقد بدأ يشعر بالتماهي مع هذه الطاقة الغامضة... القوية... المجهولة... والذي لم يكن لها أن تكون لقيطة على أي حال فمسار الأشعة الكونية في الفضاء يتبع خطوط القوى المغناطيسية للشمس والكواكب، وشعر في طرف أصابعه بدبيب رجفة. فرك عينيه بعصبية وأنهى قراءة الهامش على المتن وإحساس غامض بالارتباك ينمو في نفسه بقوة... وبدراسة أنواع الأشعة الكونية المختلفة يمكن معرفة كيفية تكوّن النجوم ونشوء الكون. وشعر لوهلة أنه ضاع عن نفسه...

- علي حماية الاتفاقيات ! غمغم بحزم متذكرا واجباته المهنية. هذا كل ما عليّ فعله ! وأطلق زفرة ألم أخرى وقد غالبه مجددا ذلك الوجد الغامض في كتفه. ثم عاد لتقليب صفحات ذلك الكتاب ذي الغلاف الأزرق اللازوردي المطبوع في فرنسا بفضول مغناطيسي. حدج بنصف عين ملف جانلوكا فيرو. وحط لا على التعيين على الصفحة الثامنة والأربعين بعد المائة...

لم يكن قطاع الطرق ليتكوا فريسة كهذه لتفلت من بين أيديهم...

ولم يجد نفسه إلا وهو يتوقف من أجل القراءة بالرغم ما كان يكابده من آلام بركت على كتفه المحملة بشعار الجمهورية وسيفين متقاطعين ونجمة... بل نجمتين... وقريبا ثلاثة... ليصبح الرقم واحد في تلك المؤسسة...

كل ذلك الكم من الحيوانات يسوقها رجل واحد فقط

ابتسم بهدوء وهو يتابع القراءة. كانت أساطير الطوارق لذيدة. ولكنه عاد ليتذكر المهمة التي كان عليه متابعتها بنفسه... جانلوكا فيرو... وحتى إن كان الشيطان نفسه، فلا بد من نهيه...

ولم يجد نفسه إلا وهو مندمج مع بقية الأسطر، بالرغم من إلحاح  
مشاغله وأوجاعه والتزاماته...

شيطان لا بد من معاقبته على وقاحته

وشد بحركة غريزية على ذلك المجلد مكابداً ذلك الألم الغامض  
في كتفه...

كان لا بد لهم من التصرف قبل أن يلج إلى أعالي جبال الهوقار،  
التي لم يبلغها أحد بعد...

وشعر برعشة صغيرة في بطنه...

لكن لا بد من انتظار القطيع حتى يجتمع...

وأغلق الكتاب فجأة ودسه بحركة خاطفة داخل درج مكتبه.  
لم يكن يبدو أن أسطورة آمالان ومخططه للتخلص من ابن أخته إلياس  
التي أوعزها لعبده المطيع قد أثارت إعجابه بشكل خاص... نفث  
باستياء... وتذكر أنه مكلف بحماية بنود تلك الاتفاقيات و فقط. هذا  
كل ما عليه التفكير فيه الآن بوصفه رب ذلك المكان الأوحده. وتناول  
أحد التقارير الأمنية التي طلبها في وقت سابق وسرعان ما استغرق  
في التفكير وهو يفحص بعناية أدق تفاصيلها. نظر إلى ذلك الاسم  
مطولاً، ثم ارتفعت زاوية فمه برعشة طفيفة.

- من كان ليصدق أن ذلك الأبله كان قادراً على فعل أمر كهذا ؟

والتصقت على النصف السفلي من وجهه حركة غامضة.

- 11 -

ألقي آخر التقارير القادمة من الصحراء بريية، وهو يفكر  
في الحركة غير الطبيعية التي كانت تدور منذ أشهر في كواليس مديرية

المخابرات العسكرية والتي كانت تنبئ بحلول كارثة وشيكة. عبث  
بربطة عنقه وهو يكابد شعورا هائلا بالانزعاج.

لقد كانت المعلومات في ذلك المكان أشبه بقطع أحجية كبيرة  
لم يكن من المتاح، بحسب التراتبية الهرمية الصارمة في مؤسسة كنتك،  
تجميعها كلها على رقعة واحدة من طرف عسكري برتبته. حتى وإن  
خال لمن كان يعيش في ذلك البلد الأشبه بتارتاروس دنيوي أن جميع  
من ينتمي لهذا العرق من الآلهة هو سميع عليم بالضرورة. وأطلق  
تنهيدة عميقة. فالآلهة أيضا درجات. فكر بشيء من الأسى. وتناول  
مجددا التقرير الأمني القادم من تمنغاست وقلب صفحاته للمرة  
العاشرة لذلك اليوم من دون اقتناع.

« جانلوكا فيرو ». نطق الاسم بارتياح وهو يحلحل ربطة عنقه  
بضيق مستعيدا الشريط السريع لتلك المحادثة المركزة.

« لا أريد للخبر أن يتسرب للصحافة ». تذكر الأمر الذي تكرر  
مرتين في ظرف دقيقة وهو يقلب في رأسه الكلمات التي أتت بعدها  
واحدة واحدة. لم يكن كبير الآلهة من النوع الذي يغدق باستخدام  
الكلمات في الأساس بإصدار الأوامر.

« لا أريد للخبر أن يتسرب للصحافة ».

دع عنك تكرار تعليماته مرتين...

وذلك رقبته بعصبية. فرئيسه كان عموما يكتفي بإفلات خيط  
أو شد خيط لتتحرك الدمى من حوله بصمت ويكتفي هو بمراقبة  
المشهد دون أن يفعل. لكنه مع ذلك رآه يكرر أوامره... يكرر  
على سياره. وفك ياقة قميصه على حين غرة وقد شعر بالاختناق.  
نظر إلى الورقة التي دون عليها اسم ذلك الكتاب الغريب... وما هذا  
« التيمايوس والكريتياس » أيضا ؟

- سحقا! غمغم بسخط. لا بد أن القطعة الأهم يملكها من تتبع خطوات هذا الفيرو حتى قبل أن يحط قدمه في تلك القاعدة. ما الذي جلب هذا الإيطالي إلى هنا؟ لم تكن تلك من صلاحيات دائرته... لكن الأكيد أن هناك من اتبع كل خطواته منذ أن حصل على تأشيرة الدخول للجزائر وحط قدميه في مطار تمنغاست للمرة الأولى على متن الرحلة AFR 874، وكل شلة رفاقه المريية.

## - 12 -

كان هينريك فورتسنبورغ راضيا عن وتيرة سير العمل في قاعدة الهوقار، وأداء فريق بحثه الذي لم يمكن عددهم على الأرض يتجاوز العشرين شخصا بين جيولوجيين، أركيولوجيين، مهندسين وفيزيائيين. في حين بلغ عدد موظفي الأمن خمس وأربعين، استجلبوا جميعا من شركة متخصصة في تقديم خدمات الحراسة الشخصية، وقد عمل أغلبهم في العراق وأفغانستان، عدا عن رجال الأمن المحليين التابعين للجيش والذين كانوا يحرصون على تأمين جميع قواعد العمال الأجانب في الصحراء الجزائرية. ليشكل ذلك رقما قياسيا بالنظر لطبيعة المشروع البحثي المصرح به. إلا أن ما كان يثير قلق هينريك في كل هذا، كان منع تسليح رجال الأمن الخاصين بالشركة بسبب قوانين أطلق عليها خنخان نعت سيادية، ولم يكن من الممكن في أي حال من الأحوال إدراجها في المفاوضات على أي صفقة تتم في الصحراء الجزائرية.

زفر هينريك بشيء من الانزعاج بعد تذكره لهذه الجزئية وعن جدوى الحراس الشخصيين التابعين لشركته في هذه الحالة، إلا أنه كان عموما راضيا بما وصل إليه خلال هذه الصفقة بالتحديد. وفكر أن

الوضع في المنطقة لم يكن بالسوء الذي يستدعي ذلك الكم من رجال الأمن بالأساس. وأعاد قراءة آخر التقارير القادمة من قلب المشروع الذي بدأ العمل على آخر مراحل بعد نقل الآليات اللازمة إلى الموقع والتي عمل على تطويرها مهندسو شركته طيلة سنوات بسرية تامة، ولم يبق سوى إعطاء إشارة البدء في التنقيب.

طوح هينريك رأسه إلى الخلف منتشيا لعظمة اللحظة وفكر أنه لا بد من انتظار تقرير جانلوكا فيرو على أي حال قبل الإقدام على آخر خطوة. تنهد بعمق وشعر بشيء يشبه الرجفة اللذيذة تسري في أعماقه لم يراوده شيء مماثل لها سابقا، حتى وهو يحقق أعتى نجاحاته المهنية.

والأكد أن مشروع الهوقار لم يكن مشروعا عاديا البتة بالنسبة له، إذ لم يكن الأمر يتعلق بعملية استخراج عادية للنفط والغاز، والتي كانت الفيوتشر إينيرجي كوربوريشن معتادة على الإشراف عليها في أماكن مختلفة من العالم حيث لا يتجاوز عمق الحفر عادة الألفي مترا سواء أعلق الأمر بالصحراء أو المحيط بل كانت المهمة أعمق وأعقد بذلك بكثير.

فالمشروع الذي أتى تحت غطاء التنقيب عن الآثار من طرف المركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية يتجاوز بمراحل عدة مشروع « بئر كولا العميق » العلمي الذي أطلقه الاتحاد السوفياتي عام سبعين من أجل استكشاف القشرة الأرضية والذي بلغ عمقه 12262 مترا محطما بذلك الرقم القياسي لبئر روجرز في أوكلاهوما والذي وصل إلى عمق 9583 مترا. لتتوقف الأعمال في البئر السوفياتية عام خمسة وتسعين بعد وقف تمويل المشروع الذي صاحب انهيار الاتحاد السوفياتي. وذلك بالرغم من أن إشاعات تناقلتها الصحف عن وقف عمليات الحفر

بسبب سماع أصوات بشرية مخيفة تنبعث من باطن الأرض كما صرح للصحافة العديد من العمال الذين شهدوا عمليات الحفر. وفند بعدها القائمون على المشروع هذه الأقاويل مؤكداً أن المشروع قد توقف بسبب ارتفاع مفاجئ لدرجات الحرارة على عمق 12 كلم حيث تم توقع وصولها إلى 100 درجة لكن ليس إلى 300 درجة مئوية وهو ما لم تكن معدات الحفر مصممة للتعامل معه.

وقد أخذت الفيوتشر إينيرجي كوربوريشن العبرة من التجربة السوفيتية الفريدة لتقوم بتصميم معدات حفر تعمل بتكنولوجيا معقدة تم تصنيعها خصيصاً من أجل هذه المهمة، وقد كان من شأنها مواجهة أية مفاجآت قد تعترضهم في بطن الأرض بالرغم من صعوبة توقعها. ذلك أن الجيولوجيين لم يتمكنوا إلى الآن وبالرغم من التقدم العلمي الهائل والحاصل في جميع المجالات من سبر الأغوار الحقيقية للكوكب الأزرق. حيث إن كان كل ما نعرفه عن الطبقات السفلية للأرض نابع من تحليلات لصور أقمار صناعية يختلف تطورها من مركز بحث لآخر - تقوم بقياس التيارات المغناطيسية للكوكب، ويتم على أساس ذلك تكوين فكرة عن المواد التي يتشكل منها باطن الأرض.

وتأمل هينريك بفخر الصور التي التقطها القمر الصناعي « نيبيرو » الذي أنفق على تطويره حرقاً باخراً من الأموال. وقد رصد مؤخراً نشاطاً فريداً للتيارات المغناطيسية للأرض في تلك البقعة النائية. الهوقار.

غمغم فورتسنبورغ بنشوة وهو غير متأكد إن كان الجسم اللوزي في دماغه نشط بما فيه الكفاية من أجل حمايته من الاستثمارات الخطرة وإنذاره باحتمالات الخسارة في مثل هذه المشاريع بالتحديد. ذلك أن كل ما كان يفكر فيه في هذه الأثناء هو أنه مستعد لضخ ضعف ما صرفه من مال من أجل استكشاف هذه البقعة من الأرض التي

لم يكن يبدو أن هناك من سبقه إليها نظرا لتكلفة الاستثمار الفلكية بخصوصها، هذا عدا أن أصحاب الأرض كانوا مشغولين باستثماراتهم الشخصية. ورفض هينريك من رأسه مباشرة أي اسم قد يقفز إلى ذهنه مع مرور هذه الفكرة بباله. فكل ما كان يفكر فيه صاحب إحدى أغنى شركات الطاقة في العالم هو أن مشروعه هذا يمكن أن يشكل اختراقا فريدا في عالم الصناعات الطاقوية وأنه سيكون أول من يحط يده على السر المدفون في جوف هذه البقعة من البسيطة. ومرر كفه الآن على رأسه اللامعة وهو يشعر بالزهو.

- لم يبق سوى البدء في عملية « التنقيب ».

وتناول بحرص التقرير اليومي الذي كان موضوعا بعناية على مكتبه. اليوم سيصل جانلوكا فيرو للإشراف على المرحلة ما قبل الأخيرة من المشروع. وأوما برضا بالرغم من التوجس الذي لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من الشعور به حيال ذلك الإيطالي وهو الذي لم يكن ليحيد من المشروع في هذه المرحلة، بالرغم من تبين نواياه حتى قبل اجتماع جنيف، ذلك أنه لا بد من أن يشارك على الأرض في تحديد ماهية تلك الثقوب التي اكتشفها قمره الصناعي « نيبيرو » على أي حال. وسرعان ما وجه هينريك نظره إلى مكتبته الضخمة، ليدس عينيه في كتاب سيتشين المثير للجدل. أما هو فلم يكن بحاجة لأن يطلع العالم على اكتشافه. فكر بكلية. فمن كانت له عينان فليصبر ومن كانت له أذنان فليسمع.

والواقع أن هينريك كان يود أن يرصد ردة فعل جميع مناوئي سيتشين المسفهين لنظريته التي أطلقها عام 76. وذلك بعد أن أكدت النازا من خلال مهمة فواياجور 2 التي مرت بكوكب أورانوس ونبتون عام 2007 لأول مرة تطابق أوصافهما مع الأوصاف السومرية القديمة

الواردة في كتاب سيتشين، أما عن الكوكب المجهول الذي أطلق عليه العلماء اسم الكوكب إكس والذي سماه السومريون ببساطة « نيبيرو » واستلهم منه هينريك إسم القمر الصناعي الذي مول أبحاثه، فقد تحتاج النازا لعشرات السنين من أجل اكتشاف معلومات عنه أو ببساطة إماطة اللثام عنها.

ومط هينريك عضلة خده اليسرى بحركة تشبه السخرية. لقد كان تكبر عقل الإنسان في العصر الحديث على المعارف القديمة لا يشبهه في شيء سوى تكبر الإسفنجة على عقلها الذي قررت أن تتخلى عنه خلال عملية التطور. فكر بتبصر. أما هو فقد كان إنسانا فوق العادة. ومسجد مجددا رأسه الخالية من الشعر. حيث قد قرر أن يفتح عقله على تجارب أجداده البشرية القديمة ويهول مشروعاته العلمية بنفسه لينتهي بعد سنوات عدة من التعاون مع كبير خبراء وكالة الإيزا للأبحاث الفلكية الأوروبية بذلك الكشف الفريد الذي صادف وجوده في مكان قابل للبيع اسمه الهوقار. واسترخى هينريك كليا على كرسيه وهو يفكر أنه سيحصل قريبا على مطرقة ميولنير الخارقة، ويضع يده أخيرا على ألوهية تور. وابتسم بهناء. وسرعان ما قاطعته أفكاره رنة خاطفة بإشعار تلقيه رسالة.

- تبا !

لم يكن يعرف السبب من وراء دخول ذلك الشيء دوما على خط عقله كلما كان غارقا في بحر أفكاره التي لم تكن تحتتمل وجود صور إسفنجية من طراز هذا الخنخان. « هل هذا وقت إبلاغي بتفاصيل التحويلات المالية لحساب ذلك البرميل ؟ ».

والواقع أن هينريك قد أمضى سنوات طويلة محتارا في الوصف المناسب لذلك الميكروب البشري الذي كان وجوده حيويا من أجل

إتهام صفقة الهوقار هذه بالتحديد، بل وجميع صفقات الفيوتشر إينيرجي النفطية الخاصة بذلك البلد. إلا أنه لم يكن في النهاية بأهمية الجراثيم التي كانت فوائد بعضها تفوق أضرارها، ليجنح بعدها لاختيار صفة المخلوق الإسفنجي لتلك الجثة المتحركة المدعوة نزيـم خاخا أو كاكا والذي لم يكن يستسيغ عموماً إسمه. ذلك أن الإسفنج كان مخلوقاً لا عقل له تماماً مثل ذلك المخلوق البشري الأبله الذي لم يكن يحسن حتى صناعة غذائه بنفسه، وهو الذي قرر في لحظة تطور تاريخية وصفها العلماء بالذكية بالتخلي عن عقله لأنه لم يكن بحاجة له بينما كان مزروعاً وسط البحر لا مهمة له سوى شطف العضويات الدقيقة من الماء الذي يحيط به والتغذي عليها ليعود وي طرح فضلاته على نفسه وهو ما يبرر رائحته الكريهة. فكر هينريك بتقرز. لقد كانت تلك دورة حياة لا تستدعي وجود أي عقل من شأنه أن يستهلك منه طاقة الأكل والتغوط... تماماً مثل ذلك الكا... كا وأمثاله الذين لم يكونوا سوى كائنات إسفنجية عطنة لا مهمة لها سوى الأكل والتغوط بعد أن تخلت عن عقلها بإرادتها.

والواقع أن هينريك فكر في لحظة معينة بأن ذلك الشيء البشري الكريه، لم يمر على الأرجح بأي من مراحل تطور الكائنات الحية وأنه قد خلق فارغ الرأس بالأساس وسيبقى، ليرسو بعد ذلك على وصفه بالبرميل... برميل فارغ حيناً أو ممتلئ حيناً بحسب حجم الاستهلاك... لا يهم فهو في النهاية برميل لا يحمل شيئاً من روح الآلهة.

### - 13 -

أنا هو ربها! ... إيه أنا هو ربها ! غمغم نزيـم بنشوة وهو يحاول التموضع على طريقة نجوم السينما مدركاً أن صورته في تلك اللحظات وهو مستلق على سطح يخته الفاره ذي الـ 76 متراً مربعاً « ماي بامبلا »

حاملا كأس الشامبانيا، تشبه لقطة مستتلة من فيلم هوليوودي ساحر لم يتسن لمن يطلق عليهم اسم « لي سيتوايان » في بلده مشاهدتها، سوى من خلال شاشات الحاسوب أو على القنوات الفضائية، فلا صالات سينما عامرة في ذلك البلد القارة الذي يعيش سكانه فقط على حلم الحصول على وظيفة أو شراء سيارة.

عدّل نزيّم خنخان نظارته الراي بان وهو يحاول التموضع على نحو يجعل هيئته تبدو أصلية مثلما هي نظارته الثمينة، وقد بدت حركاته الآن وهو يتأكد من وضعية السيارة في فمه المثبتة بزواوية ميلان عشرين درجة إلى اليسار، وكأنها مأخوذة من مسلسل عربي ممل يستخدم صنّاعه ديكورات وثياب أجنبية لرفع نسبة المشاهدة لأحداثه المسروقة، والتي لا يتابع حلقاتها عادة سوى مشاهدون شبه أموات يعيشون بعيون مفتوحة حد الدهول في منازلهم الآيلة للسقوط، ليس لشيء سوى للتلصص على عيشة الأحياء من البشر على سطح الكرة الأرضية.

عبث نزيّم بهاتفه الذكي وهو يقلّب صور « لي سيتوايان » من حساب على الفيسبوك باسم Nounou le Magnifique، كان يحرص دوما على فتحه ليضحك من خلاله على عروض فيسبوكية تقدمها مجموعة بشرية مثيرة للشفقة تكرم عليها زملاؤه بزخات انترنيتية بسيطة، ليستمتع هو من حين لآخر بعروضها الهزلية المتنوعة. وارتج الآن كرسيه من الضحك على منشور يعتقد فيه أحدهم أنه تشي غيفارا عصره وآخر فولتير زمانه... وواحدة تنشر صورة ليدها، وأحدهم يتصور مع طبق شاورما... وأخرى تشتكي من ضعف شبكة الأنترنت فيجيبها أحد المعلقين « اصبري إن الله مع الصابرين... » ضحك من قمة رأسه وسكب له كأس شامبانيا أخرى...

- بلا بلا بلا بلا...-

أما هو فقد كان يستجم بعد الانتهاء من تقاضي آخر عمولة من صفقة الهوقار، والتي اتضح أنها من بين أهم صفقات حياته حيث جنى من ورائها مبلغا محترما طيلة مراحل المفاوضات وخطوات الحصول على التراخيص المختلفة.

والواقع أن نزييم لم يكن يدرك سر اهتمام المركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية بدراسة ذلك الجزء المقفر من الأرض بالذات، إلا أنه كان يطلب المزيد من المال مع استصدار كل ترخيص جديد للمضي قدما في عملية الأبحاث في تلك المنطقة... تراخيص دخول الموقع... تراخيص بناء... تراخيص تنقل... تراخيص إدخال معدات... تأشيرات من هنا وهناك... وعبّ الآن بنشوة من كأسه وهو يثني على مخترع كل تلك الخطوات البيروقراطية التي لم تكن بنظره سوى طريقة فذة لتحصيل الأموال.

والحقيقة أنه وبالرغم من التذمر الأجنبي عموما من ضرورة دفع الرشاوي على مراحل متعددة في المشروعات الجزائرية عكس بقية دول العالم الثالث، وهو ما كان يعقّد من مهمة جذب الاستثمارات في هذا البلد. إلا أن توزيع الفساد بالتساوي على عصابات الحكم كان يتطلب ذلك، وهو الأمر الذي كان خنخان يحاول شرحه دائما لجميع الزبائن المتذمرين. ونفث نزييم باستياء وقد عاد إلى ذهنه لقاء عابر جمعه مع ابن أحد الجنرالات الست وقد لمحّه خارجا من مقر شركة المحاماة التي كان متعاقدا معها في جنيف لإدارة ممتلكاته، وعلى الأرجح فقد كان هو الآخر يدير ثروته من وراء البحار بذات الطريقة.

- كم بلغ حجم مسروقاته يا ترى ؟ وشد على قبضته بحركة حاقدة. والمعلوم بالنسبة لنزييم على ذمة مصادر مطلعة أن الجنرال المخضرم

وابنه كانا منخرطين في النهب الممنهج قبل والده خنخان بعشر سنوات كاملة. وعاد ليرخي عضلاته وقد فكر أنه عموماً انتهى بتقاضي عمولة بقيمة محترمة على مشروع الهوقار السخيف هذا والذي يتناول دراسة بعض الآثار البدائية.

وقهقه وهو يصب له كأساً أخرى من شامبانيا العنب الأسود المقطوف بحرص والمقشر بعناية حتى لا يتلون قلب ذلك السائل الاحتفالي المجيد ويصطبغ بلون العتمة. وأخذ عبة طويلة من شرابه وهو لا يكاد يصدق مدى براءة العقل الغربي المؤمن بأشياء تسمى أبحاثاً علمية لا غاية مادية ترجى منها. وتلمظ قليلاً وهو يحاول التفكير بجدية. فلو تعلق الأمر بحقل غاز أو نפט كان يمكن له أن يفهم مدى سخاء المبلغ الذي حصل عليه، لكن أن تكون المنطقة المطلوبة هي الهوقار فلم يكن الأمر يستدعي سوى السخرية. وتشرذق بقهقهاته مثنياً على عبقريته في اقتناص المال من صفقات مربحة حتى وإن تعلق الأمر ببقعة صحراوية مجدبة. وواصل الآن التسلي بتقليب المنشورات الفيسبوكية من أمامه وارتطم بجملة شوشت صفاء أفكاره للحظة.

فضيحة وزارة الثقافة هذه المرة لا يمكن السكوت عنها...

بلع ريقه وهو يقرأ هذه الكلمات خصوصاً أن صفقة المركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية وعكس صفقاته السابقة قد مرت هذه المرة عن طريق وزارة الثقافة لا من خلال رجاله في وزارة الطاقة العتيدة.

هل يعقل أن شيئاً ما قد تسرب عنها؟

والحقيقة أن مشاعر الريبة كانت تعتمل في نفس نزييم منذ دخوله قطاعاً مجهولاً لم يكن يضمن الفاعلين فيه ولا يملك أدنى فكرة عن تركيبته المزاجية. فكر وهو يشعر بالارتباك فهو لم يكن يعرف طينة المسؤولين عن تلك المؤسسة ولم يخبر التعامل معهم سابقاً.

الوزير يتجاهل مجددا إبداعاتي ومساهماتي الأدبية الكبيرة.  
لتبدأ مشاعر الخوف تتبدد من رأس نزيم ويحل محلها طعم  
الاشمزاز...

- عم يتحدث هذا الشخص ؟

علمت للتو بأن الصالون الدولي للكتاب لن يوجه لي دعوة للاحتفاء  
بعملي الأخير... كفانا مهازل... كفانا فضائح... كفانا... كفانا... كفانا...  
وتمنى نزيم لو أنه يهوي في هذه اللحظة على ذلك النداب بكف  
على خلقته، وهو من خال من أول جملة كتبها أنه اكتشف تفاصيل  
صفقته مع مركز الأبحاث الذي طلب مديره بشكل صريح أن يتضمن  
الاتفاق بندا بعدم مشاركة أي طرف جزائري في عمليات التنقيب، وهو  
ما كان يمكن أن يثير حفيظة هذا « المثقف » في حال اكتشف أمر  
الصفقة ليظهر أن الفضيحة التي اكتشفها لا تعدو كونها عدم احتفاء  
بشخصه الوضيع.

- يا خي حمار... يا خي كافي... حبستلي قلبي !

سب نزيم من قمة رأسه ذلك الشيء وهو يثني في قلبه على قرار  
مدير ذلك المركز الأجنبي في عدم تواجد كائن من هذه الفصيلة  
لمرافقة فريق بحثه في الهوقار.

- وجوه الشر ! بصق الجملة وهو يلغي صداقة ذلك الكائن الهلامي  
الذي لم يركز حتى في اسمه، ولا يعرف كيف دخل قائمته الفيسبوكية  
بالأساس والأرجح أنه وصل إليها بالخطأ في فترة تعاملاته مع عصابة  
وزارة الثقافة حيث كان يرغب في التلصص على كواليسها والتي لم يعد  
بحاجة إليها بعد أن تم كل شيء على ما يرام.

ألقى هاتفه الذي جانبا ونظر من حوله بزهو وهو ينفذ  
صور أولئك الأقوام اللزجين من رأسه. قام من مكانه في شبه حركة

استعراضية وتوجه إلى حوض السباحة المغروس وسط اليخت ليستمتع بجولة سباحة أخرى تحت شمس ميامي الحارقة وحرص على تعديل شورته بحركة فنية.

والحقيقة أن كل حركات نزييم كانت تبدو مستوحاة من أفلام السينما التي كان يهواها بشكل خاص حيث كان يشعر بشكل أو بآخر وهو يتماهى معها أنه قد نط لتوه من إحدى شاشات صالات عرض بيفرلي هيلز الأكثر فخامة، كيف لا وهو يعيش في هذا البلد بذخ الحياة الهوليوودية بجميع تفاصيلها.

نفخ صدره للفكرة ممسدا بدنه وهو يشعر أنه لا يقل أهمية عن هالك هوغان أو ريكي مارتن الذي كان يملك منزلا لا يبعد كثيرا عن منزله في ميامي. وضرب صدره بقوة متمثلا سلفستر ستالوني في أحد أدواره، ثم عاد لينكمش على نحو غريزي بعد أن انتبه إلى أن قطع بدنه اللحمية الزائدة أخذت ترتج على نحو يعوزه السحر الهوليوودي، وقد كادت كرشه المتدللية تغطي سروال سباحته وهو أمر لم يشاهد شيئا يشبهه قط في أي من أفلامه المحببة.

رمى بنفسه بقوة داخل حوض السباحة محدثا شيئا يشبه التسونامي على سطح اليخت في مشهد يشبه القفزة الانتقامية من ذكريات سقيمة غزت فجأة صفاء أفكاره...

- بتيّة !

هكذا كان يطلق عليه أصدقاؤه في المدرسة أما الآن فأغلب أولئك السفلة يكتفون بتمسيد أجهزة التحكم عن بعد لأجهزة تلفازهم السقيمة، أو فرك هواتفهم ذات البطاريات الصينية القابلة للانفجار في أي دقيقة، أو حواسيبهم الموصولة بأنترنت متقطعة، طيلة نهارهم وليلهم من أجل أن يطلوا على شيء من عالم الترف الذي يعيش فيه هو... ولا يهم إن كان هؤلاء يتمتعون ببطن مسطحة تظهر عضلاتها

السته فالمهم هي الأصفار الستة على يمين رصيده في البنك والتي سيصل بها قريبا إلى السبعة. فكر نزيمة بحقد، واتجه ببطء إلى حافة المسبح وصورة آخر حساب مصرفي سري له في سويسرا تتراقص أمام عينيه. ورسم ابتسامة صغيرة تخيل أنها تبدو مثيرة على وجهه المستدير الكبير ولفظ معها اسمه بأسلوب جيمس بوند وهو ينغرز داخل المسبح على نحو لا يخلو من الاستعراض :

- My name is Khankhan... Nazim Kha...

وسرعان ما تعثر بلقب خنخان، وبصق الماء الذي يبدو أن نسبة الكلورين فيه كانت زائدة ذلك اليوم بالكثير من الامتعاض. والحقيقة أن نزيمة أو خنخان جونيور كما كان معروفا بين الأصدقاء، لم يشعر يوما بالرضا عن لقبه الذي كان يتحول عند لفظه بسرعة باللغات الأجنبية حين تسقط النونان منه، إلى شيء يشبه لفظا بيولوجيا يصنعه الجسم بشكل طبيعي لكنه ذو لون بني ورائحة نفائفة، ويُفهم على أنه كذلك في اللهجات المختلفة لأكبر لغات العالم العربية، الروسية، الإسبانية، الإيطالية، الرومانية، المجرية، العبرية، الفرنسية، الألبانية... ولكنه ولحسن حظه بالسويدية ولغات شمال أوروبا فـ« كاكا » تعني قطعة كيك. نعم ! هذا ما أكدته له حبيبته السويدية عارضة الأزياء من الدرجة الثانية أو الثالثة وقد تكون الرابعة لم يكن يدري... كما لم يكن يدري أيضا إن كان حبا للكيك أو الكروش المنتفخة هو ما جعلها ترتبط به، أم ببساطة الحياة الرغدة التي كان يضمناها لها، والتي كان يؤمئها له بدوره والده من على بعد 12 ساعة و45 دقيقة سفر في الطائرة من فلوريدا على خطوط إير فرانس أو مجانا على الخطوط الجوية الجزائرية التي لم يكن يفضلها دون احتساب ساعات التأخير. والواقع أن خنخان الصغير قد بدأ يرث هو شيئا فشيئا نفوذ والده وقدرته العجيبة على حلب بقرة عن بعد، من غير أن يتأثر

براءحة الزربية التي تعيش داخلها. وقد كان معجبا كثيرا بدهاء أبيه، بالرغم من أنه كان يعلم أنه لم يكن مخترع عمليات حلب الأبقار عن بعد في ذلك العالم المدعو ثالثا وإنما كان تلميذا نجيبا لرواد أشاوس من السياسيين والعسكريين الذين سبقوه في ابتكار تقنيات حلب بهائهم الوطنية، بل وتطوير أساليب استغلالها عن بعد من أصقاع مختلفة من العالم أهمها لندن، باريس، جنيف، نيويورك، لوكسومبروغ أو أي مدينة من شأنها أن تؤمن موطنا بعيدا كفاية عن تلك الزرائب الخربة. وقد كان نزيماً موقنا بأن والده سيتزوج يوماً ما ملكاً أو حاداً على عرش اللصوصية. وتلذذ بفكرة كبس رأس ابن ذلك الجنرال السقيم عن قريب. وخرج الآن متهدداً من حوض السباحة وفكر أنه قد يكون من الممتع إشراك أولئك الرعاع ببعض المعلومات عن إنجازاته الأخيرة.

عدل سروال سباحته بحركة محسوبة، نظر إلى طاولة المشروبات الباذخة التي كانت مفرودة بجوار كرسيه. أخذ رشفة طويلة من كوكتيل المارتيني الرابع لذلك اليوم الحار في ظرف ساعة والذي كان يفضل بالفودكا بدل الجين. وشعر في هذه اللحظة أنه من الأفضل أن يطلب جعة باردة... أو ربما اثنتين... أو ثلاثة... عدا عن قنينة الشامبانيا التي قضى عليها في ربع ساعة. استلقى على كرسي السباحة الطويل. وضع ساقاً فوق الساق. نفخ صدره. تناول هاتفه وتأكد من أنه سيستعمل النبرة المناسبة لإعلان الخبر... لا بل تنميق الخبر... يقصد صنع الخبر... تجشأ بصوت مسموع... وفكر أن الشخص الأنسب لهذه المهمة هو يحيى.

تناول هاتفه دون أن يعلم تماماً ما الذي كان يود قوله... أو فعله... وكرع مجدداً من كأسه... والواقع أن نزيماً لم يكن ينوي حتماً إبلاغ الإعلام عن صفقاته السرية، لكنه وعلى الرغم من ابتعاده

عن الصحافة الجزائرية والتي لم يسبق وأن ذكرت اسمه في أي سياق كان. إلا أن ذلك لا ينفي دوره الهام في جلب الاستثمارات لذلك البلد اللئيم الذي لا يعرف شعبه عنه شيئا، في تعبير صارخ عن ذكران الجميل والوجود وانعدام العرفان. فكر نزيه وهو يتنهد بمرارة بينما كان يمص آخر قطرات المارتيني... لم يكن يعرف بما كان يفكر به تماما في تلك اللحظة... لكنه كان يشعر أنه يستحق التكريم، يستحق الإشادة، يستحق المدح... يستحق الشكر... بالرغم من أنه كان يحرص على شكر نفسه من خلال عمولة كان يقبضها وراء كل صفقة يؤمنها للشركات الأجنبية التي كانت تتعامل معه في أغلب الأحيان كمستشار بعد أن ذاع صيته في كونه الراعي الرسمي للفوز بالمشاريع الاقتصادية في ذلك البلد في السنوات الأخيرة. ونفخ صدره وهو يأخذ نفسا عميقا شعر معه بطعم الألوهية.

أنا هو باباها !! نهق بأعلى صوت له ككعموس ممسوس. وعاد لذهنه آخر اجتماع عقده قبل عدة أشهر في فندق بولغاري بلندن مع ممثل عن المركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية.

- هؤلاء من يعرفون قيمتي ! وعاد لوضعه الأول وانخرط في الشرب مجددا متناولاً هاتفه بيد مترنحة : « أخبر الصحافة أننا تعاقدنا مع إحدى أهم الشركات الأجنبية من أجل التنقيب عن الآثار في تمنغاست ». قال من دون مقدمات.

- حاضر... تقصد صفقة... عملية... بل اتفاق التعاون مع المركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية. رد متلعثما وكأنه لم يتوقع المكاملة، ولا ذلك الطلب.

- نعم... نعم مركز... شركة... معهد... تلك المعاهدة... بروتوكول التعاون... اتفاقية التعاون تلك. سمها ما شئت. رد بشيء من العنف الممزوج بالحرص.

- هل من اتجاه محدد ؟

- آه... عموماً... طبعاً... وذلك إيماناً منا بدور السياحة في تعزيز الاقتصاد في وطن الرجال. بلد المليون ونصف مليون شهيد. ونظف الآن حلقه بتشوش. « بالإضافة إلى التركيز على جمال بلدنا وروعة مناظره و... أهمية... نعم... إنها صفقة مهمة... أقصد تعاونية... جمعية... فيدرالية... اتفاقية... » تلعثم. « هذه الأمور. تعلم... طبعاً... و... وإشادة... تمجيد... شكر للقائمين... شيء من هذا القبيل... »

- حسناً. رد صوت متشكك على الطرف الآخر من الخط. ابعثوا لي وقتما أردتم التفاصيل التي تجدونها مناسبة لتعميمها على الصحافة وإن شئتم...-

- أوّياً !

هتف بفخر مقلدا الهاتف في وجه من كان يعتبره خادمه الجزائري الوفي ومتعهد لحظات أنسه، دون أن يسمع بقية كلامه.

وقف على طرف المسبح بزاوية مائلة. وضع يده على خصره في حركة تنم عن نفوذ استوحاها من أحد مشاهد أفلام الـوسترن التي كان يشاهدها والده في صغره، وهو الذي يبدو أنه قد ورث عنه حب الأفلام السينمائية أيضاً وبعض الاستعراض، لتنغرس فجأة أصابع يده في دهون خصره النافرة. سحقاً. وغرز نفسه من جديد في المسبح وهو ينفذ عن رأسه في هذه اللحظات المخملية صور الكائنات البنية القاطنة وراء الأطلسي، وأخبار كولساتهم السخامية التي كان يذكرها بها صوت ذلك الـيحيى المتعوس.

\*\*\*

على الجانب الآخر من الخط كان يحيى فرقاني أو يحيى « ليزاير » كما كان يطلق عليه في كواليس السفارة لا يزال ينظر إلى هاتفه الجديد بحذر، محاولا التأكد بأن ذلك « الأبله » قد أنهى فعلا المكالمة. تأمل الشاشة بعمق وأعاد وضع الهاتف على أذنه كمن يحاول التلصص على صوت ما. أسنده على الطاولة بحذر وقد حرص ألا يدسه في جيبه فيجد نفسه يقع في المحذور بينما ابن سيادته لا يزال على الخط.

والواقع أن الابن المدلل لسيادته خنخان المعروف باسم « الأبله » في الدوائر الخاصة كان يتميز بقدرته العجيبة على بدء وإنهاء المكالمات الهاتفية على نحو غير مألوف، لدرجة كانت تجعل اتصالاته تبدو عادة مشقوقة من لفافة لورق مراحيض رخيصة وُضعت بعناية على طاولة مطعم فخم بطريقة لا محل لها من الفهم.

والحقيقة أن يحيى ليزاير لم يكن قادرا لحد الآن على استيعاب الأسلوب الهاتفي لأحد أهم الشخصيات التي كان يحتفظ برقمها في قائمة الاتصالات على هاتفه، وهو ما كان عادة يشعره في أغلب الأحيان بالارتباك.

- لا يهم !

فكر الآن وهو يحاول تقليب المعلومة التي بصقها نزييم في أذنه ووقفقها في عقله قبل محاولة توظيفها.

من الواضح أن الصفقة كانت كبيرة. وتذكر نبرة خنخان جونيور على الهاتف. كانت هناك رنة بسيكوباتية واضحة في صوته قد لا يكون وراءها سوى مبلغ قد أفقده تماما عقله. فكر يحيى وهو يمسد ببطء شاربه. فبحسب آخر الكولسات الخاصة بابن الوزير العتيد، شهد حجم صفقات نزييم المريية درجة أصبحت سرعاتها تهدد بإصابة

والده بجلطة حكومية أو بانقطاع نفس انسدادى من لدن حُماته  
في دوائر السلطة عن قريب.

والواقع أنه من الصعب لأي كان في أعلى ذلك الهرم مواصلة دعم  
لص وصلت به الصفاقة والهتر حد ولوج قطاعات جديدة دون أدنى  
احترام لُسْرَاقها. فكر يحيى بامعان. بل ورافعا معها أيضا نسبة فائدته  
لرقم غير مسبوق بلغ الخمسة بالمائة.

ودس الهاتف أخيرا في جيبه وهو لا يزال يفكر في حال خنخان  
في هذه الأيام. لقد كان من المستغرب فعلا انتقال نزيَم من عمليات  
وزارة الطاقة التي كانت شبكة علاقاته داخلها تضمن له بيع صفقات  
مضمونة لجهاته الصديقة، إلى دخوله على خط وزارة الثقافة وطلب  
وسائط للتواصل مع من أطلق عليهم اسم « البوبلاد » في تلك الوزارة.

- من الواضح أنها كانت صفقة تستحق العناء.

ألقي يحيى مجددا نظرة على الهاتف ومسد شاربه الرفيع المحلوق  
على شكل مثلث ذي زاوية منفرجة تبدأ من قمة أنفه. ومط عضلة  
خده الأيسر بحركة جانبية تشبه الابتسامة.

- وها هو الآن يود الاحتفاء بالصفقة على صفحات الجرائد، وكأنه  
لا يدري أن القيامة كانت قائمة حوله في مكان ما! غمغم يحيى بالكثير  
من الارتياب.

لقد كان يبدو من الواضح أن خنخان مغيب بالكامل عن حقيقة  
الوضع على الأرض. أم أنه فقد عقله فعلا حتى غدا يتصرف من دون  
إدراك تام لتبعات أفعاله؟ وعاد يحيى لفرك شاربه المثلث الصغير  
بحيرة. وتناول سماعة الهاتف الأرضي وفكر أنه عليه تنفيذ الأوامر.

ونقر رقم صاحب الجريدة رقم واحد في أكبر بلد من القارة الأكثر  
تخلفا على وجه البسيطة.

« الحق » جريدة المواطن اليومية.

- 14 -

- « إقرأ يا مواطن » !

هتف علاوة بتهكم وهو يسحب المخاط من أنفه بعد أن ألقى  
على مكتبه عدد اليوم من الصحيفة الأكثر رواجاً بين الجماهير العريضة  
التي تتجاوز نسبة الأمية بينها الـ 19 بالمائة بينما تبقى نسبة الأمية  
الوظيفية غير معلنة.

وراح بدنه يصطك في حركة لاإرادية على وقع قهقهة أطلق عنانها  
بعد أن عبرت ذهنه فكرة قلب القاف خاءً في شعاره الخاص للجريدة  
التي كان يحمل فيها باقتدار لقب المدير العام ومسؤول النشر. لتجعله  
هذه الفكرة يرتج من الضحك، وعاد يقهقه وهو يشرق في استمتاع  
مخاطه، ليكوره في حلقة ويبلعه بمتعة خاصة، ثم يطم شفتاه ليسمح  
لعضلات فمه بالاتساع من أجل فسح المجال للبلغم بالعبور نحو  
معدته بأريحية أكبر.

والواقع أنه وبالرغم من أن جسم الإنسان ينتج ما معدله لتر  
من المخاط يوميا، إلا أن « الحاج » كان يبدو أنه ينتج ضعف كمية  
الإنسان العادي. والحقيقة أن الحاج، وهو اللقب الذي كان يعرف  
به علاوة زغدودي في الساحة الإعلامية بعد أن أدى فريضة الحج،  
لم يكن إنسانا عاديا، بل كان شخصا خارقا بجميع المقاييس، كيف لا  
وهو من تمكن في ظرف وجيز من تحويل الصحيفة التي أسسها قبل

عشر سنوات من جريدة أسبوعية تعنى بأمور الجنس وحكايات الجن والتوبة إلى إخبارية يومية أضحت الرقم واحد في الجزائر بأكملها.

- تفوووووووووو... وبصق الآن البلغم المتبقي من فمه وهو يسارع

إلى الرد على الهاتف ليصيح بحماس : « بونجور مونامي ».

بقي يحيى على الخط صامتا للحظات وقد بدا وكأن الخط قد انقطع، ليستطرد الحاج بنبرة اعتذارية وقد انتبه إلى أنه بدأ المكالمة ببصقة تلقائية على نحو تعوزه اللياقة التي كان يحاول جاهدا تعلمها.

- اسمح لي سي يحيى اسمح لي la grippe... راهي دايرة فيا حالة !

- بلعقل برك... بلعقل عليك.

رد يحيى بامتعاض، وهو يشعر بانزعاج خاص من البصقة التي بدأ بها محدثه المكالمة وقد كان يكفيه خنخان الأبله وعاداته الهاتفية الغربية، ليضاف هذا النكرة إلى قائمة غربيي الأطوار الذين يضطر لمهافتهم، ولكنه تمالك أعصابه وتذكر أنه يتصل بهذا المعتوه من أجل هدف محدّد واستطرد : « قامت مصالح وزارة الثقافة مؤخرا بتوقيع اتفاقية مع مركز أبحاث عالمي كبير سيبدأ بالتنقيب عن الآثار في الجنوب قريبا، نريدك أن تمهد للموضوع بنشر مقالات عن معالم الصحراء وأهمية تنشيط السياحة فيها قبل أن تتبعه في الأيام اللاحقة بخبر الصفقة... أقصد الاتفاق... ».

- أمرك... أمرك ! قال الحاج بطاعة وواصل الآن بنبرة حميمية.

« واش كاش برد في واشنطن ؟ »

وانتظر الإجابة، لكن يحيى كان قد أغلق الخط. أو ربما انقطع هكذا فكر. والواقع أن الحاج لم يكن من الأشخاص الذين تغلق الهواتف في وجوههم كما كان يعتقد، كيف لا وهو من يتهافت ملايين

الجزائريين لقراءة الأخبار التي ينشرها كل يوم. فكان يقرأ له الطالب وربة البيت والموظف، والوزير ومناصرو الكرة والنخبة المثقفة...

- نعم النخبة المثقفة ! غمغم علاوة بفخر وقد أرخى جسده على كرسيه بهناء خاص مطلقاً تنهيدة طويلة. ثم ابتسم برضا وهو يستمتع بفكرة أنه يحسب على النخبة المثقفة بوصفه صاحب الجريدة الأكبر في البلد، على الرغم من أنه لم يقرأ في حياته كتاباً واحداً عدا عن كتيّب في الجنس أعاره له صديقه في الجامعة، ولم يتمكن بعدها لسوء حظه من إيجاد كتب مشابهة له، ليقرر بعدها الاطلاع على « ألف ليلة وليلة » عندما أخبره الصديق الصدوق ذاته أن المؤلف العربي الشهير يحتوي على مشاهد إباحية لا تخطر ببال، وهو الذي وجده في مكتبة الجامعة.

والحقيقة أن علاوة لم يقرأ ذلك المجلد الضخم ولم تعبر هذه الفكرة رأسه البتة، بل لم يدغدغه الفضول حتى لقراءة أي قصة منه لدى استعارته من ذات المكتبة، حيث كان اهتمامه كله منكب على ملاحقة مشاهد البطلات البضات الغضات الناهدات هائلات العواجز في القصص الخمسمائة وثمان وستين للكتاب، وعبيدهم السود الفحول الخناذيد ضخام الجثة. وذلك أن صديقه، وقبل إعادة المجلد للمكتبة ليستعيه هو، حرص على تعليم الصفحات الساخنة بقلم أحمر من طرف كل واحدة منها كخدمة مجانية لمن يقرأ الكتاب بعده، إلا أن علاوة قرر تمزيق الصفحات التي تحتوي على تلك المشاهد الساخنة، ليحتفظ بها لنفسه ويعيد قراءتها في لحظاته الحميمة. لكن الأمر لم يمر مرور الكرام على أمين المكتبة، وهي المسألة التي كادت أن تتسبب له أذاك بفضيحة، لولا أن علاوة اهتدى إلى فكرة الادعاء

أنه مزق تلك الصفحات من باب « إمالة الأذى »، وتجنيب الشباب المسلم قراءة كتب لا تراعي حرمان الله.

والحقيقة أن هذه الفكرة حولت علاوة زغدودي من مجرد طالب فاشل في السنة النهائية بقسم الاعلام، لم يتميز سوى بمخاطه الملتصق دائماً بشاربه غير المرتب وفمه المفتوح أبدا بعته، إلى الطالب البطل رائد حملة « معا لتمزيق كتب الفحش »، التي تمكن من خلالها هو ومريدوه من إتلاف ما يزيد عن ثلاثمائة كتاب في مختلف الجامعات تنوعت بين الأدب والفلسفة.

وبالرغم من تبني علاوة غير المشروط لشعار « لا تقرأ سوى كتاب الله » الذي أطلقه ملتحمون انضموا لحملته الجامعية تلك، إلا أن ذلك لم يمنعه من شراء أول كتاب في حياته وجده يباع على قارعة الطريق بعد أن انبهر كلياً بعنوانه، فلم يجد نفسه إلا وهو يمد يده إلى جيبه ويقتني حزمة الأوراق الشهية تلك، والتي كانت تقدم وصفات جاهزة عن تحضير الأرواح واستدعاء العفاريت، لكن علاوة تخطى مباشرة عن ذلك الكتاب وكله حسرة بعد أن جرب وصفة استدعاء جن تحقيق الحاجات ولم تنجح تجربته، ليدرك أنه خُدع بشراء مؤلف مرجف.

إلا أن فكرة الدجل التي كان ينطوي عليها ذلك الكتاب ممزوجة بخلطة الدين التي اكتشف أيام الجامعة أنه يستطيع توظيفها لحشد الجماهير وراءه، كان يبدو أنها يمكن أن تحقق له ما يعجز عنه أعتى عفاريت الجن. وهكذا أتته فكرة كتابة أول موضوع ينشر له على صفحات الجرائد، والذي أتى بعنوان « ذبحها ونكل بجثتها بعد أن اكتشف خيانتها له مع جن سانتو جان بابا الوادي »، أتبعه بمقالات متنوعة جعلت كتاباته مطلوبة في مختلف الجرائد بسبب الإقبال عليها من طرف القراء من نوع « اغتصبها بوحشية بعد

أن رفضت الانصياع لرغباته في بيت مسكون...» « كيف تتوبين إلى الله بعد ممارسة الجنس مع جن كافر...» « هل تفقد المرأة عذريتها بعد ممارسة الجنس مع عفريت تلبس جسدها منذ صغرها...» « حوار مع راقى باش جراح : المرأة التي تنام بثياب قصيرة تثير غرائز الجن...» « مومس مولان روج تتوب إلى الله. من الإيقاع بالرجال إلى ارتداء النقاب. إقرأ القصة الكاملة لنانسي التي حولت اسمها على بركة الله إلى كلثوم...» « عاهرات يتبن إلى الله بعد ممارسة الجنس مع أكثر من 457 رجل...» « كيف تحصنين نفسك من الحمل من جنبي في حالة تعرضك للاغتصاب الليلي المفاجئ ». وغيرها من العناوين التي صنعت مجد « البوخونة » الذي لم يكن ليكتفت إليه أحد أيام الجامعة، وحولته بعدها بسنوات إلى « الحاج علاوة » الرقم الأصعب في معادلة الإعلام الجزائري.

سحب الحاج مخاطه بحنين وهو يستذكر أولى أعداد جريدة « الحق » التي كانت تعج بمواضيع عن أسرار عالم الجن بقلم راق يدعى أبو مصعب الدنداني لم يكن في الواقع إلا هو، وتحقيقات يوقعها بأسماء وهمية عن حياة عاهرات ومومسات كان يجريها في ساعات متأخرة في غرفته من وحي خياله، مع الحرص على تزيينها بعد نشرها بصور لعارضات أزياء شقراوات تترقق الدموع على وجناتهن البيضاء، بالإضافة إلى وصفات دينية للتوبة عن ممارسة العادة السرية وسماع الموسيقى ومشاهدة القنوات الإباحية، من دون أن ينسى رسائل القراء التي كان يستمتع بكتابتها بنفسه لنفسه، من أجل شكر جريدته الغراء وصاحبها المتألق والتي كان يعنونها بـ« إلى جريدة الحق الرائعة، أريد حلا... كيف أمكن عن التوقف من خيانة زوجي ؟ »... « هذه قصتي مع العفريته نجمة...» « ساعدوني كيف أتخلص من أنياب الرذيلة...» « نعم الشيطان لبسني، أنقذوني من مخالب الدعارة ! »

تذكر أعماله الصحفية الأولى بفخر ومعها القصص الجنسية الهادفة التي كان يعشق تأليفها ولا يزال يحرص على نشرها على صفحات جريدته من صحفيين ناشئين ترعرعوا على يديه، وتنهذ بزهو وهو ينظر الآن إلى إحدى الصور التي كان يعج بها مكتبه والملتقطة من حفلات « مؤسسة الحق الإعلامية » المختلفة والتي كان يتم فيها دعوة وجوه عامة من هنا وهناك في فندق فاخر لتكريمها، وكان آخرها صورة مع بعض الكتاب أخذت من حفل إطلاق موقع « ثقافة الحق »، حيث تموضع روائيون وشعراء ومنتقون حول الحاج علاوة ينتظرون تناول بعض الطعام مرتدين ابتسامات الجوع العصية، وهم يتحينون فرصة التمسح بأحد الوزراء أو المسؤولين رفيعي المستوى.

وإكراما لهؤلاء ولثقافتهم الرفيعة أتى موقع « ثقافة الحق » كموقع إلكتروني مخصص للأخبار الثقافية دعاهم الحاج لحفل إطلاقه وألقى على مسامعهم خطابا رنانا عن أهمية الإبداع في حياة المواطن وضرورة الاهتمام بالفنان والمؤلف الجزائري واقفا أمامهم وقفة معلم لا يشق له غبار. ليخصص موقع « ثقافة الحق » بعد هذه الحفلة أخباره لنقل ثمن مجوهرات فنانات الخليج وخلافات راقصات قنوات النايلسات، بالإضافة إلى بعض الحوارات « الأدبية » التي تبدأ بعرف بنفسك للجمهور وتنتهي بوجه كلمة أخيرة للقراء الكرام.

والحقيقة أن هذا التوجه لم يكن سببه استخفاف صحفيي الحق بمن كان يطلق عليهم في الساحة الثقافية باسم « المبدعين » فحسب، وعدم تفرغهم لكتابة مراجعات أدبية حول إصداراتهم جادة كانت أم سطحية، وإنما لانشغالهم التام بحبك الدسائس بين بعضهم البعض، والتفكير في الاصطفافات وراء معسكرات من شأنها أن تؤمن لهم مكانة أرفع داخل مؤسستهم الصحفية الكبيرة. لتكون بذلك مسألة

النسخ والصلق من مواقع عربية تعنى بأخبار النجوم من أجل تغذية ذلك الموقع الطفيلي أكثر نجاعة من قراءة كتب بئسة لحفنة من الفاشلين أطلق عليهم عرضا اسم مبدعين من باب الشفقة.

وفكر الحاج في هذه اللحظة بآخر المؤامرات التي كانت تحاك بين صحفيي مؤسسته والتي كانت تصله أخبارها أول بأول حيث أنها قسمت المؤسسة إلى معسكرين، وقد بدأت تشغله في الفترة الأخيرة انعكاسات هذه المسألة على زعزعة سلطته المطلقة داخل عرينه. ليتذكر الآن، المهمة التي أوكلت للتو لجريدته من وراء البحار، والتي كان لا بد من القيام بها على أكمل وجه لضمان استمرار الدعم لشخصه على الأقل من أصحاب القرار.

عدل بسرعة جلسته من على كرسية الجلدي الضخم، وسحب بحركة خاطفة مخاطه والتقط محوله الهاتفي :

- اطلبي لي رؤساء التحرير ورؤساء الأقسام حالا. ونفض منخاره بقوة وهو يلقي نظرة على عدد اليوم من « الحق ».

« الجزائر في خطر :

الكحاش السحّارون يغزون شوارع العاصمة »

ابتسم بفخر وهو يقرأ العنوان العريض المسجل على صدر الصفحة الأولى حاشرا اصبع سبابته الثخين في فتحة أنفه المسدودة.

ما الذي يحضرونه أصحاب « الفوق » في هذه الأيام للصحراء يا ترى ؟ فكر دون اهتمام حقيقي وهو يقوم من مكانه متجها نحو قاعة الاجتماعات.

## القسم الثاني



جلس هينريك بهدوء على أريكته مسندا يديه المضمومتين إلى صدره. ثم أطبق جفنيه ببطء. وغاص في نوتات افتتاحية أوبرا داي فالكير<sup>12</sup> التي كان يبدو وكأن جدران مكتبته الفسيحة وكل زاوية فيها ترشح بنغماتها.

وقد كانت غرفة هينريك الأثيرة مجهزة بنظام صوتي عال الدقة، جعل المشهدة بأكملها تبدو وكأنها مستلة من فيلم فانتازيا تعبيرية لروبرت واين<sup>13</sup>. وقد زاد صمت هينريك وثباته كالصنم في تلك اللحظات من الشبه بينه وبين مجموعة التماثيل التي كانت ينتصب كل واحد منها بوقار خلفه داخل خزانة الأنوناكي الزجاجية.

ليفتح عينيه فجأة بهدوء مسرحي مريب على مجسمات لتماثيله الأسطورية الفريدة بعد أن اختتم أول مشهد من الأوبرا، التي كان يحتفظ بها في مكتبته الموسيقية، بصوت السوبرانو تيريز فوغل<sup>14</sup> في دور سيغلند وهي تخبر البطل سيغموند أنها شقيقته التوأم، بعد أن أدركت أنها موجودة في صدى صوته، وأنها انعكاس لصورته.

---

Die Walküre .12

Robert Wiene .13

Therese Vogl .14

وتأمل الآن هينريك مجسم للإلهة عشتار في خزانته، والمعروفة باسم إنانا لدى السومريين إلهة الحرب والجمال، أعظم إلهة في الشرق الأوسط، والتي يكون اسمها السومري قد اشتق من لفظة نيناناك التي تعني « سيدة السماء » كما قد يعني اسمها « محبوبة أنو » وهي أيضا ابنة الإله القمري نانا والذي تفوقت عليه لتصبح هي إلهة مدينة أوروك المطلقة، حتى أنها غطت على شقيقها التوأم الإله شمش.

ومرر هينريك كفه اليمنى على رأسه بخشوع تعبدي وهو يتذكر هذه التفاصيل الإلهية. ثم عاد ليغوص في نوتات فاغنر المستلهمة من التراث الاسكندنافي والتي حولها فاغنر لإحدى أهم نصوص الأوبرا العالمية المكتوبة بالألمانية. إلا أن هينريك ولسبب ما وجد نفسه لدى متابعة أحداث الفصل الثاني من أوبرا « الفالكيري » الربة التي تختار المقتولين في المعارك بحسب الأساطير النوردية، يفكر في مشروع الهوقار وهو يتأمل من على مكتبه صور آلة الحفر التي صممها مهندسو الفيوتشر إينيرجي كوربوريشن لتشق اللجة المظلمة لتلك الصحراء النائية.

وفي هذه اللحظة من الأوبرا كان سيغmond قد امتشق السيف الأسطوري الذي تركه له والده « والس » بعد أن دلته عليه شقيقته، لتتألاً أمام عيني هينريك شمس تمنغاست، وقلبه يخفق للحظة إعلانه لفريق عمله جنوب الجزائر عن بدء حفر عباب تلك الأرض. ووجد نفسه يستحضر على نحو غريزي ترنيمة شمش العظمى :

طلوعك المجيد ينير وجود البشر

ونظر إلى قرص الشمس الذي كان قد اتخذ صورة تعبيرية منه رمزا لشركته قبل أكثر من عشرين سنة.

كل شيء يولي وجهه إلى بريقك الأخاذ !

وانحرفت شفته في شبه ابتسامة فخر مبطنة...

اشعاع عظيم ينير العالم...

وأطبق جفنيه ليغوص مجددا في نوتات فاغز التي أخذت شكل  
موسيقى خلفية للترنيمة السومرية...

عندما تظهر يا شمش، ترقع الشعوب

وبحركة لإرادية ارتفع قفصه الصدري عن مستواه العادي فداراه  
على نحو سريع بضم كفيه لمقدمة صدره بحركته المألوفة.

كل البشر، من جميع الأصقاع، ينحنون لك !

وواصل بصوت يكاد يكون شبه مسموع تقليب كلمات الأنشودة  
السومرية بين شفثيه مندسا كليا بين نوتات فاغز في حضرة ترنيمة  
شمس العظمى...

أنت المشع في الظلمات، تمسك بمقاليد السموات

وأطبق بصره على ختم اسطواني يحتفظ به في خزانته الأثرية يعود  
إلى الفترة الأكادية يظهر الإله شمش الذي يكون العرب قد أخذوا اسم  
الشمس عنه...

مجدك غطى على الجبال الأشد نأياً

وهجك ملأ وجه الأرض !

وقد كان النقش المحفور من أسفله على الختم يظهر شمش يشق  
الجبال من الغرب بسيفه وعلى يساره عشتار، وعلى يمينه الإله الأكبر  
إيا رفقة وزيره أوشمو...

من مكانك العلي فوق الجبال، عينك دوما على الأرض

وراحت صور المشاريع التي كان يزرعها في كل بقاع الأرض  
ترتسم أمام عيني الرئيس التنفيذي للفيوتشر إينيرجي كوربوريشن  
واحدة واحدة.

من السماء، تبسط كفك على جميع البلدان  
بين يديك كل مصنوعات إيا، الملك الحكيم  
تمنح عنايتك لكل سكان الأرض

وترعى دون استثناء كل الكائنات الحية !  
في السماوات، وعلى الأرض، راعيهم الأوحد هو أنت !  
فأنت لا تتوقف عن قطع السماوات وإجابة النداءات للحظة،

كل يوم تلف الأرض اللامتناهية  
تعب من دون انقطاع البحار الواسعة والهائلة  
والتي لا يعرف أغوارها حتى أعتى الآلهة  
لكن وهجك يا شمش يخترق اللجة  
لتقف وحوش البحر مشدوهة أمام بريقك !

وتوقف في هذه اللحظة أمام هذا المقطع وتمتم بنبرة شبه روحانية :

- وأما حثالة الأرض فلا حاجة لي بها !

وابتسم وهو يمني نفسه ببدء قطف ثمار مشروع شركته الأهم  
في الهوقار قريبا. مشروع كان يحيطه بكامل السرية. ففي النهاية  
لم يكن شمش إلها استعراضيا مقارنة بعشتار ولا حتى بإيا. فكر رجل  
الأعمال بشيء من المكر. وإنما إلها براغماتيا بامتياز.

وأغمض الأملاني عينيه وهو يمرر كفه على رأسه الخالية من الشعر بكل تؤدة. تناول هاتفه بثبات. انتظر لحظات. نظر إلى الساعة، ومن دون مقدمات انبرى.

- بمجرد وصول جانلوكا فيرو للجزائر، أريد تنفيذ الأوامر بحذافيرها.  
صمت لحظة. أغلق الهاتف. تبسم بهناء وغرق مجددا في أوبرا فالكير.

- 2 -

توجه جانلوكا إلى البوابة الخارجية لمطار أقنار - حاج باي أخاموك بتمنغاست حيث كانت تنتظره جيب غراندي شيروكي سوداء لحمله للحظيرة الوطنية للهوقار. وللحظة شعر بأن تلك السيارة كانت أكبر حجما من المطار. كح بعصبية، ونظر مجددا من حوله بتشكك منظفا حلقه بشيء من الخيبة. لا شيء هناك من حوله كان يوحي في تلك اللحظات بطعم الأساطير المهيبة.

قلب عينيه في أرجاء المكان بشيء من الخذلان عله يراجع انطباعه الأول هذا. إلا أن الصور كانت حتما من حوله كلها باهتة. مشاهد عادية تحمل نكهة ثمانينية لشيء يشبه منتجا فاقد الصلاحية أعيدت رسكلته على نحو ركيك ليناسب الألفية الثالثة. سحب حقيبة « الأمريكان توريستور »، وهو يحاول كبح توقعات السائح الإيكزوتيكية في نفسه، لكن سرعان ما ابتلع شعوره بالخيبة بعد أن دخل حقله البصري كيان خارق من نوع ما...

- الطوارق !

غمغم بخشوع محاولا استراق النظر لذلك الوجه المثلث، وعاد ليتذكر تلك الصور السماوية للمنطقة. لقد كانت منطقة الهوقار تمارس

سحرا لا يقاوم يشبه الافتتان لدى الأوروبيين، إلا أن سحر الطوارق كان من نوع آخر. لقد كان سحرا يفرضه منطق الألغاز.

من يكون هؤلاء يا ترى ؟

لقد كان الغموض الذي يكتنف أصول هؤلاء القوم الرحل الذين طالما سكنوا هذا المكان الذي بقيت ذاكرته المادية تشهد على رسومات لأقوام قطنوا أيضا المنطقة منذ عصور سحيقة قبل بضع آلاف سنة من حقبتنا، هو ذات الغموض الذي يكتنف تاريخ الصحراء. الأمر الذي كان كفيلا باستثارة الرغبة الطبيعية لدى جميع من حمله الفضول لتتبع تاريخ الهوقار، في حل ألغازها. وتذكر جانلوكا ملاحظات الجيولوجيين وخبراء ما قبل التاريخ وأخصائيي علم المناخ التي تؤكد جميعها على التواجد السحيق للإنسان في هذه البقعة من البسيطة والتي كانت سهلا خصبا وأرضا أمروعة.

لقد كانت هذه الأرض من أفضل أراضي العالم... ولم يكن يمكن مقارنتها بأي مكان آخر.

كان أفلاطون يقصدها لا محالة. وتأمل جانلوكا صاحب الزي الأزرق بشغف، مقتنعا على نحو ما أنه ملح لتوه شيئا أشبه بعلبة سوداء أسطورية. وتذكر محاورتي كريتياس وتيمايوس لأفلاطون اللتان حملهما معه بالنسخة الورقية. ثم عاد ليتابع بعينه ذلك الطارقي الذي كان يبدو مستلا من حدث أسطوري خاص... حدث ما نسيه التاريخ لكن لم تنسه الجغرافيا.

لقد كانت كينونة هذه المخلوقات الزرقاء النصف خيالية، والتي تعيش بيننا بصمت ملائكي لا يشبهه إلا صمت الكتب المغلقة، تثير فعلا الحيرة. لترتسم ابتسامة رضية على وجه جانلوكا وهو يمني نفسه بالوصول بعد لحظات قليلة لتلك البقعة التي كانت منذ وقت غير

بعيد شيئاً يندرج في إطار عالم الخرافات الإغريقية، وقد وضعت الفيوتشر إينيرجي كوربوريشن يديها عليه. إنها الآن فعلا حقيقة. فكر وقد تداعى إلى ذهنه مقطع آخر من تيمايوس على نحو احتفائي :

« كريتياس : أصغ إذن يا سقراط إلى قصةٍ بالرغم من غرابتها، فهي قصة حقيقية لا محالة، وقد أكد على ذلك سولون، الذي كان أحكم الحكماء السبعة، وهو من كان قريبا وصديقا حميما لجدي، دروبيديس، كما ذكر ذلك بنفسه في مقاطع عديدة من قصائد متنوعة. وقد روى القصة لكريتياس جدي الذي حفظها وأعادها لي لاحقا. لقد كان لمدينة أثينا منذ زمن بعيد مآثر خارقة ذهبت طي النسيان مع مرور الوقت وهلاك البشر، وقد كان لها مآثرة محددة غطت على غيرها سأرويها لك الآن كعربون تقدير مني لشخصك، وترنيمة تسبيح خالصة للإلهة في يوم المهرجان الاحتفالي هذا.

سقراط : جيد جدا. ولكن ما هي هذه المآثرة القديمة التي اشتهرت بها أثينا والتي تحدث عنها كريتياس، على ذمة سولون، مؤكدا أنها ليست محظ أسطورة بل واقعة حقة ؟ »

- يا خي... يا خي... بلاد ميكي ! صدح صوت أحد المسافرين الذي كان يبدو أنه يحتج على شيء ما داخل المطار. وسرعان ما انقبضت عضلات وجه جانلوكا في شبه حركة ردعية مديرا رأسه عن ذلك الطارقي الذي بدا لوهلة مفتونا بكامل تفاصيله. شكّت تلك الجملة سمعه، بالرغم من أنه لم يفهم منها سوى آخر كلمة، وأحس في لحظة أن هناك من يراقب حركة الأفكار في دماغه. شعر ببعض الاضطراب من هذه الفكرة، وعاد ليتمالك نفسه. فهو لم يكن على أي حال في موقف طفل صغير يزور « ديزني لاند »، ويشاهد أبطاله الخارقين

المفضلين لأول مرة. من الواضح أن حماسه البالغ لوجوده في هذا المكان ولهذه المهمة بالتحديد أخذ يؤثر بشكل ما على عمل حواسه الخمسة. والواقع أن « بلاد ميكي » لم تكن كما عرف جانلوكا لاحقا سوى عبارة يستخدمها « لي سيتوايان » كاحتجاج ساخر على الطريقة الكرتونية التي تسير بها بلادهم، وهو ما لم يكن يدركه في تلك اللحظة بالرغم من استغرابه عموما من السهولة التي وضع بها هينريك فورتسنبورغ يده على المكان المعروف بقيمته الجيولوجية وتمكنه من تحييد أي باحث جزائري من الانخراط في عمليات التنقيب التي بدأها المركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية منذ أشهر. وتنهذ بعزم مستذكرا الصفحات الأخيرة من ذلك الكتاب الذي حرص على حمله معه داخل حقيبته التي مرت لتوها بجهاز المراقبة.

ومقارنة بما كانت عليه لم يبق من تلك الأرض كما يقال سوى عظام لجسد ضاع.

واستقل السيارة رباعية الدفع المكيفة. نظر من النافذة وهو يغوص في تلك البقعة المقفرة، وشعر أنه بدأ يخوض في أحشاء عالم ما وراء أعمدة هرقل، ليستبد به للحظات إحساس قوي بالوهل.

كان كل شيء في هذا المكان الآن يؤكد على أنه قد وصل إلى ذلك الحيز الأسطوري تماما كما جاء وصفه في محاوراة أفلاطون وبأبرز تفاصيله، ليتأكد أنه أمام حقيقة تاريخية لا خرافة إغريقية.

ولكن هل يمكن أن تبقى خفايا هذا المشروع قصية عن الصحافة هنا أو الموظفين المحليين في القاعدة يا ترى ؟ وتذكر حروف التيفيناغ الغامضة التي بدأت تستثير خلايا دماغه منذ فترة. وفكر لسبب ما أنه ينبغي عليه توطيد علاقته مع السكان المحليين.

« سعيدة بعيدة... والماشينة غالية ويااااااه....

آ... ري ري... يبيبي...»

أخذ يحيى فرقاني موظف السفارة الجزائرية في واشنطن غبة من كأس ويسكي جاك دانيلز المفضل لديه وواصل دندنة أغنية الشيخة الريميتي التي أخذت لقبها الشهير من كباريهات باريس وهو يتلمظ بتلذذ بينما كان يطالع آخر مستجدات الفيسبوك من على حسابه المزيف Hakim Bouzouada. ليتوقف الآن عند منشور لأحدهم استوقفه اسم صاحبه وصورته :

السلطة الجزائرية قريبا إلى الهاوية... الشعب لن يبقى صامتا !

وضع لي زافير كأسه جانبا ونقر مباشرة على حساب صديقه الفيسبوكي الذي يبدو أنه كان مسجلا باسمه الحقيقي، ويضع صورة لا تبدو مستلة من غوغل وهو من كان يتكئ على حائط في حي بائس يظهر من الصورة وكأن آثار البول لا تزال رطبة عليه. لكنه لم يكن متأكدا إن كان ذلك البول لقط أو لكلب أو حتى لبغل، أم أنه كان لمخلوق بشري.

والحقيقة أن يحيى كان يحرص على تسجيل أدق ملاحظة لجميع من كان يشتبه في منشوراتهم، وذلك بالرغم من عدم تمتع الموظفين الحكوميين بسمعة جيدة فيما يخص إتقان أدائهم لعملهم إلا أن يحيى كان يمارس مهنته هذه عن حب لا متناه. هذا عدا أن الفيسبوك سهل كثيرا من مهمة التلصص على الحياة الشخصية للأفراد على جميع الدوائر الأمنية في العالم في وقت أصبح فيه الجميع يستمتعون بشكل أو بآخر بعرض حياتهم بكامل تفاصيلها على رواد مواقع

التواصل الاجتماعي. وابتسم يحيى بامتنان بينما كان يسجل إعجابه على منشور اعترضه من صديق آخر له يحسب على المعارضة التنويرية بحركة تلقائية، وقد تضمّن تحذيرا شديدا للهجة.

من لا يتفاعل معي سأحذفه ابتداء من يوم غد.  
فأنا لا أكتب للصم والبكم والمعتوهين بل للمتتورين  
والمفتحين والقادرين على استيعاب آرائي الجديدة  
وأفكاري غير المسبوقة ومناقشتي بجديّة.  
انتهى نص البيان.

لم يدر يحيى في تلك اللحظة لم تذكّر ماو تسي تونغ وربما بومدين أو كيم جونغ أون... ثم عاد ليتجول بصمت بين صور ومنشورات المدعو أحمد غيباري الذي كان يسمي نفسه بين قوسين « أنوار الحداثة » وتوقف أمام إدراج نال عددا قياسيا من الإعجابات وكذا الشتائم والسباب قال فيه ببساطة :

أيها الأعراب الظلاميون لا مكان لكم بيننا...  
نحن شعب التنوير.

إلا أن أغلب الإعجابات والشتائم أتت على الأرجح بسبب الصورة المرفقة به، والمتمثلة في لقطة من أحد شواطئ العراة بإسبانيا.

فرك يحيى شاربه بطرفي سبابته وإبهامه، وتابع قراءة إدراجات ذلك الناشط الفيسبوكي، وقد بدأ يفهم على نحو ما تركيبته النفسية، ومعها التوجه الجديد الذي أخذ ينمو بين صفوف النشطاء الافتراضيين. ثم ألقى بنظرة سريعة إلى يسار الشاشة لأخذ فكرة عامة عن الصور التي كان يشاركها غيباري والتي كانت مرفقة بتعليقات « حداثيّة ». ثم ابتسم برضى.

لقد كان من الواضح أن صديقه الفيسبوكي هذا يعاني انحرافا جنسيا واضحا يعرف بشهوة التلصص، إلا أن عقله الصغير قرّر ترجمته على أنه ولع بالتنوير. وإن كان ولع هذا الغيباري بالأضواء كان جليا على أي حال، ولا يختلف عليه اثنين.

وضيق موظف المخابرات عينيه وهو يحاول اختصار اضطرابات هذا المصباح الفيسبوكي العقلية، فقد كان باديا للجميع أن غيباريه مأخوذ بنشر صور لا بد أنه كان يبحث عنها طويلا على الانترنت لمؤخرات أشخاص مستلقين على البحر أو عارضات في وضعيات خلع الملابس أو الاستحمام، ليتلذذ هو بوضعها على حسابه فيشعر أنه على نحو ما يتلصص على نشاطات جنسية حميمة لغيره، ولتضليل عقله الباطن العليل المرتبط مباشرة بعضوه الذكري الذي حوله إلى كائن هرموني أعرج بحسب تحليل يحيى، فقد كان ذلك الغيباري يحاول إيهام نفسه وغيره بأنه من أنصار التحرر والتحرير.

وتأمل فرقاني صور صديقه المناضل الهمام الخاصة والتي كان يحرص على التقاط الكثير منها في غرفة نومه بل وبعضها وهو عاري الصدر أو هو يرتدي قميصه القطني الداخلي، ليستنتج من ذلك أن المسكين مصاب أيضا بميول استعرايية لا مجال للشك فيها. غير أن ما أكد له النزعة الاستعرايية لهذا الناشط الفيسبوكي التحرري كما كان يردد في كل إدراج له ما يبدو وكأنه تلذذه بردود الفعل المستهجنة لما يعرضه من صور.

استمروا في شتمتي أيها الدواعش وسأستمر في نضالي لإخراجكم من غياهب الظلمة... عن قريب ترقبوا صورة لمؤخري الخاصة. كان ذلك تعليقه على شتيمة أحدهم بسبب صورة عارية نشرها لشخصين متعاقبين وسط غابة أوروبية أرفقها بتهنئة بمناسبة عيد الحب.

أشعل يحيى الآن سيجارة خفيفة وواصل تقليب بقية صور صديقه الذي يكاد يحترق من شدة الاشعاعات التنويرية التي كان يبثها بمعدل خمسة عشر منشورا تحريريا يوميا بقوة عشرين واطا لكل منشور.

لقد كان يحيى يشعر بامتنان خاص في هذه اللحظات للفيسبوك وهو يذكر الجهد الذي كان يتطلبه منه تحديد البروفيل النفسي للخصوم والمعارضين المحتملين في وقت مضى حتى يتم التعامل معهم على أساس تلك المعطيات، أما الآن فأصبح كل شيء متوفر من كبسة زر على إحدى شبكات التواصل الاجتماعي الشعبية.

والواقع أن يحيى كان أمنيا مخضرمًا، قد تكوّن قبل سنوات في خلية الأبحاث الاجتماعية والنفسية التابعة لجهاز المخابرات العسكرية، والتي كانت نتائج الدراسات فيه تحدد بشكل منتظم استراتيجيات الدولة في التعامل مع جموع المواطنين على مستوى الإدارات وغيرها. وتذكر الآن بالكثير من الحنين التوصية الأهم التي كانت تبث للموظفين الحكوميين في وقتها، وهي تقديم الحد الأدنى من الخدمات... التلكؤ... التباطؤ... التقاعس... قبض أسارير الوجه أمام « لي سيتوايان » وكل ذلك مصداقا لقاعدة ذهبية تمخضت عن أبحاث نفسية واجتماعية معمقة : « إذا ما مددت يدا واحدة للشعب سحب الذراع بأكملها ». وتذكر تلك العبارة الأثيرة وكيف كان يروق له هو إتمامها بـ « وأما إن كان لك أن تمد لهم شيئا من يدك فلتكن الاصبع الوسطى ! »

وتذكر فرقاني بوجد تلك الأيام حيث عمل في جهاز الدولة المظلم ذاك كأداة وصل بينه وبين مؤسسة التلفزيون قبل أن ينتقل للعمل كملحق إعلامي في السفارات المختلفة. وابتسم وهو يشهد على فترة الانتقال من مرحلة « قبض اليد » في قطاع الإعلام ممثلة آنذاك بمؤسسة التلفزة اليتيمة، لمرحلة « مد الأصبع الوسطى » للمواطن

عن طريق مؤسسة « الحق » وأخواتها بإدارة الحاج ومشتقاته،  
ليعيش بذلك تحقق نظرياته الخاصة في عصر التعددية الإعلامية.

وتنهى يحيى برضا بينما كان يقلب الصور المنشورة لصديقه  
المستعري مستذكرا آخر الدراسات التي عملت عليها خلية الأبحاث  
النفسية والاجتماعية والتي وصلته من الجزائر قبل أشهر حيث حصرت  
أغلب الانحرافات الجنسية للمواطنين الجزائريين في التلصصية وكذا  
الفتشية. بينما كانت الاستعرائية منتشرة على نحو خاص بين الكتاب  
والروائيين بحسب الدراسة التي عمل عليها أمنيون من مختلف أقسام  
الدراسات الإنسانية وأتت في ألف وأربعمائة صفحة.

هذا ورجحت الدراسة، وعلى ضوء انتشار استخدام وسائل التواصل  
الاجتماعي، إلى إمكانية إصابة الكثير من الكتاب بمتلازمة توريت أيضا  
أو الكوپرولاليا التي تتجلى أعراضها بتكرار استخدام الكلمات النابية  
والتلفظ بالبذاءات بالإضافة إلى حالات مفاجئة تعتري فيها المرء رغبة  
في الاعتداء على الآخرين دون سبب محدد في حالة المتلازمة الأخيرة  
وذلك بعد متابعة حسابات فيسبوك أصحابها التي أظهر فيها الكثيرون  
عدوانية مذهلة. إلا أن التقرير لم يجزم تماما في هذين الاضطرابين  
وإن كان قد أكد على إصابة الكثيرين بحالات وسواس قهري استنادا  
إلى تقارير مساعدة آتية من الملتقيات والندوات التي يتخاصم هؤلاء  
على حضورها لاعتقاد كل واحد منهم أنه الأحق بالظهور على المنصة  
بفضل معرفته الواسعة دون أن يعرفوا أنهم لا يعرفون عن أنفسهم  
ما يعرفه هو عنهم.

- شردمة مريضة !

غمغم يحيى بتقزز وهو من ذكره بهذا الموضوع خنخان الحقيير  
الذي ساعده في إبرام صفقة مربية مع وزارة الثقافة وتذكر أن آخر

ما وصله عنه صور من ثلاثة أيام وهو مستلق على يخته فاره اقتناه  
منذ أسابيع قليلة بثمن 34 مليون دولار.

- النذل !

وعلى الرغم من أن موظف السفارة الجزائرية بواشنطن كان  
محسوباً على الطبقة فاحشة الغنى من المجتمع والتي لم يكن  
« لي سيتوايان » يتخيلون حتى حجم ثروتها، إلا أن يحيى لم يكن  
مقتنعاً بالمكانة التي وصل إليها وحياة الرغد والرفاهية التي يعيشها،  
خصوصاً وهو يرى كل يوم ارتقاء من كان يطلق عليهم اسم الفاشلين  
البلبيين من المؤسسة المدنية وتفوقهم عليه من أمثال عصابة خنخان  
التي افترست كل البلد ولم تترك له سوى الفتات.

ومسح فمه ومعه شاربه المثلث الصغير، بالكثير من الغيظ وعاد  
لقراءة بقية منشورات حساب أنوار الحداثة وأضواء الاعتلالات  
النفسية كمن يريد الترويح على نفسه من أمر عكر صفو أفكاره فجأة،  
وتضاحك بسخرية وهو يحمد الله على موت اسحاق نيوتن قبل  
أن يتعرف على زميله الجزائري في الأنوار هذا، وإلا كان قد انتحر شنقا :  
يقول نيتشه بحثت عن الله فلم أجده... وتأكيذا على كلام فيلسوف  
العقل والتنوير نيتشه أقول لكم أنني أنا أيضا شخصيا لم أجده.

رافي رايع نسكر شكون يجي معايا.

S'abstenir المتخلفون

ودوت الآن ضحكة مدوية من حلق يحيى، وواصل قراءة  
التعليقات على المنشور وقد انبلجت أسارير وجهه بشكل كلي، حيث  
بدا أن هناك شيء أشبه بحرب الشائم تواصلت على مدى ثلاثة أيام  
منذ نشر هذا الإدراج.

أخذ عبة من كأسه، وابتسم في تلذذ وهو يقرأ التعليقات وقد أحس بشيء من الحنين لسباب لم يعد يسمعه منذ أن بدأ تنقله للعمل بين السفارات حيث كان الجميع يعتمد على نحو عجيب لفظة واحدة للسب، كانت أشبه بالشتيمة الرسمية المتداولة بين الموظفين السامين. إلا أن الفيسبوك عاد ليذكره بقاموس شتائم أشد ثراء وتنوعاً. وأطلق ضحكة مكتومة كانت تناسب شخصيته المعتمة وهو يقرأ إحدى التعليقات الشتائم التي أعادته لأيام الخدمة الوطنية ليتوقف لوهلة أمام تعليق مختلف.

حسبنا الله ونعم الوكيل. أنتم هم سر شقاء أمتنا. والله بأمثالك  
لن تقوم قائمة للدولة.

« الدولة ؟؟ » غمغم بارتباك غريزي وهو يقرأ التعليق. نقر مباشرة على حساب صاحبه. لم يكن ذلك شخص في قائمة أصدقائه لكنه كان قد اختار في قائمة التفضيلات الفيسبوكية أن تكون جميع منشوراته متاحة للعامة. كان من الواضح أن الكل مهووس بفكرة إتاحة درره الفكرية وجواهره العقلية لأن يقرأها الجميع. العدو والصديق ففي النهاية الكل يعتقد أنه شخصية عامة، والكل يتصور أن أفكاره ستساعد على تنوير جماهير الظالمين أو ببساطة ستبقى له صدقة جارية بإذن الله وتساعد أحدهم على التوبة.

اللَّهُ أَكْبَرُ. اللَّهُ أَكْبَرُ. اللَّهُ أَكْبَرُ. أيها النظام المتهالك نعم لن نهادن  
للحظة في رفع راية الإسلام.

ونظر إلى يسار شاشة هذا المستخدم باحثاً عن معلومات أكثر عنه، لترتطم عيناه مباشرة بخانة الصفحات التي سجل الأخ الكريم إعجابها بها وقد كان عددها يتجاوز الثلاثة آلاف. يبدو أنه أمضى وقتاً طويلاً على الفيسبوك. أنصار الدعوة لله... كل يوم دعاء... صلاتي حتى



من زر الإعدادات الفيسبوكية. لم يكن ذلك الشخص يبدو عنصرا خطرا في نهاية المطاف، إلا أن متابعة الخطوات الأولى في المسيرة النفاقية لأحدهم كانت ممتعة.

فكر يحيى وهو يواصل قراءة منشورات الأخ الإسهالية وهو من كان يبدو أنه يملك إقامة دائمة في الفيسبوك. وما كان يحتاجه فقط هو تدريبات بسيطة تتعلق بكيفية حجب نشاطاته التهويمية الجنسية على الموقع، ليتحول إلى داعية، وإن كان من الواضح أنه يملك موهبة خام في التجارة الدينية الحرة تخوله لولوج عالم السياسة.

جمالك يكمن في حيائك. ارتدي الحجاب أخيتي.  
وكوني ذخرا لأمتك.

إبتسم يحيى للمنشور، وإن لم تعجبه صورة الفتاة المحجبة التي أرفقها أبو حذيفة الجزائري المعتصم بدين الله بتعليقه. وتذكر صفحة « جنس مع مطلقات » التي كان قد سجل إعجابه بها وكانت الصورة المختارة لها منقبة تبرز جمال عينيها. من الواضح أن تهويمات المعتصم بدين الله الجنسية كانت فتشية تدور حول المخترات. فكر يحيى. أما هو فكان يفضل زي الممرضات. ورسم على وجهه ابتسامة شبقية. كما أنه يكن معزة خاصة للأقدام الجميلة والكعوب العالية. وتلمظ بلا مبالاة وهو يتذكر دون اهتمام خاص آخر خرجاته الإيروتيكية، حيث أنه عادة ما كان يطلب من خلال كاتالوغات وكالات « الإيسكورت » الذي كان يحتفظ بأرقامها في المدينة لترطيب سهراته الخاصة مع الأصدقاء فتيات ليل مجهزات بزى ممرضة مع أصابع قدم جميلة، لكنه يذكر أن أحد أصدقائه طلب في إحدى الحفلات من الوكالة ثلاث فتيات بزى راهبات. أما هو فلم يكن يستهويه بشكل خاص هذا الزي.

ثم أخذ عبة بطيئة من كأسه ذي القاعدة السميكة المربعة. لكن ماذا لو خرجت أنا أيضا بحملة من نوع :

جمالك يكمن في عافيتك. البسي ثياب الممرضة.  
وكوني دواء لأمتك.

كم فتاة كانت لتستجيب لدعوتي الجنسية النبيلة هذه ذات المنفعة العامة ؟ تتم يحيى وهو يسكب له كأسا أخرى وقد بدأت السكرة تلعب برأسه. ثم قرر العودة لصفحة صديقه الديموقراطي المنتور، الذي لم يترك كاتبها شهيرا، ولا صغيرا، ولا مسؤولا، ولا بغلة، ولا نخلة، ولا حتى قملة، لم يشتمها على صفحته من باب النقد البناء والفاعل، وهدم المركز والدفاع عن الهامش. والأهم أنه كان يحب نيتشه والبيرة في الآن نفسه.

وانخرط يحيى في قراءة التعليقات على أحد منشوراته ناشدا تنشيط ذاكرته السبائية وراغبا في الاستزادة من المعارف الشتائية لذلك المنتور المخبوط على رأسه، ولم يفته قبلها أن يلقي نظرة على بعض تعليقات صفحة المعتصم بدين الله الجزائري. والتي كانت غارقة هي الأخرى بالحروب اللفظية وقد لفته في تلك اللحظة تعليق كوميدي من أحدهم :

أيها المتخلف المدعوش روح اضرب زوج لترات بول بعير  
واخطي قسامنا.

مليح كولو بعضاكم !

ليتلقي الآن إشعارا على هاتفه يعلمه بوصول رسالة جديدة على بريده الإلكتروني. لقد كان ذلك « الطبة السمينه » كما كان يطلق عليه، سيادته اللص المتدرب ابن معاليه السراق المخضرم خنخان، وكان يرسل له اسم معهد الأبحاث الأركيولوجية الذي أمن له اتفاقية التنقيب

على الآثار في تمنغاست مع وزارة الثقافة. لم يصف شيئا يذكر عما قاله له في مكالمته صباح اليوم أو عما يعرفه أساسا عن هذه الصفقة لأنه هو من أوصله بالخيط الذي وافق على منحه التراخيص في وزارة الثقافة منذ أشهر، فأفراد عصابة وزارة الطاقة وصديقاتها، التي كان والد خنخان عنصرا منها. لذلك كان لا بد من وسيط لإتمام الصفقة التي كان ببساطة يحيى عرابها. ويبدو أن خنخان جونيور نسي كل هذا. كان من الواضح أن ذلك البرميل الصغير لم يكن في حالته الطبيعية في هذه الفترة. فكر يحيى ليزايفر وهو يقرأ ذلك الإيميل عديم القيمة. وخطر في هذه اللحظة بباله أن شركة أخرى هي الفيوتشر إينيرجي كوربوريشن، قد مرت بنزيم نفسه منذ فترة لبدء مشروع تنقيب عن المحروقات في الصحراء، لم يخلص لشيء لحد الآن، ليأتي هذا المعهد للتنقيب عن الآثار في ذات المنطقة.

ومسد فرقاني رأسه محاولا جمع الخيطين معا لكن سرعان ما أفلتهما على وقع فورانٍ أخذ يعتدل في دمه بعد أن تذكر أن خنخان أو كنكان، كما كان يلفظ على الطريقة الفرنسية وابنه يسيطران حاليا على الصحراء الجزائرية منذ سنوات، ويوزعان بمعرفتهما ما شاء لهما من مشاريع فيها من تحت الطاولة. وحاسي مسعود وحدها قد أتخمت الحسابات البنكية لهذه العائلة. والآن ما الذي يحدث في تمنغاست؟ فكر يحيى وهو يمسد شاربه المثلث وقد وضع جانبا كأس الويسكي بينما كان يعيد قراءة تلك الرسالة القصيرة التي لم تشف عن شيء سوى أن نزيم كان يعيش على الأرجح في هذه الأيام حالة سكر مزمنة.

أقفل هاتفه وعاد لحاسوبه لينفجر بالضحك على نحو تلقائي أمام آخر إدراج ثوري على المباشر لذلك المستخدم المتأسلم ذي الاسم

الطويل أبي حذيفة الجزائري المعتصم بدين الله أو شيء من هذا القبيل... المعجب باختصار بسارة المينوشة :

لييك... لبيك... لبيك يا قدس. نحن قادمون

« .... آ... ري ري... يبيبي ». وندنن للريمتي مجددا رافعا ذراعيه بنشوة خاصة، وهو يتراقص هاذا كتفيه طربا بالألحان، دون أن يعرف لمَ كانت النشاطات الفيسبوكية الإيمانية لهذا المعتوه تذكره بموسيقى كباريهات باريس الرخيصة.

يا بني عربوز طز... طز... طز

بينما كان هذا هو آخر منشور لصاحب حساب المصاييح الاستعرائية المحروقة وأنوار الحداثة الشتائية. أطفأ في هذه اللحظة حاسوبه وقد اكتفى لذلك اليوم من مختلف أنواع التغوط الفيسبوكي. وفكر في الهوقار الغالية وما تخبئه له من مفاجآت لن يستغني عن صك بستة أصفار لحفظ أسرارها. « اللعبة ستكون كبيرة ». غمغم بثقة. ولكنها ليست أكبر من مهاراته المؤامراتية وطموحاته التسليقية الخفية... ففي النهاية كان هو يحيى ليزافير الذي استحق لقبه ذاك طيلة مسيرته المهنية عن جدارة واستحقاق والتي لم تكن لتتحقق دون مساهمة بعض الحشرات القذرة التي كان يستمتع بتربيتها في اسطبل نتن في مكان ما من تلك القارة.

أه ري ري يبيبيبيبي....

وتذكر في هذه اللحظة تلك الأصبع الوسطى.

- 4 -

خرج سعيد من قاعة الاجتماعات بملامح متصلبة، وهو عازم على تغيير الوضع الذي حوّل سحنته بعد حوالي خمس سنوات

من العمل في مؤسسة الحق الإعلامية إلى كتلة عضلات متشنجة لم يكن حتى لسم البوتوكس أن ينفع في إرخائها، وفك أقفال وجهه الذي انقبضت قسماته على نحو لا فكاك منه.

تابع خلسة بنظرات حاقدة صاحب ربطة العنق الوردية العريضة ذلك، محاولاً تمالك أعصابه وهو يقرأ حركاته الاستفزازية التي كان يعتمد من خلالها تجاهله، كيف لا وذاك المخنث كما كان يطلق عليه نصف صحفيي المؤسسة هو رئيس القسم الوطني الذي حاور نصف شخصيات البلد النافذة بينما لم يكن هو سوى مدير موقع ثقافة الحق، وهو موقع فطري آخر من مواقع مؤسسة الحق الإعلامية التي أسسها الحاج ليس لشيء سوى لبسط نفوذه الكامل على الساحة، وإبراز هيمنته على المشهد الإعلامي بكامل أطيافه، فكان موقع ثقافة الحق... وقبله رياضة الحق... وبعدهما المرأة الحق... طفولة الحق... سيارات الحق... ألعاب وألغاز الحق... فتاوى الحق... وغيرها من المواقع التابعة لمؤسسة الحق والتي كان يرسل للعمل فيها بعض الصحفيين المبتدئين، أو المغضوب عليهم أو ذوي وساطات الأوزان الخفيفة. إلا أن الأخبار التي بدأ تداولها في الكواليس تقول بأن الحاج، وبعيدا عن جريدته اليومية ومواقعه السقيمة، يعتزم افتتاح قناة تلفزيونية في أكبر مشروع إعلامي في شمال إفريقيا يطلق عليها اسم تلفزيون الحق، وقد تسرب من أحاديث القيل والقال في المؤسسة أن التلفزيون سيكرّس أسماء نافذة في الجريدة ولن يدعى للعمل فيها أي صحفي من مواقع الشبكة، وقد يكون لصاحب ربطة العنق الوردية فيها مكانة هامة، بل قد يطل بحسب التكهنات على الجماهير العريضة في برنامج يومي يعتزم فيه خطف قلوب العذارى.

- المخنث ! تتم سعيد شكيكن وهو يركز على أسنانه، ليستقر على مكتبه، وقد تملكه الكثير من السخط.

والواقع أن أي مناسبة كانت تجعل مدير « ثقافة الحق » يجتمع مع « جماعة المتبرجات والمخنثين » وهو الاسم الذي كان يطلق عليهم في الجريدة مثل ما حصل في اجتماع اليوم، تجعل الدم يفور في عروقه، وعلى رأسهم صاحب الشعر اللزج ذاك والذي كان يبدو بشكل واضح أنه قد عزز نفوذه مؤخرا لدرجة أن هناك إشاعات يتم تداولها بقوة مفادها أنه قد يطيح قريبا برئيس تحرير الجريدة الذي كان شكيكن يكن له الولاء هو ومجموعة كبيرة من صحفيي المؤسسة المنحدرين جميعا من نفس المنطقة.

والصراحة أن هذا الخبر جعل سعيد يشعر ببركان من الغضب يستبد به حرمة من النوم الهائئ على مدى أسابيع. فقد كان كل نجاح يحققه « فريد الأنوش » يعني فشلا ذريعا له بالمقابل، كيف لا وهما من تخرجا سويا من ذات الجامعة، في نفس الدفعة، بل كانا أيضا زميلين في نفس الفوج. لكن في الوقت الذي لم يتمكن فيه سعيد شكيكن من فرض اسمه على الساحة الورقية للجريدة الأكثر شعبية في الجزائر واكتفى بدور مجهري لموقع لا يتابعه أحد، كان فريد الأنوش يستعد هو وربطة عنقه التاريخية لتحقيق أرفع مراتب النجاح الصحفي بالتربع على رئاسة تحرير جريدة تطبع أكثر من مليون نسخة في اليوم، هذا عدا أنه يملك سيارة « بي أم دوبلوفي » سوداء فارهة وإشاعات تتحدث عن عقارات باسمه هنا وهناك حصل عليها كهدايا من المسؤولين الذين كان يحاورهم. بينما سعيد لم يكن يملك سوى سيارة « دوسون سيس » رمادية متكتمشة، وشقة في حي باش

جراح كان يعيش فيها بالإيجار. ويبدو أن إخفاقاته لا تزال متواصلة مع صعود نجم عدوه اللدود من أيام الجامعة.

- لن أسمح لهذا العبث بالاستمرار.

غمغم سعيد وهو يمسد بشيء من العنف رأسه الذي كان ينفر منه شعر أسود باهت، كان يحرص على قصه كل أسبوعين. ذلك أن طبيعته الخشنة كانت تجعل منه إذا ما ارتفع لأكثر من نصف سنتمتر على سطح الرأس تحوّل إلى شيء يشبه كبة صوف نافشة.

وكبس صحفي الحق شعره بقسوة، وقد أطلت على دماغه صورة « فريد الأنوش » الخنيث وشعره الطويل اللماع الذي كان يسرحه للوراء بعد لعطه بمثبت للشعر. ليجعله ذلك المظهر أشبه بفأر مبلول، وهو صاحب الوجه الرفيع، والهيكل العظمي الدقيق، والذي لم تكن تسعفه بدلاته الأنيقة من جعل منكبيه يبدوان أكثر عرضا وهو يتمطى داخلها.

وفرد سعيد صدره في هذه اللحظة وقد خامره شعور بالزهو وهو يتذكر أنه يتميز على الأقل بمنكبين عريضين عكس ذلك العين المبلول الذي يتصور بأنه أنطونيو بانديراس عصره وزمانه، وقام الآن من مكانه حتى يتسنى له الاستمتاع بمشيته التي تبتاها مؤخرا، والتي يركز فيها على تحريك منكبيه بالتزامن مع خطواته، وقد استوحاها من إحدى شخصيات الأفلام المصرية التي كان يعشقها ولم يكن ينافسها في حبه سوى الأفلام الهندية.

وتتنفس سعيد شكيكن بعمق شاقا طريقه بين الأقسام حتى يسمح لصدره بالاتساع أكثر فأكثر، لكنه سرعان ما شعر بالانكماش المفاجئ بعد أن مرت من أمامه صحفية كان يتجاوز ارتفاعها على سطح الأرض عشرين سنتميترا على الأقل. ليتذكر فجأة بأنه وعلى الرغم من تميزه عن أشد أعدائه بعرض منكبيه، إلا أنه كان بطوله الذي لا يتجاوز المتر

والستين سنتيمترا يبدو على نحو ما مجهريا أمام صاحب ربطة العنق الوردية الذي كان يتميز بطول فارع.

الرخيس ! فكر سعيد باستياء. إلا أن ذلك لم يأت برأيه إلا ليعزز شبه ذلك المخنث ببهلوان ذي سيقان خشبية خرج لتوه من سيرك بائس. لكنه مع ذلك كان يحسن دوما لفت الأنظار إليه. وضرب بقبضته على المكتب بغيظ، وفكر والشرر يتطاير من عينيه، أصلا لو لم يكن يستغل مؤخرته اللعينة مذ كان طالبا في الجامعة لما تمكن الآن من الوصول إلى ما وصل إليه. ومسح على شعره بقسوة أكبر.

- يا إما... شا كاين ؟ صاحت بشيء من الوجل وهي تتلعثم :  
« غير الخير ؟ ».

قالت وقد انتفضت من على كرسيها وهي تطالع وجه رئيسها المقفل بارتباك، وقد استغربت قدومه إلى مكتبها بهذا الشكل وهو من كان يأمرها عادة بالذهاب إليه وليس العكس.

- « أقصد نعم ؟ » تأتأت رتيبة وهي تحرص على إغلاق النوافذ التي كانت تتابعها من على حاسوبها في تلك اللحظة قبل أن ينتبه لها سعيد. وهو الذي لم يكن يبدو على أي حال أنه مركز تماما معها، لتستغل شروده وتسحب بهدوء السماعات الموصولة بالحاسوب من تحت خمارها.

كانت صحفية الحق تعلم أنها لم يكن يفترض بها أن تشاهد مقاطع أعراس على اليوتيوب، أو متابعة منتديات مستجدات البغريير والمحاجب ووصفات المقروط والبقلاوة، بدل الانكباب على تحضير مقالات للموقع الثقافي التابع لأكبر مؤسسة إعلامية على مستوى الوطن، لكنها تداركت الموقف باحترافية.

- حضري مواضيع عن الصحراء. قال سعيد محاولا تمالك أعصابه وهو يتابع من بعيد بطرف عينه تلك الصحفية السقيمة التي كان

طولها يتجاوز المتر والثمانين سنتيمترا بذلك الكعب الأحمر ذي البوزة الدقيقة، مقتنعا في سره بأنها عاهرة ليس إلا، تنتمي لجماعة ذلك الخنيث مبلول الشعر ذي ربطة العنق الوردية.

خبأت رتيبة خلصة السماعات في درج مكتبها، وبلعت ريقها متصنعة الجدية، إذ لم يكن يفترض برئيسة تحرير موقع ثقافة الحق أن تكون منشغلة بدل عن الكتابة بمشاهدة آخر تقييلات تصديرات العرائس على حاسوبها، حتى وإن كان ذلك حقا مشروعا في نظرها كونها كانت تتحضر لرفافها الوشيك وكان لا بد من أن تكون مطلعة على كل جديد في هذا المجال.

- حسنا سأحضر مواضيع قيمة في هذا الصد.

قالت وهي تفكر في نقل بعض ما قرأته في إحدى منتديات العرائس عن أشكال نقشات الحنة في الصحراء، أو حتى طريقة تحضير الشاي بالنعناع المستعمل في...

- ركزي على تمنغاست ومواقعها السياحية. قال مقاطعا أفكارها وهو

يرحل عن المكتب وأردف: « علينا نشر المواضيع ابتداء من يوم غد ».

- سياحية؟ تمتت رتيبة باستياء وهي تفكر في أن الأمور قد بدأت تتعقد، إذ أنها لم تكن تملك أدنى فكرة عن كيفية بدء شيء كهذا، كونها لم تهتم يوما بأمور السياحة والأسفار المائعة هذه، وهي من كانت تعتبر نفسها مؤهلة لأن تكون صحفية كبيرة وإعلامية لامعة تناقش مواضيع سياسية عميقة واجتماعية جادة من عيار المواضيع التي تطرحها أوبرا وينفري والتي كانت مضطرة لمتابعة برنامجها في انتظار بدء المسلسل التركي « العشق والدموع » بالرغم من عدم إعجابها بشكلها.

وقد فهمت رتيبة مما فهمته من هذا البرنامج أنها تستطيع أن تكون إعلامية بحجم تلك السوداء الأمريكية إذا هي ما مُنحت استوديو ضخما وجمهورا عريضا مصفقا بمناسبة وبدون مناسبة، وكاميرات تحت خدمتها تناقش عبرها مواضيع هامة تستطيع من خلالها أن تثبت للجميع أنها امرأة مثقفة وصحفية محترمة وابنة عائلة محافظة وزوجة شريفة وأم مثالية، تستحق أن تحصل على شهرة واسعة بفضل مقوماتها الأخلاقية بالدرجة الأولى. وإن كان لا يضير وضع القليل من الماكياج على الشاشة فهي ليست أقل جمالا ممن كانت تطلق عليهن اسم عاهرات التلفزيون، ولم لا رموش اصطناعية يتم إلصاقها شعرة شعرة على منبت الشعر في جفنيها والتي كانت مقتنعة أن مذيعة برنامج ديني مصري ذائع الصيت تستعملها. والأهم من كل هذا وذاك أنها كانت ستسعى لأن تكون نموذجا يحتذى به من خلال حياتها، حيث كانت تنوي بعد حصولها على برنامج كهذا أن تخفض رأسها بخجل وترخي جفنيها بخفر كلما تلقت مكالمة يطري فيها أحد على روعتها ورقبها وكانت تلك لتكون مناسبة لإظهار ظلال عينيها المتناغم مع لون خمارها. هذا وبرنامجها كان سيعنى بتناول مواضيع قوية من قبيل محاربة الانحلال الأخلاقي في حرم الجامعة وأهمية «الستر» في حياة المرأة، وقد كان ذلك موضوع آخر مقالاتها التي كانت تفخر بها حيث أنها كتبت من حر كلماتها دون نسخ أو لصق من أي موقع، وقد قضت ثلاثة أسابيع في كتابة المقال الذي لم يتجاوز طوله الـ 572 كلمة وأتى بعنوان «كوني دُبابَة أيتها الأختِ وليس دبابَة». والحقيقة أن رتيبة قد حصلت على عدد معتبر من التعليقات على الموقع من صديقاتها أثنين فيها على روعتها ورقبها وعلمها ومعرفتها تراوحت بين: «روووووعة». «ما شاء الله». «في القمة». «الله يبارك».

والحقيقة أنها كانت تعلم أن مقالها يستحق أي نعم كل ذلك الثناء والمديح كيف لا وهي من أمضت أسبوعا كاملا تفكر في كلمة مناسبة من شأنها أن تصنع زوجا ناجحا مع كلمة ذبابة التي قررت استخدامها في العنوان بالإشارة إلى الفتيات التافهات وأفكارهن البعوضية.

والحقيقة هي أن رتيبة ولدى كتابتها الموضوع كانت تغمز على رئيسة القسم الثقافي في النسخة الورقية من الجريدة بالتحديد والتي لم يكن يتجاوز طولها الـ 150 سنتيمتر بوزن لا يتعدى الأربع وثلاثين كلغ في أحسن الأحوال وقد أصبحت تكنى باسم « الدبّانة » في المؤسسة. وكان يشاع أنها بدأت العمل في الجريدة حتى قبل حصولها على شهادة جامعية وذلك بفضل مقومات أخرى لا علاقة لها بطولها حتما لكن بمؤهلات لها صلة بمدى رحابة صدرها وقدرتها على العطاء. عكسها هي التي كانت صحفية محترمة تحترم زيتها الشرعي ولا ترد حتى على سلام زملائها من الرجال حتى لا تثير في نفوسهم مشاعر « معينة »، خصوصا أنها كانت تحرص على أنقتها باعتبار لون حقيبتها من نفس لون خمارها وهو ما كان من شأنه أن يزرع مشاعر الافتتان بذوقها، وهو أمر لم تكن على أي حال لتؤثّم عليه برأي الشيخ « غضبان العنزي » ذلك أن الشرع الحنيف لا يصنف حقائب اليد ضمن العورات التي يتوجب إخفاؤها.

والواقع أن رتيبة كانت تحرص على الائتثار بأوامر الدين والانتهاز عما نهى عنه، ولم تكن تعتمد سوى على الدعاء من أجل تسهيل أمورها. وهو ما حصل عندما رزقها الله بهذا العمل عكس ما كان يشاع عن تلك الدبّانة التي كانت تعنيها بمقالها الذي فهمه سعيد شكيكن جيدا وهنأها عليه.

وأعادت الآن صحفية الحق السماعات التي كانت قد خبأتها بحركة سريعة يصعب ملاحظتها عند مجيء رئيسها، إلى أذنيها. وهي

من كانت قد تدرّبت عليها وأتقنتها منذ أيام الدراسة الجامعية كونها كانت تستخدمها في أمور « الكويباچ » أثناء الامتحانات حيث كانت تنقل ما كانت قد سجلته صوتياً على هاتفها من محاضرات على ورقة الامتحانات بكل احترافية.

وتذكرت رتيبة تلك الفترة العصبية من حياة أي شابة، والتي كان يمكن لها أن تنحرف بسهولة خلالها، إن كانت من ذوات الإيمان الضعيف. ذلك أن مجرد الولوج إلى ذلك المكان الشيطاني المليء بالكاسيات العاريات قد يجعل أي فتاة لم تلق تربية صالحة تنحرف وراء تقليد ما تراه من مظاهر لا أخلاقية فتضيق حشمتها وتنسى دينها. إلا أن رتيبة بقيت والحمد لله ملتزمة برمز عفتها وطهارتها طيلة سنوات دراستها عكس بقية العاهرات كما كانت تسميهن من اللواتي كن يملأن مقاعد الجامعة ويحاولن إثارة غرائز الجماهير الطلابية بثياب ضيقة في فصل الشتاء تظهر أردفاهن، وقمصان عارية الذراعين في فصل الصيف قد تظهر أباطهن.

وحولت رتيبة بشراصة معدلة خمارها وهي تطرد أشكال تلك الخنزيرات عن رأسها. ثم نقرت موقع الديوان الوطني للسياسة علّه يفيدها في نسخ ولصق ما تيسر نسخه عن السياحة الصحراوية من أجل نشر مقال «ها» القادم، والذي كان موضوعاً ممللاً بنظرها لا يرقى لأهمية آخر موضوع كانت قد نشرته على الموقع يتناول دور الحنة في ترطيب شعر المرأة من وحي السنة النبوية.

- غار الجنون.

وحملت لثانيتين في الشاشة وهي تقرأ التسمية المكتوبة باللغة الفرنسية « Ghar El Djenoun » في ذلك المقال المعنون بـ Le Hoggar et Tamanrasset والمكون من ثلاث صفحات، لتأتي

لفظة غار الجنون في السطر الأخير من الصفحة الأولى. وقد كانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي استوعبتها رتيبة أو ربما لفتت نظرها على الموقع الذي كان مطروحا باللغة الفرنسية، والذي كان يتزين في أعلاه بثلاث أيقونات لأعلام صغيرة من المفترض أنها تسمح بتغيير اللغة. وضغطت صحفية الحق مباشرة على العلم الجزائري وهي تشعر بشيء من الإثارة.

الصفحة 1 من 3

There are no translations available

لم تتغير اللغة.

نقرت على العلم البريطاني من باب الفضول.

Page 1 of 3

There are no translations available

وبقي النص منزلا باللغة الفرنسية.

تأففت رتيبة بامتعاض وهي تحوقل وتستغفر الله من حال هذه المؤسسات الوطنية الكئيبة ومواقعها السقيمة التي كانت تعرقل مهامها الصحفية الشريفة المتمثلة في نسخ مقالات من الأنترنت، بعد تحويل بعض الجمل الاسمية منها إلى فعلية، أو قلب مكان الخبر والمبتدأ فيها، وحذف بعض الفقرات، أو تغيير مكان بعضها، ولا ضير من إضافة أربع جمل في المقدمة والخاتمة على أقصى تقدير حتى تتمكن من نشر المقال باسمها. بالإضافة إلى الاضطلاع بمهمة تغيير العنوان بشكل جذري، وهي ليست بالمهمة الهينة. فالأمر يحتاج إلى قدرات تحريرية خارقة تضاهي قدرات جويل مرلينديان... كافتريان... أو رامنيديان لم تعد تذكر اسمها، والتي كانت تحول مشتركات برنامجها

المعروض على قناة مسلسل « العشق والدموع » ذاتها من سمرات  
بعيون بنية وبشرة مبقعة إلى شقراوات بوصلات شعر طويلة وعدسات  
ملونة، ولكن أن يصل الأمر بها هي إلى حد ترجمة المقالات فلا وألف لا.  
تبرمت رتيبة وأغلقت تلك الصفحة بحركة عنيفة.

والواقع أن استياء صحفية الحق كان يعود إلى أنها لم تكن تتقن  
تماما الفرنسية، على الرغم من أنها درستها على مدى ثمان سنوات كاملة  
في الأطوار التعليمية الثلاثة. وذلك أنها كانت تكن كراهية شديدة  
لهذه اللغة التي كانت تمثل اللسان الرسمي للميوعة في نظرها. وهي  
اللغة التي كانت ترطن بها متبرجات الجامعة والمؤسسة التي تعمل  
حاليا بها، لا سيما تلك الذبابة التي قصدتها بالتحديد في آخر مقالاتها.  
والآن عادت رتيبة للتفكير في تلك الكلمة التي لفتت انتباهها  
وكانت تعلم بحدسها « الحقي » أنها هي ما يفترض أن تركز عليه  
في مقالها القادم.

غار الجنون... ما سر هذه التسمية يا ترى ؟ غمغمت بفضول  
وهي تفكر في أن هذا المقال عكس ما تخيلته، قد يكون بوابتها للفت  
نظر الحاج وفرض اسمها لاحقا على النسخة الورقية من الجريدة،  
وإن شاء الله القناة التي ينوي تأسيسها لتحقيق حلم نجوميتها.  
« الجن وحضارة الهوقار والتاسيلي » فكرت بزهو فيما قد يكون  
عنوان مقالها. عدلت جلستها على كرسيها الحديدي الصدي وشدت  
خمارها بحركة حازمة. كان عليها أن تبدأ الآن بكتابة التحقيق الذي  
قد يصنع لا محالة مجدها في تاريخ الصحافة.

- 5 -

لم يكن متأكدا أنه كان ليتمكن من قراءة وفهم المقال المنشور  
على الموقع الإخباري لصحيفة الديلي تيليغراف البريطانية بتاريخ

8 ديسمبر 2012 لو أنه تابع دراسته المتوسطة والثانوية، أو بالأحرى لو أن معلمته وبقية الأساتذة اكتشفوا مشكلة سمعه وحاولوا علاجها لإنقاذ مستقبله الدراسي لينتهي به المطاف في إحدى جامعات الشمال التقيسة، ويصبح مصيره على الأرجح قارئاً وفيها لجريدة الحق الجماهيرية يضحك على نكات « قالك واحد الأنوش... » ويتفاعل عاطفياً مع إعلان من نوع « معلمة بيضاء البشرة تبحث عن زوج يخاف الله ويقدر الحياة الزوجية ولا بأس إن كان أرملاً أو مطلقاً أو إرهابياً تائباً المهم أن يكون أبيض البشرة وأن لا يبعد عن دوارها بدائرة قطرها 75 كلم»، وهو الأمر الذي كان يجعل مهدي يحمد الله صباحاً ومساءً على نعمة الصمم عن سماع دروس المعلمة في المرحلة الابتدائية، وجحافة الأساتذات والأساتذة في المرحلة المتوسطة. هذا بالرغم من أنه لم يكن في هذه اللحظات بالتحديد في وارد تذكر أي شيء عن مدرسته القديمة حيث كان غارقاً في قراءة الخبر الغريب المنشور على الصحيفة البريطانية العريقة التي يفترض أنها صاحبة مصداقية عالية، وهو المقال الذي حمله إليه ذلك المقطع غير المتوقع من على موقع اليوتيوب والذي جمع وكالة أخبار جادة كالرويتز ورجل دولة روسي بحجم ميديفيدوف بفيلم من صنف الخيال العلمي... « المان إن بلاك » :

« لم يمارس السيد ميديفيدوف رقابة على كلامه في حوار له مع محطات تلفزة روسية، عندما كان يجيب عن بعض الأسئلة الجانبية دون أن ينتبه إلى أن الكاميرات كانت لا تزال تسجل كلامه... (... ) فعدا عن انتقاده لوصول الرئيس بوتين متأخراً دوماً عن الاجتماعات ووصفه للشرطة بالحمقى... سأله أحد الصحفيين إن كان الرئيس الروسي يطلع فعلاً على ملفات سرية تتعلق بتحسين روسيا لترسانتها النووية

من خلال التكنولوجيا التي تصل الأرض عن طريق المخلوقات الفضائية، ليجيب الوزير الأول والرئيس الروسي السابق أنه « بالإضافة إلى الحقيبة التي تحتوي على الشفرت النووية، يتم إمداد رئيس الدولة بملف فائق السرية يتناول بكامله معلومات عن... »

- مخلوقات فضائية؟! غمغم مهدي وهو لا يكاد يصدق أنه يقرأ مقالا على التيليجراف منقول عن رويترز على لسان ميدفيديف!! وعاد لأعلى الصفحة ليتأكد أنه موصول فعلا بالموقع الرسمي للتيليجراف وليس بمدونة مهووس بحرب النجوم. وتابع :

« وإضافة إلى ذلك، يتم إمداد الرئيس بتقرير سري جدا عن عمل القوات المعنية بمراقبة نشاط الفضائيين على أراضينا... أجاب الوزير الأول الروسي مداعبا. »

مداعبا! وتنفس مهدي الصعداء.

« ويمكنكم الحصول على معلومات مفصلة أكثر في هذا الصدد من الفيلم الشهير "مان إن بلاك"... واصل ميدفيديف. أما أنا فلن أقول بأن الكثيرين منهم يعيشون بيننا اليوم حتى لا أنشر الفرع بين الناس.»

ابتسم مهدي وهو ينهي الخبر، وقد شرع ذراعيه على نفس عميق. كان يشعر بالسعادة على نحو ما لأن ميدفيديف شاهد أيضا فيلما قد شاهده هو. وأن هناك ما يجمع بينه وبين هذا الأجنبي ذي الشعر الكستنائي والبشرة الشفافة. وأسند مهدي رأسه الآن إلى مقعده وهو يفكر أنه لا يقل فعلا أهمية عن البشر الذين يعيشون في الجزء الشمالي من الكرة الأرضية. لقد كان سعيدا بأنه تحول أخيرا إلى إنسان، بالرغم من أنه لم يكن في طفولته سوى كتلة سوداء مصنوعة من العدم. والدليل أن كنزة لم تكن تنظر إليه. والدليل أن المعلمة لم تكن توجه شرحها له. والدليل أنه لم يذهب يوما في مخيم صيفي إلى الشمال

مثل ما فعل جاره رضوان ابن البقال الذي روى له حكايات مذهلة عن البحر من بينها أنك إن ذهبت للسباحة في النهار فإن بدنك سيستمر في السباحة حتى أثناء النوم، وستتبعك حركة الموج إلى الفراش. وأنتك إن وضعت صدفة على أذنك فإنك ستسمع صوت هدير البحر من خلالها وقد يكون ذلك صوت الجن الذي يسكن داخلها.

وواصل سرد أحاديثه التي بدت وكأنها آتية من عالم آخر مؤكداً أن في العاصمة فتيات يذهبن مع أهاليهن إلى البحر مرتديات بناطيل قصيرة للسباحة بل وحتى قمصان من دون أكمام. بل أنه حلف له بأغلظ الأيمان أنه شاهد امرأة عجوزا على الشاطئ بشعر قصير أشقر كانت تظهر كرشها أمام الملاء، وقد كانت بطنها تلك تتكون من عدة طبقات تتدلى كل طبقة فيها على الأخرى.

والحقيقة أن معسكر رضوان الصيفي في الشمال قد وسّع الكثير من مداركه إلى درجة أنه كان قادرا لدى عودته منه، على ترديد أغنية تربية تعلمها في رحلته المباركة تلك ويقول مطلعها « أنشي واي واي وا... أنشي واي واي وا ». كل هذا بينما كان مهدي يمضي عطلة الصيفية في قتل الناموس على جدران البيت أو مراقبة والده وهو يكش الذباب عن وجهه. لتمر طفولته على هذا النحو دون أن يتعرف على ذلك المسطح المائي الكبير المدعو بحرا.

والواقع أن أكبر مسطح ماء عرفه مهدي في حياته كان بركة من المياه الآسنة يطل عليها بيت العائلة. لينشأ بذلك ويتعرع على رائحة النشادر، حتى غدت رائحة المجاري جزءا لا يتجزأ من ذكريات طفولته. ويصبح أروع ما في هذا المكان هو أن مستقبلات الروائح الألف في أنفه لم تكن قادرة على التقاط أي رائحة فيه منبعثة من طفولته. لينفصل مهدي بذلك كلياً عن مشاعر النقص التي كانت

ترسم مخطط يومياته إزاء زملائه في المدرسة وجيرانه. ويحس الآن أنه يشترك مع هؤلاء البيض الرائعين في مشاهدة نفس أفلامهم، بل ويتقاسم معهم نفس مكان العمل.

« المان إن بلاك » ! وغمغم مهدي مبتسما وهو يشعر بالإعجاب المخلوط بشيء من التعجب من حس دعابة الوزير الروسي الأول، لكنه في النهاية قد راق له لأنه ببساطة قد فهم نكته. وفكر بأنه لو لم يعلم نفسه لغة هؤلاء لما كان ليفهم سوى نكات جاره رضوان السقيمة أو لخضر مول العمارة القميئة. أما هو فقد تحرر من هؤلاء بتعلم لغة أولئك. وهاهو يشاهد الآن كوميديا عالية التقنية ويفهم دعابات زعماء العالم الذكية على نحو من شأنه تذويب الخط الفاصل بين الواقع والخيال في أكثر السياقات جديدة. وكبس مهدي على فيديو جديد وقد راقه التنقل بين مقطع يوتيوبي وآخر بتلك السرعة.

ليحط الآن على فيديو قصير يبدو أنه حصل على نسبة كبيرة من المشاهدة أتي بعنوان غريب : « شاهدوا ذوي البدلات السوداء الحقيقيين لأول مرة ». لينتبه مهدي بذلك أن ميدفيديف لم يكن في تصريحه الفكاهي ذاك، والذي نقلته التيليجراف، يشير فقط إلى الفيلم الذي حقق نجاحا جماهيريا ساحقا منذ إطلاق أول أجزاءه عام 1997، بل إلى أحد أشهر أساطير العصر الحديث انتشارا بين العامة في الجزء الشمالي من الكرة الأرضية، والتي تؤكد وجود قوات خاصة من الرجال المدربين على حجب زيارات المخلوقات الفضائية للأرض عن العامة، والحرص على عدم كشف صلاتها بصناع القرار في هذا العالم من أجل الحفاظ على سرية التكنولوجيا المتبادلة بين الطرفين لا سيما الحربية منها، بالإضافة إلى عدم نشر الذعر بين الجماهير في العالم والتي

قد لا تكون مستعدة لتلقي أخبار من هذه النوعية، تماما كما أشار لذلك ميدفيدف متندرا في الحوار الجانبي المسرب الذي نقلته التيلغراف.

ولعل أشهر القضايا التي ارتبطت بهذه القوات السرية المعروفة باسم البدلات السوداء في الثقافة الأمريكية الشعبية كانت حادثة اغتيال الرئيس الأمريكي جون كينيدي عام 1963 والتي تبقى لغزا لا يزال يغذي العديد من نظريات المؤامرة إلى يومنا هذا. وقد كانت آخر النظريات بشأنه قد تضمنه وثائقي للنيويورك تايمز بُث عام 2011 ووقع عليه مهدي في هذه اللحظة على اليوتيوب. ويتعلق باكتشاف رجل غريب المظهر كان يرتدي بدلة ويحمل مظلة سوداء مفتوحة في اليوم المشمس الذي شهد اغتيال كينيدي، وقد كان يظهر في جميع الصور الملتقطة ليوم حادثة الاغتيال قريبا من مكان إطلاق النار على الرئيس المغدور. فهل كان ذلك الشخص ذا بدلة سوداء حقيقي قام بتصفية الرئيس الأكثر إثارة للجدل في التاريخ الأمريكي لأنه كان ينوي كشف ملفات الفضائين المخبأة للرأي العام لا سيما الحادثة الشهيرة المعروفة بحادثة روزويل؟ هذا ما يعتقدته الكثير من الأمريكيين. ووسع مهدي عينيه وهو لا يكاد يصدق ما كان يشاهده من خلال هذا الوثائقي. وذلك بالرغم من أن ذوي البدلات السوداء بحسب نيك بوب<sup>15</sup> المتعاون مع وزارة الدفاع البريطانية بين 1985 و2006 لا يتحركون عادة إلا كزوج أو في حالات نادرة في مجموعة من ثلاثة أشخاص، وغالبا ما لا يتم التمييز بينهم وبين عملاء الأف بي أي حيث كانوا يضطلعون بالتحقيق مع جميع من ادعى مشاهدته لأجسام طائرة غريبة.

إلا أن ما يعتبر أول وأشهر ظهور لهم موثق وأكثره إثارة للجدل كان مرور زوج من ذوي البدلات السوداء بفندق نياغرا فولز هوتيل بكندا

---

Nick Pope .15

والذي سجلته كاميرات المراقبة عام 2008 في مدخل الفندق، وتناقلته لاحقا مختلف المواقع الالكترونية على الشبكة.

وفرك مهدي جبهته وهو غير متأكد تماما مما كان يشاهده على ذلك الموقع الأحمر حيث كان منظر الطفل الذي كان يستدير حوله وهو خارج من باب الفندق شبه مذهول بما رآه للتو، هي أكثر اللحظات تعبيرا في ذلك المقطع الذي كان يقترح نفسه على جميع من يشاهد مادة مرتبطة بذوي البدلات السوداء على اليوتيوب، والذي شاهده مهدي بدهشة أكبر من دهشة ذلك الطفل الأشقر الذي مر من أمامه للتو رجلان شاحبان يبدوان متطابقين على نحو يدعو للفرع. وقد كانا يعتمران قبعتين ويرتديان بذلتين سوداوين متماثلتين حيث بدا كل واحد منهما وكأنه نسخة عن الآخر.

ولم يكن ذلك الطفل هو الوحيد الذي لفت انتباهه الهيئة الروبوتية لهذين الشخصين، بل موظفا الاستقبال أيضا اللذان طلب منهما هذان الزائران غير الاعتياديان مقابلة مدير الفندق، وقد يكون السبب كما رجح العديد من المراقبين هو تقارير عن مشاهدات لأجسام طائرة بالقرب من النزل تناقلتها وسائل الإعلام المحلية قبل أسابيع، وروتها بالتفصيل الجريدة المحلية نياغرا ديس ويك في 7 نوفمبر 2008. ليأتي بعدها هذين الرجلين للفندق طارحين أسئلة محددة عن تفاصيل الشهادات التي تم الإدلاء بها للصحافة بخصوص تلك الأجسام الطائرة وهوية الشهود. ويختفيا بعدها دون رجعة.

ليقرر مدير الفندق الذي كان غائبا ذلك اليوم، طرح الفيديو الذي سجل دخولهما إلى الفندق والذي ثبت أنه أصلي على الأنترنت، بالإضافة إلى شهادات موظفي الفندق بشأن هذين الشخصين على الشبكة وأوصافهما الغريبة : وجوه مرداء خالية تماما من الشعر فلا رموش ولا حواجب، وعيون زرقاء واسعة لا يلاحظ لها رفة. فهل

وسح فيلم هوليوودي خيال الرجل الغربي لهذه الدرجة وهو ما دفع ميدفيديف إلى الإشارة إلى ذلك في إجابته الساخرة ؟ فكر مهدي وهو لا يذكر أنه قد مر عليه مشاهدة هذه الكائنات الأنيقة وجها لوجه في صحرائه النائية كما كان يؤكد ذلك بعض المعلقين على الفيديو :

« هؤلاء هم ”البيض الطوال“ جنس من الكائنات الفضائية تبدو متطابقة الشكل بالنسبة لنا. والواقع أنه ما من أحد لم يحصل وأن التقى بهم في طفولته. وهناك من تستمر مشاهدته لهم حتى بعد كبره. »

جفل مهدي لقراءة هذا التعليق وقد شعر باستغراب ممزوج ببعض الاستياء :

« البيض الطوال ! » تبا ما الذي يقوله هذا الفتى الذي يدعو نفسه *CommanderAppo 501* على اليوتيوب ؟؟

والواقع أن البيض الطوال الوحيدين الذين كان مهدي يعرفهم في طفولته هم معلمو الطور التعليمي الأول الذين كانوا هم الآخرين يبدوون متطابقين الأشكال وهم يتلحفون مآزرهم البيضاء المزروعة، ويرتدون وجوههم الصنمية الطويلة. والصراحة أنه لم يكن يذكر تفاصيل ملامحهم على العموم، وهو من لم يكن يتجرأ على تركيز نظره في قسماتهم، إلا أنه كان يتخيلهم جميعا بوجوه متماثلة تشبه الوجوه البازلتية لتمثال المواي المنتصبة في جزيرة القيامة. والحقيقة أن القيامة كانت فعلا يمكن أن تقوم على أحد التلاميذ في كل يوم جديد كان ينفخ في سوره ما كان يطلق عليه جرس المدرسة، ليتقدم أولئك البيض الطوال إلى الأقسام بخطوات تهديدية معلنة، وتنطلق بعدها جلسات الحساب والعقاب بعد الدخول إلى تلك القاعات التعليمية الموحشة.

كانت تلك ذكريات جهنمية لم يكن مهدي يحب استدعاءها، إلا أن ذلك التعليق البائس بخصوص البيض الطوال أعادها إلى ذهنه على نحو ما. ليقفل بعدها مباشرة تلك النافذة وقد اكتفى بما قرأه وشاهده من هرطقات يوتيوبية لحد الساعة كان أسوأها على الإطلاق الحديث عن هؤلاء البيض الطوال ذوي العيون الزرقاء الكبيرة. وهو من كان يفضل حتما أن يحتفظ بذهنه عن مشاهداته في هذه الليلة، بصور المان إن بلاك ممثلة في شاب أسود طريف، وجذاب وذكي مثله تماما ويدعى ويل سميث. وابتسم للفكرة. أما البقية فكانت محض هلوسات تشبه هلوسات حب سبورته الطفولية.

ووقف مهدي مجددا أمام المرأة وربع ذراعيه بحركة جانبية ساحرة لتعثر صورته الذهنية المتلاحقة بفكرة بدت له وجيهة. إن كانت تقارير الأترنت بشأن ذوي البدلات السوداء مستوحاة من فيلم خيال هوليوودي فماذا عن ذلك الكتاب الأفلاطوني الذي شاهده في غرفة جانلوكا؟ ووجه الآن نظره إلى النافذة التي بدأت خيوط الشمس الأولى تتسرب من فتحاتها وقد كان ذلك يعني بدأ نهار عمل جديد.

هل يسبق عادة الواقع الخيال أم الخيال الواقع؟ فكر مهدي وقد توقف للحظات أمام نافذة غرفته وهو ينظر إلى تلك الآليات الصناعية الضخمة التي جلبتها معها هذه الشركة التي أتت هنا من أجل التنقيب عن الآثار. تمتم وقد لاحت في ذهنه صورة غلاف كتاب «تيمايوس وكريتياس» لأفلاطون الذي نفض صباح اليوم الغبار عنه في غرفة جانلوكا فيرو الكبيرة، والتي لم تكن تبعد عنه سوى بضع وحدات سكنية. وتذكر تفاجؤه بعنوان الكتاب الذي لم يكن يعرف شخوصه إلا كفارسين أسطوريين من كرتون الأنيمي الياباني

« يوغى أو »، وقد كان معهم في المسلسل أيضا فارس أسطوري ثالث اسمه هيرموس.

ولكن ما دخل أفلاطون بكل هؤلاء ؟ وفكر أنه لا بد من أن يتحدث مع الخبير الفلكي جانلوكا في علاقة كتاب أفلاطون بـ...

- فلك وآثار ؟؟ وشعر مهدي مجددا بالاضطراب وهو يتذكر كيف عرّف على نفسه ذلك الخبير الإيطالي البشوش، الذي بادره بإلقاء التحية والذي كان خبيرا سابقا في معهد الفلك الأوروبي، ويقيم في جناح الشخصيات المهمة في هذه القاعدة الضخمة التي بناها المعهد الدولي للأبحاث الأركيولوجية من أجل... فلك... آثار... ؟؟؟ فكر بارتباك وعاد لينظر لورقة سُجلت عليها عبارات غريبة بحروف التيفيناغ، سلمها إياه فيرو وقد طلب منه « ترجمتها ».

ما الذي يحصل تماما هنا ؟

## - 6 -

نظر بتشكك إلى الكتاب الذي وصله بترجمته الفرنسية صبيحة ذلك اليوم، وتناوله بيد شبه مرتعشة وكأنه مقبل على تفكيك لغم قابل للانفجار في أرض متنازع على سيادتها.

التقط أنفاسه ببطء وسرعان ما داهمه الوجع الذي غالبا ما كان يقصف على حين غرة العضلة شبه المنحرفة من كتفه، ليمتد في جزء من الثانية عبر كامل الذراع، حتى كاد يشعر بالكهرباء الساكنة وهي تلفظ شحنتها في يده من عضلات الرانفة.

أفلت الكتاب على الفور من بين أصابعه ومسد رقبتة ببطء. أخذ نفسا عميقا وعاد لتناول المؤلف الإغريقي القديم وفتحته مباشرة على صفحته الأولى المعلّمة، وهو الذي أتى مرفقا بملخص عن أهم

ما ورد فيه بالإضافة إلى جبال من الحواشي والهوامش. ليرتطم مباشرة بخطاب سقراط الذي كان إحدى شخصيات تلك المحاوره الشهيرة، والتي سجلها أفلاطون تحت عنوان « تيمايوس » :

سقراط : (... ) لقد دار أمس الموضوع الأساسي لخطابنا حول الدولة ومكوناتها، ونوعية المواطنين الذين قد تتشكل منهم حتى تصبح في أكمل صورة لها...

تيمايوس : نعم يا سقراط، وما ذهبت إليه توافق مع ما أفكر به على نحو كبير.

سقراط : ألم نبدأ بتقسيم الفلاحين والحرفيين عن طبقة حماة الدولة ؟ تيمايوس : نعم.

وأشعل الآن سيجاره، متأملاً مجدداً عنوان ذلك الكتاب بتوجس. أخذ نفساً عميقاً من « الري ديل موندو » ونفث كل ما في صدره من ريبة، ثم ألقى نظرة بطيئة لتقارير ذلك اليوم المكومة على مكتبه. لكنه قرر الغوص بدلاً من ذلك في تلك المحاوره المنتشله من قاع التاريخ :

سقراط : وعندما قمنا بتوزيع الوظائف المحددة والفنون المتخصصة على كل واحد منهم بما يتناسب مع طبيعته، تحدثنا عن أولئك الذين يفترض بهم أن يكونوا مقاتلين، وقلنا أنهم حماة المدينة ضد الهجمات الآتية من الداخل والخارج، ولا يفترض بهم أن يقوموا بأي وظيفة أخرى غير هذه، وأن يكونوا رحماء مع الرعية الذين تجمعهم بهم على نحو طبيعي أو اصر الصداقة، وأن يكونوا شرسين مع الأعداء لدى...

ولسبب ما شعر بانقباض في صدره، وأخذ عبة عصبية من سيجاره، مقاطعا التيار الجارف لتلك الكلمات التي تزاخمت في رأسه مع معلومات غريبة عادت فجأة لذهنه. واختلطت مع ذكريات حافلة من حياته العسكرية التي لا تشبه في شيء حياة أي مدني من تلك القارة.

والحقيقة أنه لم يكن هناك شيء يربط بين حياة المدنيين والعسكريين في ذلك البلد، والفرق بينهما كان يكاد يكون كالفرق بين النور والعتمة. بل يشبه الفرق بين القشرة الأرضية ونواتها الصلبة التي يعتقد البعض أنها أرض عامرة يسكنها أقوام قد يكونون سلف قبيلة الماندان أو الإيروكوا من السكان الأصليين لأمريكا، أو أنها قد تكون خاوية كما آمن بذلك نيوتن، بل والمدخل إليها قد يكون فتحة من القطب الشمالي حاول هتلر نفسه تمويل مشاريع لولوجها. وفكر كتفه متذكرا هذه المعلومة بالكثير من الدهشة. إلا أن الاعتقاد السائد عن نواة الأرض الصلبة هي أنها مجرد كتلة سوداء لا يعرف أحد تركيبها. بينما يرجح العلم الحديث أنها كتلة حارقة تتجاوز حرارتها حرارة الشمس نفسها. وابتسم الآن لفكرة الشمس الملتبسة بالسواد، وأخذ نفسا جديدا من سيجاره، وعاد لقراءة رأي سقراط في العساكر بجرعة اهتمام زائدة هذه المرة.

سقراط : وما الذي قلناه عن تكوينهم ؟ عليهم أن يبرعوا في الرياضة،  
والموسيقى ومختلف ضروب المعرفة التي لا بد أن تخصص لهم ؟  
تيمايوس : صحيح...

سقراط : وعلى هذا لم يكن لهم أن يعيروا اهتماما للذهب والفضة...  
وتشردق في هذه اللحظة على نحو مفاجئ وتطاير شيء  
من البصاق من فمه على صفحات الكتاب، بعد أن تذكر لسبب ما اليخت  
الفاره الذي وصلته صور عنه، كأخر مقتنيات لنزيم خنخان منذ أسابيع  
في الولايات المتحدة...

- لقد أخذت أكثر مما تستحق بكثير ! فكر بحنق ملقيا الكتاب  
جانبا، وهو يتناول بحزم سماعة هاتفه. سأجعلك تندم أنت وكل  
من وراءك أيها النكرة.

أنهى لتوه مكاملة روتينية مع مدير ممتلكاته السويسري رصعها  
بإبتسامة صغيرة تدرجت من عينيه على النصف الأسفل من وجهه  
بشيء من السخاء. وأخذ نفسا عميقا وكأنه يهنئ نفسه على شيء  
ما وغمغم برضا :

- المزيد من المال وراء البحار ! وأطلق تنهيدة حارة وأردف : « آي  
لوف مي ! » همس لنفسه بنبرة هوليوودية وهو يشعر بسحر خاص  
لا يعرف طعمه سوى من خبر الجلوس على ذلك المقعد الوثير، وأسند  
رقبته على كرسي الأفينتادور البيضاء، ثم انفجر ضاحكا على نحو هستيري  
بعد أن خطر بباله أنه وفي تلك اللحظات بالذات، كانت « إيبيزا »  
بيضاء تعيسة هي ما يحقق إحساس الترف لدى أحد الـ « بوبلاد »  
الذين خرجوا لتوهم من الدوار أو الدشرة في البقعة المدعوة جزائر.  
وانتفض بدنه من الضحك وصورة آخر وجه سمح لعينيه أن ترتطم به  
على طريق بن عكنون حيدرة كانت لشبه قرد في العشرينات من عمره  
يقود « بيجو 207 » سوداء اللون، ويقوم بمناورات السمكة الصيانية  
بين سيارات من نفس بؤسها. وقد تصور نفسه أنه يقود ربما فيراري  
في سباق فورميلا وان في أحد مضامير الجائزة الكبرى.

- يا خي كافي يا خي ! وضحك باشمزاز، وهو يستدعي آخر صور  
احتفظ بها ذهنه لآخر زيارة مقتضبة قاده إلى العاصمة، حيث كان  
في أفضل الأحوال من يملك رانج روفر يعتقد أنه لمس سقف الترف  
والرخاء على وجه تلك الأرض. أما هو فقد كان يعرف معنى البذخ  
الحقيقي. ومط شفته بنصف ابتسامة سمجة وفكر باستعلاء. لكن  
من الأفضل إخفاء المال عن أولئك البشر. ثم عاد لرمّ فمه بحركة خاطفة.

- فهم لا يستحقون مشاهدة سيارة مثل هذه على المباشر وإلا أصابت الواحد منهم أزمة قلبية !

تمتم نزيـم بتهكم، ثم انغمس في قهقهة كلبية. مسد مفتاح اللومبرغيني مستعدا لبدء سهرته في أحد أفضل الملاهي الليلية في العالم... بلوم. هناك لن أكون مضطرا لإخفاء المال.

وقبض على المقود بحزم وهو يفكر في المبلغ الجديد الذي أضافه إلى حسابه السري في سويسرا، والذي كان يخفي فيه أموالا طائلة لم يكن يعرف عنها أحد شيئا ولا حتى معالي والده السراق المخضرم، ولا أمه الحرامية المبهجلة هي الأخرى. كيف لا ومسألة إخفاء المال بالنسبة لأي ثري حول العالم لا تعد في وقتنا هذه قضية معقدة. فقد كان يكفي أن تجد لنفسك محاميا... تملأ مطبوعة... تفتح حسابا بنكيا في سويسرا... ثم شركة وهمية وراء البحار... ومقابل بضع آلاف دولار سنويا يمكنك أن تخفي ثروتك في مكان لا يمكن لأي حكومة على وجه الأرض تعقبه. « آي لوف مي سو ماتش ». وواصل نزيـم مغازلة نفسه كالممسوس وهو يفكر بتلذذ كيف أن ثمان بالمائة من ثروة العالم مخفية كليا عن أنظار جامعي الضرائب، بين الجنات الضريبية الموزعة في جزر الباسيفيكي الهادئة على الأغلب. وابتسم ابن الوزير العتيد ابتسامة عريضة وهو يشعر بالنشوة. أكثر من سبع ترليونات دولار مخبأة عن أعين الحساد والسفلة ومن بينها ماله هو. وقبض الآن على المقود من قمته، بحركة مط الذراعين التي كانت تثبت في نفسه لسبب ما إحساسا قويا بالمجد. مجد كان نادرا ما يشعر به وهو يتلذذ بصرف أمواله المنهوبة دوّما ذكاء خارق من مساحة قدرها 2 381 741 كلم مربع بأساليب بدائية متنوعة... وزفر بشيء من الحرج. إذ كان الغباء الذي يشعر به خنخان بعد إتمام كل صفقة،

وسهولة عمليات السرقة التي كان ينفذها، والتي لم تكن تحتاج لسحر المادة الرمادية في عقل أي كائن بشري لإتمامها، هو نفسه السبب الذي بث الآن شعور الفخر في نفسه المتسولة. شعور انسكب داخله دفعة واحدة بعد مكالمته مع محاميه الذي أخطره أنه يعتزم نقل شركاته الوهمية التي كانت جزر بريطانيا العذراء مقرا لها إلى بنما، حيث أن رياحا عاصفة قوية يرتقب أن تعصف بالجنات الضريبية التابعة للتاج البريطاني وراء البحار، وذلك بعد أن وعد دايفيد كاميرون لتوه في خطاب له، بمسح سنوات من السرية البنكية لشركات ما وراء البحار من خلال سجل يفرض على جميع من يملك شركة من هذا النوع الإعلان عنها للسلطات.

وبالرغم من أن خبر اقتراب انعقاد قمة الثمانية في نورثرن أيرلند كان قد أزعج العديد من مكاتب المحاماة المتخصصة في إدارة ثروات الأغنياء عبر العالم، ومعهم زبائنهم الممتعضون على الدوام من السياسات الحكومية التي كانت تتعقب أموالهم باستمرار، كون قمة هذا العام كانت تضع على رأس جدول أعمالها وضع حد للتهرب الضريبي الذي كان يكلف الدول كل عام ترليونات من الدولارات. إلا أن نزيه كان مبتسما... كان سعيدا... بل كان يشعر بالنشوة. لقد كانت مكالمات من ذلك النوع هي ما كان يشعره بالمتجدد... بالعظمة... بالانحراف. وأطلق الآن قهقهة مدوية. فهو في النهاية مواطن غربي. ونفخ صدره بافتعال حتى شعر للحظات أنه كاد يعدم الأوكسجين من خلايا جسمه. إنه يحمل جواز سفر أسود أحب من أحب وكره من كره. وانفلت في هذه اللحظة كل الهواء الذي حبسه في رئتيه دفعة واحدة. وعليه أن يتبع إجراءات السلامة في التهرب الضريبي مثله مثل أي ثري أوروبي نبيل يحترم نفسه.

فكر بزهو. فمحاميه كان ببساطة يطمئنه بأنه يعمل رفقة شبكة دولية من المحامين الدوليين والمحاسبين من أجل إيجاد بدائل عن الجزر البريطانية، ليركن فيها ماله أسوة بأثرياء آخرين كانت تهديدات كامرون الأخيرة يمكنها أن تقض مضجعهم الليلة. إلا أن نزييم ابتسم مجددا وهو يشعر بالفخر لكونه محسوب على هذه العصابة البشرية الراقية التي كانت تسعى جاهدة لعدم لفت العالم المفجوع بالأزمة الاقتصادية منذ 2008 لثرائها الفاحش. ذلك أن الحكومات الغربية قد بدأت من وقتها سعيها المحموم لوضع يدها على مليارات الدولارات المهربة من الضرائب. وقد كان الحديث عن وضع حد للتهرب الضريبي على أي حال اسطوانة مشروخة شبع الجميع من سماعها من الحكومات البائسة التي لم تكن تحسن عزف غير هذا اللحن المكرور أيام الأزمات.

ولاحت على وجه خنخان ابتسامة غريبة، أخذت تتلاشى ببطء بعد أن تسرب القلق لنفسه فجأة وهو يعيد شريط تلك المكاملة في ذهنه، وزفر بشيء من الريبة. فاتصال المحامي به في هذه الساعة من الليل، وأخذته الأمر على محمل الجد كان يشي بشكل أو بآخر بأن تهديدات كامرون لم تكن موجهة للاستهلاك العام فقط. إذ لم يكن يبدو أن اقتصادات مجموعة الثمانية ومجموعة العشرين تمزح في ملاحظتها للمتهرين من الضرائب هذه المرة وإلا لما تحركت شركة المحاماة التي يعد أحد أثرى عملائها بهذه الجدية.

وهذا الآن نزييم من نبرة قهقهاته ليطفأها كليا وهو يستعد للانطلاق بسيارته الفارحة فيما يشبه احترام لحظات روحانية إلى ملهى المدينة الصاخب. ألصق نظارات الغوتشي ذات العدسات الكبيرة على وجهه المدور الثقيل غير مبال بالظلمة، في محاكاة لموضة

تخفي المشاهير وهروبهم من كاميرات البأباراتزي. ودور محرك اللومبيرغيني بحركة استعراضية منطلقا إلى ملهى بلوم وسط ميامي. ولم يشعر بنفسه إلا وهو يتذكر ملاهي غرب العاصمة شبه القروية وروادها « المخلوعين ». واشمأزت نفسه لمجرد تذكر مناظر الاحتفال المفتعلة في تلك البقعة المنسية من الفرح، وانطلق بسرعة وهو ينفذ عن رأسه صور المخلوقات الشعبية اللزجة التي منحها لتوه شرف تذكره لها. لقد كان ذلك وقت رشق المال في ميامي وليس في اسطوالي الفلاحين. وابتسم للفكرة وهو يهرس دواسة السرعة وأخذ يستمتع بصوت الأفينتادور المدوي.

فبالرغم من أن صخب السيارات الرياضية كان يعد من أكبر عيوب هذا النوع من المركبات غير المتاحة لعامة الشعب، إلا أن نزيـم خنخان كان يعتبر ذلك الصوت سمفونية رفاهية لا يكتمل يومه الحافل بعدد المال دون عزفها. ولا من دون « بلوم » بطبيعة الحال، ذلك المكان المترف الأشبه بواحة بنفسجية تقع وسط صحراء مهيبية من ناطحات السحاب... واحة مضيافة كانت تستقبل قوافل السهر من مختلف أنحاء العالم المحملين بمال الليل والسمر... كان ذلك الملهى الأعلى حتما في ميامي يعطي رواده شعورا بالجرأة والجنون بمجرد ولوج عالم أضوائه اللعوبة الزرقاء المخضرة، والذهبية...

وانسكب نزيـم الآن داخل المكان وهو يشعر بالخفة... خفة غريبة على جسمه الثقيل وبطنه المتدلالية إلا أنه وفي حضرة بلوم ومراياه الرشيقة المتملقة لم يكن له سوى أن يشعر بأنه كائن شبه شفاف يغطس وسط جموع من ضيوف الليل ذوي الوجوه الهلامية، في أجواء سهر مترفة يتراقق فيها حس الأناقة ذي المزاج الفني الصارخ بطعم

تكنولوجي طاع، ليصنع كل ذلك خلطة معهودة في عواصم البهجة العالمية يشبه طعمها طعم اللاشيء.

- أي شيء !

بث لعامل البار طلبه المعهود مرفوق بحركة غير محددة من يده كان يعتقد أنها تضيف عليه غموضا جورج كلونيا من نوع ما، ومعه نوعية طلبه التي لا يقدر عليها سوى رجل رأى وسمع وشرب وتذوق كل شيء وهو ليس هنا ليرصد أي ضرب من ضروب الدهشة. أنا شايف وعاييف. فكر بزهو مبطن وهو يلفظ طلبه الأي شيئي بلامبالاة مفتعلة. وبالرغم من أن شرابه غير المحدد ذاك كان آخر شيء يود لأي عامل بار سماعه من أي زبون صاح كان أم مخمورا، إلا أن هالة نزيمة البرميلية كانت تشي بانتفاخ محفظة نقوده العربية وهو المعتاد في أي حال على ترك بقشيش لا يدع معه أي ظل من شك بأنه أتى إلى هنا من أجل أن ينتقم من بعض المال المتخلف. ابتسم عامل البار لنزيم وهو لا يمانع في التفكير بمشروب ما لهذه المعدة الكسولة الذي لم يجهد يوما نفسه في التفكير حتى بما يود شربه، إلا أنه اعتبر تبعات البقشيش المصحوبة بهذا الطلب ثمنا للتفكير للحظات عن هذه الكتلة اللحمية الناطقة.

والحال أن عمال البار في ملهى بلوم وغيره لم يكن لهم أن يكونوا أشد سعادة من استقبال ضيوف عرب من هذه النوعية والتي كان نزيمة يحسب عليها بالرغم من أنه كان يحسب نفسه على فرنسيس ما وراء البحار لم لا، وهو من كان يصير على « بونسواغ » و « ميغسي » لتوقيع محادثاته المسائية السريعة بلكنة باريسية صارخة، إلا أنه على العموم لم يكن ليمانع في أن يعتقد أحدهم أنه شيخ أو أمير ما. والحقيقة أن حبيته السويدية نفسها لم تكن تفرق بين ما يعنيه

أن تكون ابن وزير في الجزائر أو أمير من أسرة حاكمة في إحدى دول الخليج. والمهم أنها كانت تدلعه بعبارة أمير اللذيذ التي كانت تستهويه بشكل خاص. وابتسم خنخان جونيور لفكرة اللذة الخنخانية التي لم تكن صديقه هي الوحيدة من كان يقدرها من جنس النساء، ولم يبال إن كانت على نمط الكعك السويدي عديم الطعم، فالمهم من كل هذا وذاك أنه كان يستطيع بماله شراء أي شيء... الحب والاحترام والإعجاب... الانحناء. لترتسم الآن ذات الابتسامة الغربية على وجهه وهو يرى النادل يحط كأس الكوكتيل أمامه بما خاله شيء من التبجيل، وبدا للحظة وكأنه ينحني من أمامه بحركة بطيئة لا تشبه البتة الأجواء الهستيرية للمكان، بل تهيأ له وكأنه علم دولة موقر لا يميل إلا بانحناءة خمس وأربعين درجة بالتمام والكمال أمام رئيس دولة. وعلى نحو لاشعوري وجد نزيماً نفسه يرد على الانحناءة بإيماءة مهيبية لا تصدر إلا من أصحاب السمو والسعادة والفضامة. وانتمخ صدره بالكامل للفكرة... ولم لا؟ فكر وهو يستعد لكرع مشروبه الذي ترك أمر تحضيره لعامل البار ذي الشفاه المبتسمة والنظرات العابسة، وشرع ذراعيه بحركة لإرادية. وما الذي قد يكون الفرق بينه وبين رئيس عتيد يشترى ويبيع أراضيهِ سوى الإعلان عن نفسه فقط والظهور... وجفل الآن للفكرة وعاد للانكماش على نحو مباغت. لا. فكر بوجل. الظهور لا. وللحظة تذكر حساباته البنكية السرية وحملة كامرون الشعواء ضد أصحاب الحسابات المماثلة. هويتي ينبغي أن تبقى سرية. مخفية. مظلمة. معتمة. وأغمض عينيه في تلك اللحظة بحركة لاشعورية. ثم عبّ من مشروبه عبة طويلة متعرفاً على المزيج الذي اختاره له هذا الأمريكي المتفاني في عمله، والذي حصل للتو على شرف تحضير كأس كوكتيل لشخص من مقامه الرفيع. ورج رأسه

وكانه ينفذ الطعم اللاذع لذلك السائل الذي أفرغه للتو في جوفه  
وصعد مذاقه إلى قمة جمجمته.

ليس سيئا! فكر بغير اقتناع وبدأ يشعر الآن ببدنه وهو يهتز  
على أنغام الموسيقى الصاخبة التي كانت تلف الخمسة آلاف قدم التي  
كان يقبع عليها البلوم بذكاء يتجاوز ثمنه الثلاثمائة ألف دولار، رفقة  
نظام إضاءة مزدوج قادر على بث إنارة قوية ثلاثية الأبعاد ذات جودة  
عالية في كل متر مربع من الملهى، وهو ما من شأنه جعل كل ضيف  
يشعر وكأنه مصدر طاقة كوني لا ينضب.

لقد كانت أجواء بلوم الساطعة فعلا اسم على مسمى، تجعل  
الجميع يشعر أنه يتفتح من الداخل ويتفتح، وكأن نظام الأوديو كان  
مثبتا بالجملة العصبية لكل زبون على حده، ما يجعل صوت الموسيقى  
يبدو وكأنه ينفر من كل رأس راقصة ليخترق أبدانهم واحدا واحدا  
ويتغلغل في أوعيتهم الدموية بآثا في نفوسهم هستيريا الفرحة.

ودلف نزيه بين الجموع وانغمس بالرقص وهو يحتفي بلحظات  
الظهور والاختفاء والظهور والاختفاء مجددا بين أضواء بلوم اللعوب...  
لم يكن لغير هذا المكان أن يمنح أحدا لذة اختبار وقاحة كب المال  
والانسكاب وسط هلام اللاشيء... لم يكن هناك شيء يشبه لذة الانتقام  
من دينارات قذرة... مسروقة من بطن نجسة... لملاك قوادين. لم يكن  
هناك ملهى في « بريكل » بأكمها يشبه البلوم... فكر وهو يهز رأسه  
بجنون. ولا مال في العالم أسوأ طعما من مال مستخرج من بطن تلك  
الكلبة. وأخذ يخض بدنه الآن بكل قوة... لكنه ليس واحد منهم وصرخ  
بقوة... ليس منهم! صاح وهو يحاول التماهي مع حركات الرقص  
الأمريكية المبتكرة. ليجد نفسه من دون وعي ينفذ حركة البارود المستلة  
من أعراس تحت الباش العاصمية لسنوات الثمانينيات الباهتة...

- تبا !

وارتمى الآن على أقرب أريكة من ساحة الرقص ونظر إلى ساعته مترقبا قدوم شلة سهره في أي لحظة. وفي هذه الأثناء تناول هاتفه وكتب إيمالا سريعا لا يبدو أنه قد اعتنى كثيرا بمقدمته وكبس على زر الإرسال.

- العمل يلاحقني في كل مكان !

تتهد وهو يحاول تصديق نفسه بعد أن بعث لتوه برسالة لمن كان يعتبره حلقة الوصل بينه وبين تلك الأرض اللزجة. يحيى المتزلف. هكذا كان يسميه. ولكنه كان مفيدا على أي حال. فكر باشمئزاز براغماتي. وأخرج من جيبه سيجارة، ولوح من بعيد لأصدقائه الذي شاهدتهم يذفون لتوهم من بوابة الملهى المحصنة.

سيصلك ملخص بجميع المقالات غدا صباحا كما طلبت

قرأ رد يحيى السريع على رسالته برضا. ونقر الآن على زر الكاميرا استعدادا لصورة سيلفي تخلد لحظات بهجته اللاجزائرية الخالصة احتفالا بصفقته الجديدة...

- أجنبي !

وعانق أقرب جسد حط إلى جانبه ملتقظا صورة سيلفي مكرورة... كان يرغب في الامحاء وسط صور البهجة... أغمض عينيه وانخرط في رج بطنه بقوة... كان يرقص كالمجنون في جوف الظلمة... كان يرغب في الدلوف في ذلك الشيء... اللاشيء... الأي شيء...

- 8 -

كان كل شيء يسير حوله مثلما يريد هو. أقفل جفنيه ببطء تاركا لتلك الفكرة القادمة من غيبهان رأسه تتداعى أمام عينيه بتأن وسط الدجنة.

لم يكن له ليفكر بصفاء إلا وسط هذه العتمة...  
أخذ نفسا بطيئا من ذلك السيجار.  
- لقد آن الأوان.  
نهض من مكانه بتؤدة. وفتح الستائر بحركة مباغته.  
قابله بياضها المشوب بلون الرماد.  
الجزائر العاصمة.  
هل كان البياض فعلا يليق بها ؟  
أخذ نفسا لذيذا آخر من « الري ديل موندو »، وهو لا يزال  
منخرطا في الفكرة.  
لم يكن متأكدا تماما.  
لكنه كان على يقين أن ادعاءها البياض يليق به بقدر ما كان سدفه  
يليق بها.  
- نهايتك حلت لا محالة.  
وتناول ملف جانلوكا فيرو وتابع كرونولوجيا حلوله في أرضه المحرمة.

## - 9 -

وقف مهدي واجما كمسمار أعوج مثبت على طاولة خربة،  
غير قادر لسبب ما على الاتيان بأي حركة، عدا عن اهتزازات الشهيق  
والزفير التي بدا وقعها على قفصه الصدري أشد في هذه اللحظات  
مما هي بالعادة. وبقي على هذه الحال حوالي سبع دقائق كاملة  
غير مصدق أنه كان ومنذ دقائق قليلة فقط يتبادل أطراف الحديث  
مع شخصية هامة في القاعدة وهو من لم يكن يتخيل أن مدير مدرسته  
كان يمكن أن يوجه له أي كلمة لمجرد أنه... مدير المدرسة، بينما...

- جانلوكا فيرو... خبير فلكي في معهد إيزا.  
- وأنا... أنا... أنا ماهدي... أقصد مادي... مهدي... ميدي... كما  
تريد. تلعثم مهدي وهو يمد يده لمصافحة الوافد الجديد على القاعدة.  
- هل أنت من الطوارق يا مهدي ؟  
- أنا... لا... نعم... أنا من هنا نعم... أقصد... كما تريد... قال وهو  
لا يدري لم كان يشعر بكل ذلك الارتباك.  
- هل تحسن الانجليزية ؟  
- نعم... لا... أقصد في القراءة والكتابة أفضل من الكلام لكنني...  
نعم... قليلا... أحسن من الفرنسية... أقصد نعم...  
- وهل تحسن قراءة التيفيناغ ؟ وسحب قصاصة ورقية من جيبه  
مدها له وقد أرفقها بابتسامة غامضة. « هل يمكنك أن تترجم لي هذه  
العبارات إلى الانجليزية ؟ »  
قلب مهدي تلك المحادثة في رأسه مرارا وتكرارا. ثم نظر بريبة  
لتلك الورقة. وأحس وكأن الدم قد تجمد في عروقه دفعة واحدة.

## - 10 -

وقف جانلوكا أمام النافذة، وأخذ يتأمل باهتمام الكتل الصخرية  
التي كانت تنتصب بلامبالاة من بعيد، مشوشة على خط الأفق  
وعلى خط أفكاره الذي سرعان ما أخذ منحى نوستالجيا لم يفهم  
تفسيره في تلك اللحظات، وعاد ليتأمل تلك المرتفعات الشامخة وقد  
تداخلت صورتها الآن مع صور مخزنة في زرقة عينيه لحي إيزولا.  
فبالرغم من أن ذينك الجبلين الغرانيتيين كانا يبدوان كأى جبلين  
عاديين قد يتواجدا في هذا المكان، إلا أنه شعر لسبب ما أنهما يشبهان

تماما مبنيا الـ « بوسكي فيرتيكالي » في حيه الشهير واللذان لم يكونا ليلفتا الأنظار بشكل خاص من بعيد، بل كانا ليظهرا من الوهلة الأولى مثلهما مثل أي مبنيين آخرين موجودين في مدينة كبرى كميلانو. غير أن إعطاءهما فرصة ثانية والاقتراب منهما سيجعلك تكتشف أن شرفة كل شقة مغطاة بالكامل بمختلف أصناف النباتات التي يصل عددها إلى التسعمائة نوع في كلا المبنيين، لتأتي من هنا تسمية البرجين بالغابة العمودية.

- وكذلك هي حتما الجزائر ! تتم جانلوكا مبتسما وهو يلفظ اسم ذلك البلد الذي كان يشبه في معناه اسم حيه « الميلاني » : إيزولا. والذي كان الجميع يدرك أصل تسميته على الأقل، عكس هذه البقعة الشاسعة من الأرض التي لا يبدو أن أهلها قد حاولوا إدراك كنهها من خلال محاولة الحفر في ثنايا حروفها قبل التنقيب على الأسرار المادية المدفونة في جوفها. وفكر في رموز التيفيناغ التي وجدها في أحد الكتب، وهو يشعر بشيء يشبه النشوة خالطها الكثير من الفضول. ما الذي سيكون تفسير ذلك الشاب لها يا ترى ؟

وقلب جانلوكا مجددا الصور التي التقطها « نيبيرو » قبل ثلاث سنوات للموقع من على حاسوبه الشخصي، وأخذ يتأمل النقاط الشاذة التي تم تحديدها في بطن الأرض من خلال تلك اللقطات التي كان يحتفظ بها، ولم يكن لها سوى أن تثير انتباهه آنذاك وهو من عمل لسنوات طويلة مع الإيزا رفقة خبراء الوكالة الأوروبية للفضاء على المادة المظلمة قبل أن ينتقل للعمل مع المعهد الدولي للأبحاث الأركيولوجية، ويبدأ بعدها البحث عن السبيل لاكتشاف ماهية هذه النقاط وعلاقتها بالطاقة المظلمة، تلك الطاقة التي افترض الفيزيائيون وجودها بعد ملاحظة التسارع في تمدد الكون عام 1990 بمعدلات غير مسبوقة. حيث قدرت بعثة بلانك التابعة للوكالة الأوروبية لأبحاث

الفضاء أن الكون يحتوي على 68.3 ٪ من الطاقة المظلمة و 26.8 ٪ من المادة المظلمة مقابل 4.9 ٪ فقط من المادة العادية. أي وجود 95.1 ٪ من ظلمة كونية لا نعرف ماهيتها. فكر جانلوكا وقد داخله شعور قوي بالرهبة.

أخذ نفسا عميقا وهو يغلق صور « نيبيرو »، معملا النظر في ذلك المكان المعزول الذي لم يكن يشبه في عزلته حي إيزولا الفريد الذي كان يعيش فيه شمال المدينة الإيطالية الأعلى، والذي أخذ اسمه (الجزيرة) كونه يقع خارج بوابة غاربيالدي وهي إحدى البوابات الست لميلانو، لينفصل عن بقية المنطقة ومحطة قطارات المدينة ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث شهد الحي تعديلات عمرانية حولته إلى قبلة لمحبي الفن والأثرياء من ذوي الذوق المرهف والحس الأنيق، الراغبين في عيش حياة عصرية رائقة.

والأكيد أن تمنغاست لا تشبه في عزلتها الطبيعية عزلة حي إيزولا التي صنعتها يد الإنسان، ولا الإطالة العدمية التي تبدو أقدم من الزمن من على نافذته في هذه القاعدة، تشبه في شيء الإطالة المرفهة للنافورة الدائرية التي تمنحها له شرفته الميلانية على ساحة غاي أولينتي<sup>16</sup> المخصصة للمشاة. وشعر لوهلة أن رحلته اليوم التي لم تدم أكثر من ثمان ساعات لم تكن رحلة نقلته من مكانين يختلفان في إطلالتهما على الزمن فحسب، بل كانت نقلة حقيقية إلى بعد آخر في هذا الكون.

« هل نحن محقون عندما نقول أن هناك عالم واحد، أم أن هناك العديد من العوالم بل وحتى عدد لا متناه منها ؟ »

Piazza Gae Aulenti .16

فكر جانلوكا مستذكرا تيمايوس بخدر وقد لاحت أمام عينيه الكتلة الجبلية الشاهقة المنتصبة من بعيد. ولسبب ما انصهرت في ذهنه مع صورة برج أوني كريدت ذي التصميم المينيمالستي الغارق في العصرية، وهو ناطحة السحاب الأعلى في إيطاليا على الإطلاق والذي يتراءى من على شرفته بمسكنه في ميلانو ليذكره كل يوم بأنه ابن المدينة الحديثة. وتأمل الآن ذلك الجبل المهيب واستذكر مجددا تيمايوس :

لا بد أن يكون هناك عالم واحد فقط، إن كانت النسخة المخلوقة توافق الأصل.

وأغلق جانلوكا النافذة وأخذ نفسا عميقا قبل أن يخرج لتناول العشاء، ولم يفته إلقاء نظرة على كتاب أفلاطون.

- أخيرا... تحققت النبوءة !

لقد كان ذلك هو المؤلف الوحيد الذي أشار إلى اللغز البشري الأقدم والذي عجز البشر إلى يومنا هذا من فكّه. فهل يعقل أنه سيكتشف قريبا من هذا المكان السر الأفلاطوني الأشهر ويتمكن من حل أغلّقه مع كل ما يكتنف هذا من أخطار ؟ وشعر الفيزيائي الكهل في هذه اللحظة أنه كان مقدما على كتابة تاريخ جديد... لقد كان ذلك إنجاز أكبر بكثير من الفيوتشر إينيرجي كوربوريشن والمركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية ومعهما هينريك فورتسنبورغ مجتمعين. دمدم بتحد وهو يشعر بخطورة الفكرة.

لكن هل سيغفر لي هينريك إذا علم بما أنا مقدم عليه ؟

لم يكن جانلوكا فيرو متأكدا من ذلك إلا أنه كان عازما في جميع الأحوال على إتمام ما كان يخطط له. خرج من الغرفة وهو يفكر في الطريقة المثلى للمضي قدما في مسعاه دون لفت انتباه أحد.

## - 11 -

من كان ليصدق أن صور القيامة كان لينفخ في الصحراء. ابتسم يحيى وقد اكتسى وجهه تعبير دراكولي مرعب، وهو ينهي قراءة آخر الأوامر القادمة من إحدى الغرف السرية في العاصمة.

- بدأ لعب الكبار ! دمدم وهو يتلذذ باللحظة، بينما كان يغلق الرسالة التي وصلته للتو على بريده الخاص. وقلب في رأسه بعض المعلومات السريعة التي كان يختزنها في رأسه كملفات احتياطية، وتوقف عند إحداها وهو يفرك شاربه المثلث الصغير :

- الآن علينا إشراك بعض الأقزام في المهمة.

نهض من مكانه واتجه صوب خزائنه الصغيرة. تناول المصنف رقم أربعة. قلب أوراقه بعناية. تأمل ذلك الاسم. نكرة بما فيه الكفاية. غمغم بلذه وهو يكتم فهقة صغيرة. ثم أرسل الرسالة.

## - 12 -

أدخل كلمة السر التي كان يبلغ طولها الأربعة وعشرين حرفا إلى حاسوبه الماكينتوش الأبيض، وهو يشعر بضيق شديد كنتم على أنفاسه منذ فترة وعزم ألا يفارقه في الأسابيع الأخيرة.

فك أزرار قميصه بالكثير من الانزعاج وهو يدخل الحرف بعد الرقم بعد الرمز في ذلك الإطار المحدد لكلمة السر، لتأتي تلك النقرات الأربعة والعشرين على لوحة المفاتيح والتي تنوعت بين أحرف صغيرة وكبيرة وأرقام ورموز لتخفف عنه نوعا ما ذلك الشعور البغيض الذي كان يجثم على صدره منذ مدة، إلا أنه كان يدرك على الأقل أنه

من شبه المستحيل الدخول إلى قاعدة بيانات حاسوبه السرية بفضل تلك الكلمة المفتاحية التي لم يكن ليخرج بها سوى عبقرى فذ من طرازه، لم يكن له ليستحق أقل من حاسوب محمول من هذه النوعية.

ربت سعيد شكيكن بحركة حميمية على لوح مفاتيح الماك بوك الأبيض موديل الـ 2006، والذي استحال لون أزواره إلى الرمادي بسبب استعماله أثناء تقلب الجرائد اليومية القذرة، إلا أن ذلك لم يخفف من وهجه في عيني مدير موقع الحق الثقافي المزهو بعلامة آبل الفخمة، والدليل اختياره كشريك له في صورة البروفيل على الفيسبوك، حيث يظهر سعيد شكيكن وهو يلتقط ذقنه المتراجعة بطرفي سبابته وإبهامه وقد ضيق جفنيه بحركة تأملية، مركزا عينيه على الشاشة الرفيعة للحاسوب الأكثر طلبا في العالم، في لقطة لا تليق إلا بأدباء مصر بدايات القرن العشرين أو هذا ما يخيل للرأي.

والواقع أن سعيد شكيكن لم يكن أصلا وأثناء التقاط تلك الصورة يكتب أو يقرأ شيئا من على سطح شاشة ماكينتوشه المغبرة، إلا أنه صمم اللقطة وأخرجها ليبدو بمظهر عمالقة الكتاب الصحفيين من خلال تلك النظرة التأملية العميقة، دون أن ينسى إظهار علامة تلك التفاحة المقضومة، بالإضافة إلى الآيفون الموضوع على المكتب بعناية وكذا ساعته السواتش الرمادية المقلدة، وهي عناصر كان يعتقد أنها جميعها تضيف عليه الكثير من الهيبة، وشيء من نفوذ السلاطين وذوي الشأن الرفيع والمكانة العليا على نحو رجال الأعمال والسياسيين العظام وولاة الأمصار والقضاة والملوك دون أن ينسى إظهار خاتمه الضخم المصنوع من الفضة ذي الخرزة السوداء الكبيرة إذ ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتختم وعليه فقد كان هو ممن يهتدي بهدي نبيه... هذا ما قرأه في أحد كتب الفقه القديمة.

كما أنه تمنى لو أنه يستطيع التكحل أيضا وربما تطويل شعره اتباعا للسنة... إلا أنه تذكر شعره بالكثير من الأسى ليمرر كفه عليه ويتأكد بأنه مخلوق بعناية، ولو كان أجمل من ذلك بقليل لكان قد خضبه بالحناء وكل ذلك على سبيل اتباع السنة النبوية... ليس تشبها بالنساء والعياذ بالله. لتستدعي فكرة التشبه بالنساء صورة ذلك المرصور العينين ذي الشعر الطويل إلى ذهنه : « فريد الأوش »...

لن يصبح ذلك الخنيث رئيسا للتحريير !

وكبس على زر المرور وهو يركز على أسنانه بعصية متذكرا رئيس القسم الوطني وربطة عنقه الوردية ثم زمجر :

- على جثتي !

وأتمع تلك الزجرة المدوية بابتسامة عفوية. لقد كانت تلك العبارة عزيزة على قلبه، وهي التي قام للتو باستخراجها من مخزونه اللغوي المرتبط بالأفلام المصرية التي كان يتابعها بنهم. والواقع أن سعيد لم يكن يعلم أنها ترجمة حرفية للعبارة الانجليزية ذاتها، لأن عدته بهذه اللغة كانت تقتصر على تكوين جمل بسيطة تعلمها في المدرسة المتوسطة والثانوية، إلا أنه مع ذلك كان يعتبر نفسه ضليعا باللغة الانجليزية أكثر منه باللغة الفرنسية وقد كان فخورا بذلك لأنه لم يكن فرونكوفونيا تعرييبا استئصاليا لائيكيا من حزب فرنسا. وإن لم يكن متنطعا كزميله في الجريدة المدعو مراد فرتوكي، الذي لم يكن يفوت أي مناسبة ليتحدث فيها عن دورة في اللغة الانجليزية خضع لها في المعهد البريطاني بالجزائر وكأنه يظن أنه قد يتحول بذلك إلى شخصية دولية أو خبير عالمي في شيء ما.

والواقع أنه وحتى بالرغم من أن ذلك الفرتوكي كان محسوبا على المعسكر المحافظ الذي كان ينتمي إليه سعيد في مؤسستهم

الإعلامية القديرة، إلا أن ذكر اسمه أمامه كان يتسبب له بشيء يشبه الحرقة في المعدة يتبعه تصاعد كثيف في الأبخرة، خصوصا بعد أن فتح هذا الأخير لنفسه صفحة عامة على الفيسبوك أطلق عليها اسم « الصحفي والكاتب والإعلامي والناشط مراد فرتوكي ».

وارتجع سعيد بعض الغازات من بطنه وهو يفتح ملفا محببا إلى قلبه من على الحاسوب، كان من شأنه أن يخفف عليه وطأة التعايش مع كل هؤلاء الكريهين في رأسه، والذين كانوا جميعهم خصوصا محتملين علمانيين كانوا أم إسلاميين، من شأنهم عرقلة تربعه على عرش الصحافة الوطنية يوما ما، وإن كان الفرتوكي ذاك يشكل خطرا أقل على مخططاته المستقبلية وهو من كان يسعى للتحويل لأيقونة إعلامية من خلال تلبس أسمال الكاتب والصحفي والناشط السياسي الشهير على مواقع التواصل الاجتماعي، مع أنه كان صحفيا عاديا لا يكاد يعثر في هاتفه على رقم واحد لشخصية ما نافذة في البلاد، حيث كانت أحلامه تدور جميعها في فلك الحصول على الشهرة ليس إلا. وعلى الأغلب فقد كان يتصور بأنه صحفي وسيم، وهو من لم يكن يكف عن تغيير صورة بروفايله على الفيسبوك. فها هي صورة له وهو يلف على عنقه « شاشا » بنيا اشتراه من آخر رحلاته الصحراوية وهو فاتح فاه في شيء يشبه الصراخ خلال أحد المظاهرات لتبدو تلك اللقطة وكأنها منتزعة من فيلم ثوري عن تشي غيفارا، وهذه صورة أخرى على شاطئ البحر وهو يقرأ كتابا عن الشعر أو الفلسفة أو أي شيء من الهرطقة. أما أكثر صورة له مثيرة للسخرية فكانت تلك التي ارتدى فيها توكسيديو أثناء تواجده في أحد حفلات جريدة الحق بمناسبة إطلاق موقع الحق الرياضي، وعلى الأرجح أنه كان يتخيل نفسه في لوس أنجلوس بكاليفورنيا يحضر حفل توزيع جوائز الأوسكار،

وكل ذلك من أجل أن يلفت انتباه إحدى القنوات الفضائية الخليجية، ويشد الرحال بعدها نحو عالم ناطحات سحاب دبي وسياراتها الفارهة. وقد كان مراد فرتوكي بذلك، الصورة المضادة لـ « فريد الأنوش » ذي ربطة العنق الوردية، والذي كان يفضل العمل بدون ضوضاء إعلامية من حوله، وهو من لم يكن بحاجة إلى الشهرة بحسب سعيد بما أنه كان يملك ما يكفي من علاقات نافذة تكسب من خلالها بما فيه الكفاية، وحقق بواسطتها الكثير من الأحلام دون جعجعة.

وزفر الآن شكيكن بحرقه، مستعرضا الصور التي كان يحتفظ بها على حاسوبه الواحدة تلو الأخرى. قلبها بحرص. نظر باهتمام لجميع تفاصيلها... لتأخذ تقاسيم وجهه بالانفراج شيئا فشيئا لسبب ما.

- مثيرة جدا للاهتمام.

وأخيرا امتدت عضلة خده في شبه ابتسامة، وتناول مباشرة هاتفه وهم بالبحث عن رقم من سيعتبره شريكه الأساسي فيما قرر أن يطلق عليه اسم الارتقاء المهني. لينتبه لرقم الحاج المخزن بعناية في شريحته، وتذكر اجتماع اليوم. أعلم جيدا أن هناك قصة وراء المواضيع التي يجب أن نحضرها عن الصحراء. لا شك من أن هناك طبخة ما يتم تحضيرها وتقاسمها فيما بينهم. فكر بكلية وكبس مباشرة على رقم ميلود. أما أنا فمن اليوم وصاعدا لن أبقى على الهامش.

وفتح أثناء ذلك بريده الإلكتروني في طقس روتيني. لكنه هذه المرة لم يتوقع ما الذي كان ينتظره. أغلق مباشرة هاتفه. واتسعت عيناه في غير تصديق وهو يفتح تلك الرسالة.

- 13 -

فتح الملف الذي قام للتو بتحميله من الشبكة. وانتبه إلى ارتفاع معدل تنفسه، وتشكل بعض حبات العرق على جبينه كأنه انتهى

لتوه من تفكيك شفرة سرية في عملية جوسسة دولية. ابتسم مهدي للفكرة، وقرر تخيل نفسه بطلا في فيلم هوليوودي على غرار « الميشون إمبوسيل » بالرغم من شعور الذنب الذي سيطر عليه لأنه قام للتو بـ« السرقة »، وذلك من أجل إشباع فضوله بخصوص المجلد العجيب الذي تركه الفيزيائي الإيطالي في غرفته معلماً بفاصلة جلدية بنية على الصفحة 49 على نحو استفزازي.

فكر مهدي وهو يحاول تبرئة نفسه من تهمة التلصص على أغراض الغير. لترتخي على الفور عضلات وجهه، وهو يقرأ الأسطر الأولى من ذلك الكتاب الأسطوري الذي عثر عليه للتو بصيغة البي دي أف. وأحنى ظهره على نحو لاشعوري مستحضرا بطريقة ما جلسات الحكي التي كان يؤمها في صغره :

« سأروي قصة قديمة قدم العالم سمعتها من رجل مسن (...) ذلك أن كريتياس وفي الوقت الذي قصها علي كان يبلغ من العمر بحسبه تسعين عاما ونيّف، أما أنا فكنت أبلغ من العمر عشا. »

وانتظمت الآن أنفاس مهدي وارتخت أطرافه متابعا القراءة بعينين شبه مخدرتين...

« لقد كان ذلك عيد الأباتوريوس أو ما يطلق عليه يوم تسجيل النشء، والذي يقوم فيه الوالدان بحسب العرف بتقديم جوائز عن إلقاء الشعر. وقد كنا نحن الفتیان نلقي قصائد لشعراء عدة، وكان الكثيرون يختارون أشعارا لسولون الذي كان يتمتع بصيت واسع في ذلك الوقت. حتى أن أحد رجال عشيرتنا قال، ولا أدري إن كان ذلك من أجل إسعاد كريتياس فقط أم لا، أن سولون بتقديره لم يكن أحكم الرجال فحسب بل أكثر الشعراء نبلا. وأذكر جيدا أن عيني جدي المسن، ولدى سماعه هذه الكلمات قد لمعتا، وابتسم قائلا : نعم يا أمياندير،

لو قام سولون فقط باتخاذ الشعر مهنة كما يفعل بقية الشعراء، وأتم تلك القصة التي أتى بها من مصر، ولم يضطر بسبب الانشاقات والمحن التي وجد نفسه يتخبط داخلها وقد عصفت بوطنه لدى عودته، فانصرف بذلك لأمرٍ أخرى، لما قلت شهرته برأيه عن شهرة هوميروس أو هيزيود أو غيره من الشعراء...»

وتبسم مهدي بفخر. فهو الآخر قد سمع قصصاً آتية كثيرة خلال طفولته قادمة من أعالي مصر. وها هو الآن يقرأ إحداهما على لسان أفلاطون! فكر وهو يشعر بزهو يشبه طعمه طعم مشاهدة شبيهه الأسمر في المان إن بلاك 3.

وما كانت تلك القصة يا كريتياس؟ سأل أميناندار.

لقد كانت أعظم مآثرة للأثينيين، وكان لا بد أن تكون أشهرها على الإطلاق، لكن ومع مرور الزمن وزوال الفاعلين فيها، لم تُصَبَّ خبرها. ارو لنا الواقعة بأكملها وكيف بلغت مسامع سولون هذه القصة الحقيقية وممن سمعها...

وتوقف مهدي الآن للحظات وأعاد قراءة الجملة ليتوقف كل مرة أمام اللفظة نفسها وكأما كان يتعثّر بجمود يشبه كلمة. أو كلمة تشبه جلمود.

حقيقية؟

وعاد الواقع ليتداخل في ذهنه مع الخيال، والخيال بالواقع أم أن الواقع كان خيالاً والخيال كان واقعا وكلاهما واحد؟ أطلق زفرة حائرة. لكنه قرر متابعة القراءة. وإما أن يكون كلاهما كذبة أم كلاهما حقيقة. ونظر بتوجس الآن لتلك الورقة المكتوبة بحروف التيفيناغ والتي تركها له الفلكي الإيطالي صباح ذلك اليوم.

- ما الذي سبق قدوم هذا الشخص إلى هنا يا ترى ؟ دمدم بريية  
وعاد للكتاب عله يستطيع فك البعض من أسراره الغامضة.

- 14 -

جلست رتيبة إلى الحاسوب تطالع باهتمام الصور التي عثرت عليها  
على الشبكة في معرض بحثها عن مواد لمقالاتها عن منطقة الهوقار،  
لتجد نفسها غارقة في صور لم تكن تصدق أنها ستحط في يوم من الأيام  
على شيء يشبهها في كامل حياتها.

- يا وخذي... ياوخذي !!

تجمدت في مكانها وبدا للحظة أن عيناها قد جحظتا  
من محجرهما. وتوقفت بشيء من الفزع أمام ذلك السواد النافر  
من آخر صورة. لم يكن ذلك اكتشافا يمكن أن تدعه يمر مرور الكرام.  
أعملت النظر مجددا في الصور وسرعان ما ابتسمت وهي تفكر أنه  
لا بد من أن تستفيد من هذا الفتح الصحفي العظيم. كان ذلك حدثا  
هاما من شأنه أن يقلب حياتها رأسا على عقب، ولم يكن من الممكن  
أن تترك المسألة تمر من دون أن توظف فيها جميع إمكانياتها وتحشد  
لها كامل قواها، بل حتى أنها اعتزمت رصد نصيب هام من مدخراتها  
في سبيل بلوغ مرادها والحصول على تلك الصور لنفسها.

صحيح أن الصحافة لم تكن تدر على رتيبة بالكثير من المال إلا أنها  
قررت اقتطاع أي مبلغ كان من أجرتها الشهرية، بل وتخصيص راتبها  
كاملا لذلك الشهر إن اقتضى الأمر للظفر بهذه الصور.

أخذت نفسا عميقا وهي تشعر بالكثير من الامتلاء وفكرت أنه  
ينبغي أن تبدأ اتصالاتها المكثفة ابتداء من يوم غد مع مجموعة  
من المصورين لمناقشة أمر تلك الصور والتأكد من صحتها وطريقة التقاطها.

وقامت الآن من مكانها بزهو وهي تفكر في أن مجهوداتها خلال الأشهر الأخيرة من أجل الوصول إلى التميز قد بدأت تأتي أكلها. دندنت لحنا عرائسيا ملبسا، وهي تتجه إلى الحمام لتقف أمام المرأة وتتأمل وجهها بالكثير من الرضا. وشعرت للحظة أنها لم تعد مهمة بتلك التصبغات التي كانت تظهر في البعض من أجزاء وجنتيها، والتي كانت تحرص دوما على تغطيتها عند الخروج باعتماد لفات معينة لخمارها تعلمتها من منتديات الانترنت النسوية.

وتناولت بارتخاء المرهم الذي اشترته منذ أشهر بنصف راتبها لتخفيف التصبغات في بشرتها ودلكت شيئا منه بطرف أصابعها على كامل وجهها دون مبالاة واضحة. ابتسمت بثقة واتجهت لحاسوبها وأخذت تطالع من جديد تلك الصور المنشورة في منتدى « جمالك وأناقتك »، والتي كانت تضم لقطات لفنانات عربيات قبل وبعد تعديل صورهن بالفوتوشوب.

- زعمة حاسبين روحهم شابين... هئ هئ هئ !

تمتت وهي تتأمل الصور من جديد حيث بدت إحدى المغنيات في صورة غير معدلة سوداء كالفحمة وهي من تظهر عادة في جميع صورها ببشرة بيضاء مشعة كبشرة رضية سويدية. تضاحكت رتيبة مطوحة برفقتها وسارعت لكتابة تعليقها على الصورة من خلالها حسابها في المنتدى باسم « ياسمينة الجنة » :

والله والله والله لا شيء أجمل من المرأة الطبيعية، العابدة الشريفة الأصيلة الحرة، الحافظة لفرجها الملتزمة بحجابها رمز عفتها وطهارتها... ظهرت حقيقتهن هؤلاء الكاسيات العاريات القبيحات قلبا وقالبا على أيدي المصورين... اللهم اضرِب الظالمين بالظالمين... والله والله لا يوجد ما هو أنفع من صلاة الفجر لضمان نور الوجه وإشراق القلب. اللهم اجعل الإيمان نور

قلوبنا وظهر سرائرنا بالثلج والماء والبرد وافضح الظالمين  
وشتت شملهم. آمين يارب العالمين.

كبست زر الإرسال وأخذت نفسا عميقا منتشية بفصاحة كلماتها،  
وبلاغة عباراتها، وطلاقة لسانها والتي لم تكن تدخر فرصة لإظهارها  
على صفحات المنتديات إلى حين يفتح الله عليها برنامج تلفزيوني تحقق  
من خلاله حلمها في أن تكون مثالا يقتدي به لبنات عصرها وزمانها.

وارتسمت على وجه رتيبة ابتسامة عريضة وهي تفكر في عرسها  
وصورها في هذه المناسبة التي لا بد أن تتعامل فيها مع مصورة تحسن  
تقنيات الفوتوشوب هذه، لتخرج هي الأخرى أيضا بأبيض حلة لها.

والواقع أنها كانت تدرك أن سعر تعديل الصور بهذه التقنية قد  
يكلف الكثير إلا أنها لم تكن لتبخل على يوم زفافها بأي مصروفات  
إضافية. فقد كانت هي امرأة عاملة ليس مثل ابنة جارتها الماكثة  
في البيت والتي لم تحظ العام الماضي سوى بعرس بسيط و« تصديرة »  
زفاف مستأجرة من ألفها إلى يائها. عدا عن أن المسكينة قدمت للضيوف  
الحلوى بصحون ورقية بينما هي كانت ستشتري علبا خشبية لتقديم  
الحلوى التي ستحرص على وضع كل واحدة منها في قطعة قماش أورغنزا.  
بالإضافة إلى أنها ستحرص على الذهاب لحلاقة ستدفع لها خمس ملايين  
سنتيم لصبغ وجهها وحشو شعرها. لقد كانت تطالع منذ أشهر جميع  
منتديات العرائس ومستجداتها في سبيل أن تخرج بعرس يظهر الفرق  
بين امرأة جاهلة منكسرة وامرأة عاملة مثقفة من طرازها.

وبالرغم من أن رتيبة كانت قلقة بشأن لون بشرتها حيث بدأت  
باستعمال كريم تبييض قبل الزفاف لم تر نتائجها إلى الآن، إلا أنها اليوم  
سعيدة باكتشاف صور الفوتوشوب التي يمكن أن تحولها بكبسة زر  
إلى نجمة غناء، ولا تقل رونقا عن أي فنانة.

أخلايا... أخلايا... هادوما زعمة دايرين روحهم شابين °-° !!



وأطلقت ضحكات مفتعلة بغنج نايلساتي خاص وهي ترد على خطيبها، ثم تذكرت « غار الجنون »... كان لا بد من أن تبدأ بجمع المادة لمقالها.

- هِيء... هِيء... هِيء !!

وفكرت في أنها تستطيع أن تحصل على المعلومات اللازمة على أي حال من خلال مواقع التواصل الاجتماعية بطريقة ما.

- هِيء... هِيء... هِيء !!!

ثم انخرطت في تقليب حسابات من كانت تعرفهم من أصدقاء وغير أصدقاء على الفيسبوك... لتتوقف الآن أمام بروفييل أحدهم يسمي نفسه « مهدي سميث » ويقول أنه يعمل في شركة أجنبية في تمناغست. ركزت على صورة سيلفي له حرص أن يظهر فيها مرتديا نظارات سوداء ومن ورائه معدات حفر عملاقة.

- هِيء... هِيء... هِيء !!!!

كان يبدو أسود بما فيه الكفاية ليكون ابنا للمنطقة.

فكرت رتيبة بزهو وهي تشعر بعبقريتها التحليلية في تلك اللحظة. لا بد أن تستغل هذا الشيء لكتابة مقالها. وانخرطت مجددا في ضحكاتها النانوسوية المصطنعة...

- 15 -

جلس جانلوكا على طاولة العشاء وقد لفت انتباهه أن وجبة طعامه كانت تختلف عن وجبة المجموعة البشرية القابعة على يساره، والمكونة من عمال الشركة المحليين الذين كانوا يتميزون بأفواه تطل من واجهتها ثلاثة أو أربعة أسنان على أقصى تقدير. وقد كانوا جميعهم منهمكين في تناول حسائهم واتباعه بقضمات خبز كبيرة. لينتبه

في حينها أنه كان ينعم مع الجيولوجي مارك ويير وهو مدير المشروع، وكذا بقية أعضاء البعثة الأوروبية، بوجبة طعام مخصصة للشخصيات الهامة. دون أن يجرؤ على عقد أي مقارنة في نفسه بين وجبته هذه والوجبات النباتية المرهفة، والمعدة بثمار عضوية مختارة بعناية، كانت تشتهر بها مطاعم إيزولا.

- يبدو لي وكأن وجبتنا « أفخم » من وجبة الموظفين الجزائريين هنا ؟  
- الوجبة الجزائرية لا يوجد فيها لحم ولا فاكهة. أجب الألماني دون أن يحفل كثيرا بالسؤال الذي طرحه الوافد الجديد على القاعدة.

- لكن لماذا ؟ سأل جانلوكا باستغراب وهو ينظر بعفوية إلى فخذ الدجاج الذي كان أمامه، وقد تذكر بحسب قراءاته أن طابوهات قبلية قديمة تمع الطوارق من أكل الدجاج والأرانب والأسماك، بل وحتى بيض الدجاج لا يعد طعاما محبوبا بين أولئك الزرق، حيث أنهم كانوا يفضلون بيض الضب. واستطرد الآن في الكلام وهو يقلب في ذهنه المعلومات التي تزود بها قبل مجيئه إلى هذا المكان بالكثير من الاهتمام. تقصد أنكم تقدمون لهم عادة لحما أحمر ؟ وانبرى مباشرة بشيء من الحماسة : « على أي حال، من المعلوم أن المطبخ الطارقي بالأساس يتسم بالكثير من الزهد تماشيا مع زهد البيئة ذاته هنا، لكنني سمعت بأن الطوارق يحبون أكل اللحم على قلته... بل وهناك من يعتقد أنه لا ينبغي تجاوز العشرة أيام من دون تناوله... سواء أكان لحم ماعز، أو لحم ضأن بشكل أقل، ولحم الإبل أيضا، لكن في ظروف استثنائية ». وابتسم الآن وهو سعيد بتهاطل هذه المعلومات على رأسه : « كما أن الطوارق يحبون بشكل خاص لحم الغزلان و الأروية و... »

- مبدئيا لست متأكدا أن هؤلاء بالأساس الطوارق الذين قرأت عنهم. قاطع مدير المشروع الألماني جانلوكا بجفاف وهو يقطع آخر ما تبقى من فخذ الدجاج في صحنه وتابع بهدوء : « كما أن الكتب السياحية والفلكلورية التي ألفها الفرنسيون عن الهوقار مهمة ». قال وهو يبلع آخر لقمة له في ذلك العشاء. « كتب لا ينكر أحد أهميتها بالنسبة لسواح السبعينات...»

وسرعان ما استحال لون جانلوكا إلى لون صلصة الطماطم النابوليتانية. وشعر وكأنه يرغب في أن يصفع نفسه. إلا أن ملامح ذلك الألماني اللامبالية جعلته يغفر لنفسه انسياقه غير المبرر في أجواء السياح المولعين بمراكمة المعلومات التراثية عن أي مكان يعتمون زيارته، والانخراط في محاولة مطابقة النظري بالعمل أول ما تطؤ أقدامهم الأرض الموعودة.

- إذن لماذا لا يأكل هؤلاء الدجاج ؟ وأعاد طرح سؤاله مجددا بخجل محاولا استيعاد توازنه المعرفي، وهو الذي كان يعلم أن اللحم الوحيد المحرم في هذه البلدان هو لحم الخنزير. كما أنه لم يستوعب فكرة عدم تناول أحدهم للفاكهة والتي لا يمكن لأشد معتنقي نظريات التغذية تطرفا استيعابها : « ألا يأكل السكان المحليون هنا فعلا اللحم والفاكهة ؟ » كرر سؤاله باستغراب صادق.

- لست متأكدا تماما من ذلك. رد ويبر بهدوء وكأنه يواسي زميله الإيطالي الجديد متفهما اندفاعه نحو الأجواء الفلكلورية المفترضة للمكان، وتابع محاولا مجارة حديثه وهو يلتقط حبة تفاح أخضر من أمامه : « لكن الأكيد أنهم لا يأكلون أقاربهم من كائنات الورل... »  
- أقاربهم من كائنات الورل ؟

- نعم الورل. وذلك بالرغم من تواجده الكبير في المنطقة وإمكانية تحوله إلى مصدر بروتين هام للطوارق، لكنهم لا يجروون حتى على إهانتته. وارتسمت على وجه ويير في هذه اللحظة إيماءة باردة : « يعتقدون أن الورل الصحراوي خال جدتهم الأولى ». قال وهو يقشر تفاحته بتأن : « ولذلك فهم يعاملونه معاملة تليق بفرد من العائلة ». وشعر جانلوكا ببرودة مفاجئة في عموده الفقري وهو يستحضر صورة ذلك الزاحف ذي الدم البارد وقد عبرت ذهنه صورة اللوح إفريقي غريب شاهده في متحف كاليفورنيا للفن القديم، يظهر آلهة بوجوه زواحف على غرار الآلهة السومرية.

ورمقه الآن ويير بنظرة متفحصة محاولا سبر أغواره، وفك أغلاق صمته الذي جثم فجأة على الجلسة، وهو من لم يتوقف على الهذر منذ بدء العشاء.

- وماذا عن الفاكهة ؟ سأل جانلوكا محاولا استدراك صمته المفاجئ، وهو ينظر إلى التفاحة التي كان يلتقطها مدير المشروع بعناية وأردف : « هل هناك شيء في تقاليد هؤلاء... أقصد هؤلاء... وأشار بحركة مبهمة بذقنه إلى الجانب الأيسر دون أن يفهم سببها وواصل : تمنعهم من تناول الفاكهة ؟ »

- لا. ليس تماما. نظف الألماني حلقه وتابع بهدوء عجيب : « لكنهم ليسوا معتادين على أكلها... »

- عفوا ؟ قال جانلوكا معذرا عن عدم سماعه الإجابة... أو هكذا هيء له : « لم أسمع ».

- قلت غير معتادين. كرر مارك بلا مبالاة وأردف : « ومن الأفضل ألا يعتادوا ذلك ».

نظر جانلوكا إلى مدير المشروع نظرة فارغة دون أن يفهم تماما نوع هذه الإجابة. إذ لم يكن يعرف عن الألمان تمتعهم بحس دعابة معين، ولا كونهم قادرين على إيصال أي إحساس بشري خاص من كلامهم. لكن أن تختلط عليه الأمور في استيعاب جملة مكونة من أربع كلمات فقط، كانت مسألة مربكة... هل هذه نكتة أم حقيقة من نوع ما؟؟ فكر جانلوكا بحيرة. ففي النهاية لم يكن يتصور أن هناك بشر قد لا تتحمل معدتهم هضم الفاكهة. أو أن هذا الألماني يضمربساطة شيئا يشبه الأفكار العنصرية... وقبل أن يوغل في تحليله الذي بدأت معالمه ترتسم على عضلات وجهه الآخذة بالانقباض مع كل فكرة كانت تعبر ذهنه بشأن الفوقية الجرمانية والتصنيفات النازي... و... حتى قاطعه صوت المدير :

- أنظر هناك ! وأشار بيده إلى كائن ضئيل العود ضيق الكتفين كان منهمكا في مصمصة عظام الفخذ المنتهية في طبقه، ويتلصص من حين لآخر إلى العمال الجزائريين الجالسين بعيدا عنه رامقا إياهم بنظرات عدائية : « إنه مدير الموارد البشرية الجزائري الذي قمنا بتوظيفه لدى بدء المشروع... نسيت اسمه ». قال ببرود وأخذ رشفة ماء. « لقد نصحنا بعدم تقديم اللحم والفاكهة للعمال الجزائريين ». ثم جفف فمه بالمنديل الورقي الذي كان مطويا بعناية وواصل : « كما نصحنا أيضا بعدم تجاوز سقف محدد من الأجور ». ونظر الآن بهدوء في عيني جانلوكا الذي بدا مشدوها لوهلة وتابع متجاهلا اندهاشه : « يقول أنهم هنا إذا مددت لهم يدا سحبوا الذراع بأكملها ». ووضع المنديل على الطاولة بلا مبالاة، وسكب لنفسه كأس ماء معدنية أخرى وفي هذه اللحظة، التفت جانلوكا إلى ذلك الشيء البشري الجالس وحيدا على طاولة غير بعيدة عنهم، وهو منخرط في العبّ من فوهة

قنينة نبيذ أحمر بكل ما يملك من حواس وكأنه خرج لتوه من بيت الحرمان، حيث بدا أن أصول الشرب قد اختلطت عليه في ما يفترض أنه طاولة عشاء في مكان عمل مع مستوجبات كرع الجعة في حانة سهر. بينما كان في أثناء كل هذا يحدق في صحنه الذي تكومت في داخله العظام متأملاً إياه بإجلال. ليلتفت في هذه اللحظة إلى جانلوكا كأنما انتبه إلى أن هذا الأخير كان يراقبه منذ لحظات، ورفع قننته له بابتهاج أبله :

- À votre santé, mon ami !<sup>17</sup>

قال بعته وهو يطلق ضحكة نعيقية أت برنة أشبه بالنهيق، رد عليها جانلوكا بنصف ابتسامة شاحبة وهو غير متأكد مبدئياً منذ متى أصبح صديقاً لهذا الشخص، بينما بدا وكأن مدير المشروع الألماني قد حدد من يسمح لهم ممن لا يسمح بالولوج إلى حقله البصري. وواصل موحوش التهام بقايا أفخاذ الدجاج في طبقه، وهو يبذل في الصحن الذي كان يبدو وكأنه يبحث فيه عن حل شفرة ما. حتى يهيء للناظر أن الأمر يتعلق بصحن اللولادوف النيبالي العجيب الذي يظهر في وسطه رسم حلزوني يحيل إلى الحركة الالتفافية للوعي، في محاكاة لحركة المجرة ذات الدلالات المحيلة للأبدية والسرمدية والمنبثقة عن نظرية الخلق في علم الفلك المقدس، وليس أي صحن عادي ستنتهي محتوياته أياً كانت في البالوعة.

وقد خطر على بال جانلوكا مباشرة صحن اللولادوف هذا، العائد إلى سبعة آلاف سنة قبل الميلاد وصورة الكائن الصغير المرسوم داخله، حيث ذكره بكائنات مشابهة وجدت رسوم لها في حفريات التاسيلي. لي طرح سؤاله العفوي على رئيس بعثة الأركيولوجيين

17. بصحتك يا صديقي !

في هذه المهمة والذي كان يأكل بصمت قبالته، مستحضرا تلك الرسوم المحيرة التي اكتشفت في صحراء هذا البلد المملغزة، والتي كانت تشبه على نحو مربك رسومات الفالكامونيما في محافظة بريشيا في إيطاليا. وقد كانت تظهر هي الأخرى حفريات بدائية لكائنات تبدو وكأنها ترتدي بزات فضائية غريبة عما يفترض أنه حقبة ما قبل التاريخ التي تعود لها تلك الرسوم :

- بالمناسبة هل تسنى لك زيارة التاسيلي ؟ وجه جانلوكا سؤاله على حين غرة لرئيس بعثة الخبراء الأركيولوجيين الذي كان يشاركهم الطعام بصمت منذ البداية. ليتوقف عالم الآثار الهرم عن الإتيان بأي حركة لثانية أو اثنتين. وعلق شوكتته للحظات في الهواء على بعد سنتيمتر ونصف من فمه كأنه يحاول هضم هذا السؤال الذي رزن في أذنه كطلق ناري. ثم غرز نظرة سريعة في وجه جانلوكا.

- نعم.

لفظ كلمته تلك بهدوء يشبه صمته النباتي وهو الذي كان يتناول طبقه الخالي من اللحم بحركات تكاد تكون محسوبة بالمسطرة، وكأنها حركات جراح منخرط في عملية دقيقة قد يترتب عنها حياة أحدهم أو موت محققة. وكل ذلك من دون توشيح تلك الأحرف الثلاثة التي نطق بها لتوه بأي نغمة ذاتية.

- مشير للاهتمام ؟ سأل جانلوكا بنبرة استدرجية.

- نعم.

رد مجددا بذات البرود النورديكي دون أن يغير من نبرة صوته أو درجة عمقها.

- على نحو متوقع أم أنك لاحظت شيئا آخر ؟ طرح جانلوكا سؤاله المباشر بعدما استشعر أن محدثه يتهرب من الخوض في هذا الموضوع

لسبب يعتقد أنه يعرف خلفياته، وهو من كانت رأسه تعتمل بالكثير من الأسئلة التي امتزج بها العلم مع الأسطورة. إذ لم تكن زيارة « تاسيلي ناجر » تجربة يمكن اختصارها بتوصيف فضفاض كـ « نعم... مثيرة للاهتمام » وكفى. خصوصا إذا ما تعلق الأمر بعالم آثار.

- ألم تلمس وجود شيء استثنائي ما ؟ وأعاد جانلوكا صياغة سؤاله وكأنه يصر على سحب إجابة له.

والآن تناول الأركيولوجي ذي الفك المربع المنديل الأبيض من أمامه بعد أن حط بعناية الشوكة والسكينة على حافة الصحن بزواوية 180 درجة. وربت على شفثيه أربع مرات وانبرى :

- هذه البقعة من الصحراء هي حتما بقعة مهمة جدا لأي دراسة أركيولوجية. وصمت للحظة وكأنه يود العثور على كلمات إيكزوتيكية من شأنها إشباع فضول هذا الإيطالي الثرثار على نحو غير مستغرب : « إنه مخزن كنز أثري حقيقي ». قال جملمته تلك بعمق مفتعل وواصل : « إن هذا المكان يعد أكبر المجمععات الفنية الصخرية التي تعود إلى فترة ما قبل التاريخ في العالم ». ونظف الآن حلقه لسبب غير واضح : « كما يمكننا من خلال دراسة الـ 15000 رسم ومنحوتة والتي تعود إلى عام 6000 قبل الميلاد وتستمر حتى القرون الأولى من عصرنا، متابعة التغييرات في الطقس وهجرة الثروة الحيوانية وتطور الحياة البشرية في غياهب الصحاري ».

هز جانلوكا رأسه متظاهرا بالاهتمام دون أن يتمكن من إخفاء خيبة أمله من هذا الخطاب المبتذل. فقد كان ما يسرد عليه زميله في هذه البعثة هو تماما ما يمكن إيجاده في أي مطبوعة تعريفية لمنطقة التاسيلي كان يستطيع أي سائح عادي أو مهتم بأثار ما قبل التاريخ معرفتها. بل لعله نسي أن يضيف بأن المكان يعد أكبر متحف

مفتوح للآثار في العالم على الإطلاق. أو أن يتحدث عن المنظر القمري للمكان والذي...

- بالإضافة إلى أن المنظر القمري الغريب لهذا المكان يجعله يكتسي أهمية جيولوجية كبيرة. تابع الألماني من دون أن يخيب توقعات جانلوكا في سرد كل الكليشيهات المعهودة للحديث عن هذه البقعة الغريبة من الصحراء الجزائرية. ونظر الآن إلى مدير المشروع ويبر ملتقطا مجددا شوكته وسكينته وكأنه يسجل اكتفاءه بهذا القدر من الكلام، وقاذفا بذلك الكرة في ملعب زميله.

- تماما... واستطرد في هذه اللحظة مارك مجاريا الخطة المرتجلة لهذا الحديث الحميمي البارد حد الصقيع وتابع: « كما تتشكل بانوراما التكوينات الجيولوجية في التاسيلي مصدر اهتمام استثنائي لنا بفضل "الغابات الصخرية" التي تتشكل من الصلصال الرملي المتآكل». وسحب الآن قطرات سريعة من كأس الماء الذي كان يلتقطه بيدي عازف فلوت محترف وواصل: « وكما تعلم، تعد هذه المواقع من بين الأهم الشاهدة عن العصر الحجري الحديث عندما كان المناخ هنا أكثر رطوبة، وحيث كانت الغابات تحل محل الصحاري. تلك الصور التي تصور القطعان المختلفة وحيث كانت تعيش حيوانات متوحشة متنوعة لم تعد موجودة اليوم لاسيما التماسيح و... »

- نعم... نعم. قاطع جانلوكا مدير المشروع بنفاد صبر وقرر إعادة الامسك بدفة الحديث: « رسومات لا تصور فقط الحيوانات وإنما نشاطات إنسانية كالرقص والصيد... لكن هل تم فهم العلاقة الموجودة بينها وبين فن ما قبل النغوني لجنوب القارة الإفريقية مثلا؟ » ووجه مجددا كلامه إلى الأركيولوجي المسن الذي كان يعد من بين أهم علماء الآثار في العالم في الوقت الحالي واستطرد: « هل تم اكتشاف سر الصلة

الفنية بين هذه الرسوم ورسوم الكهوف في جنوب إفريقيا التي تعود لشعب البوشمن ؟ »

- البوشمن... كرر مارك الكلمة مفتعلا الاهتمام وهو يهز رأسه بحلم. « أقدم الأعراق الإفريقية ».

- رفقة الطوارق. أضاف جانلوكا وهو يوجه نظره إلى الأركيولوجي الذي قرر في هذه اللحظة مسيرته فانبرى مؤمنا على كلامه :  
- و قبيلة الدغون أيضا في المالي.

- نعم ! الدوغون بالتحديد !! هتف جانلوكا مستبشرا بتفاعل زميله أخيرا مع موضوع الحديث. « الدوغون الذين تقول أساطيرهم بأنهم انتقلوا من مكان آخر من إفريقيا جفت مياهه بعد أن دلهم إلى ذلك آلهة كانوا يعبدونها أتت إلى الأرض عبر مركبات فضائية ضخمة ». - آلهة النومو. قال الأركيولوجي مؤكدا على معلومات جانلوكا بنبرة لا تزال تبدو وكأنها غير مبالية ليواصل جانلوكا بحماس أكبر :

- نعم نعم النومو. قال جانلوكا بابتهاج وهو يغمس عينيه الآن في حدقتي محدثه الضيقتين : « ألا يوجد برأيك علاقة بين أسطورة النومو والرسوم المنقوشة على صخور التاسيلي ؟ » وتوقف الآن قليلا وكأنه يتردد في مواصلة الكلام لكنه قرر المتابعة حتى إن بدا كلامه سخيفا : « أقصد تلك الرسوم الغريبة التي تعود إلى أكثر من مائة ألف سنة قبل الميلاد لكنها تظهر كائنات يبدو وكأنها ترتدي بزات فضائية لا تختلف كثيرا عما يرتديه رواد الفضاء في أيامنا هذه ؟ »

- فرضية معقولة. قال الأركيولوجي العجوز بجدية محاولا توخي الموضوعية لكن من دون أن تظهر على وجهه آثار انفعال ما.

- الحقيقة أنه قد يكون هناك علاقة أنثروبولوجية إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الكلمة المستخدمة في اللغة الشعبية للإشارة إلى العضو الذكري في هذه البلد مثلا هي ليست كلمة عربية وإنما لفظ لا يعرف أحد أصله هو « نَمَّ ». تدخل مارك من جديد وهو غير متأكد من طريقة لفظ تلك الكلمة، إلا أنه أردف بثقة وهو يتابع شرح نظريته : « ولكن الكلمة مشتقة من اسم الإله نومو بشكل واضح. ومن غير المستبعد أن تكون إحدى الديانات المرتبطة بعبادة القضيب والتي كانت سائدة في فترة ما هي ما أدت إلى إيعاز اسم إله معروف بالمنطقة إلى عضو تناسلي ».

- جائز. عقب الأركيولوجي من دون أن يبدي اهتماما كبيرا بالكلام كله. بينما شعر جانلوكا أن الحديث بدأ يأخذ على نحو قد يكون مقصودا منعرجا غير ذلك الذي أراده له وانبرى محاولا إعادة القبض على تلايب النقاش.

- لكن عموما رسومات التاسيلي لا تظهر أي تصوير للقضيب على نحو تقديسي مثلما نشاهده في تماثيل لحضارات قدست العضو الذكري على غرار الهند وبنغلادش والبتان...

- ولكن هذا لا يعني أن شعب هذه المنطقة بالتحديد لم يشهد على عبادة العضو الذكري. قاطع مارك جانلوكا واستطرد بجدية. « وقد تكون فترة عبادة القضيب سادت هنا ببساطة في فترة لاحقة من تاريخ هذه الرسومات وأعتقد أنك تعلم بأن جزر الكناري مثلا التي لا تقع بعيدا عن خط العرض الذي نقف عليه الآن، والتي ثبت علميا من خلال تحاليل الحمض النووي لسكانها الأصليين أنهم ينتمون لذات السلالة العرقية لشعوب شمال إفريقيا، وهناك كما يظهر من خلال مختلف التماثيل المنتشرة في متاحفهم الأركيولوجية أن معتقدات عبادة القضيب كانت هي السائدة ».

- لست أحاول إنكار هذا ! رد جانلوكا بنوع من الانزعاج : « لكنه ببساطة ليس ما أود الوصول إليه ».

وهز رأسه بحركة يائسة وهو من لم يكن يود أن يفلت الخيط الأول الموصول لهذا الحديث. كما أنه لم يفهم لماذا كان رئيس بعثة الأركيولوجيين صامتا بينما كان مارك يهذر بفرضيات ونظريات من هنا وهناك. وعاد الآن للنظر في عيني ذلك العجوز العميقتين وأعاد طرح سؤاله :

- هل من تفسير لصور تلك المخلوقات الفضائية في حضيرة التاسيلي ؟ سأل بإلحاح وكأن الأمر يتعلق بمسألة حياة أو موت بالنسبة له : « وما علاقتها بالنظريات الفلكية لشعب الدوغون ؟ »

- ما تفكر فيه لا يمكنني إنكاره ولا تأكيده يا سيد فيرو. ووجه الأركيولوجي العجوز نظرة ثاقبة لجانلوكا، وبدأ للحظة وكأنه يستعد لأن يطرح بمعول ضخم على رأسه : « لكن إن كنت تسند فرضيتك إلى القمص التي سجلها الأنثروبولوجيان وعالما الأعراق مارسيل غريول<sup>18</sup> وجيرمان دياترلان<sup>19</sup> والمتعلقة بالمعارف الدقيقة في علم الفلك التي تتهياً عليها قبيلة الدوغون البدائية. فعلى حد علمي قد تم وضعها محل شك من طرف والتر فان بيك<sup>20</sup> في مقال هام نشره عام 91 على ما أذكر ».

- لكن هذا لا ينفي الأسطورة. رد جانلوكا بصوت مصدأ.

- لكنني أتحدث من باب الدقة...

---

Marcel Griaule .18

Germaine Dieterlen .19

Walter van Beek .20

والآن انغلق وجه جانلوكا. وفهم أنه أمام أركيولوجي مؤسساتي قد يعتبر مايكل كرمو<sup>21</sup> وريتشارد ل. تومبسون<sup>22</sup> باحثين مصابين على الأرجح بلوثة. أم أنه يدعي ذلك. ونظر الآن في العينين الثابتين لذلك الأركيولوجي ذي الشفتين المزمومتين. وملاً لنفسه كأس نبيذ حتى يبيل ريقه الذي شعر أنه جف فجأة. وفي هذه اللحظة سمع ذلك الكائن الأسمر ضيق الكتفين وهو يهتف مجدداً له من بعيد وقد بدأ الآن وكأن السكره قد لعبت في رأسه :

- À votre santé mon ami !

وأبغ هتافه هذا بقهقهة مدوية أتت بمسحة عته خاصة، ليطل من واجهة فمه الطويل ثقب أسود غميق.

أشاح مارك وجهه عن ذلك الكائن اللزج دون أن يحاول التعاطي بأي شكل من الأشكال مع هذا المشهد القميء الذي صنعه ذلك الشيء الشخص البعيد منفرداً، وغاص الآن في حديث جعل مسحة شفافة تشبه السعادة تنسكب على ملامح وجهه الباردة. ودون مقدمات وجه حديثه إلى جانلوكا وبدا وكأن خِلقة ذلك المخلوق القابع على بعد خمسة أمتار من طاولته هو وثقب فمه الأسود، قد أوحى له بضرورة الخوض في عالم أرفع على نحو ما :

- لكن بعيداً عن كل هذا... هل تصدق بروفيسور فيرو بأننا على وشك تحقيق سبق علمي لا يضاهاى في الفيزياء الفلكية. قال مقاطعاً القهقهات الغبية التي بدا وكأنها تصله من على بعد خمسين سنة ضوئية من ذلك الشيء الأخرق الذي انهمك الآن في مص آخر قطرات من قنينة النبيذ : « وقد نتمكن أخيراً من حل لغز مادة لم

---

Michael Cremo .21

Richard L. Thompson .22

يشعر الفيزيائيون بإمكانية وجودها إلا قبل بضع وثمانين سنة». وتابع مخاطبا جانلوكا بشغف وظهر وكأنه لم يكن قادرا على احتواء حماسه على الرغم من أن برودة أسلوبه في الحديث في تلك اللحظة كانت تشبه درجة حرارة ميونيخ في أيام الربيع المشمسة.

- قد لن نكون مبدئيا الأوائل. رد جانلوكا بشيء من الانفعال، كما لو أنه لم يعجب بمحاولة الخروج من الموضوع الذي كان يود الخوض فيه وتحييده على هذا النحو واستطرد: « كما أننا لا نعلم بالأساس سبب تحول المشهد في هذا المكان على نحو مفاجئ من غابة غناء إلى صحراء مقفرة، وهذا أمر لم يفصل في سبب حدوثه أي من العلماء بعد وقد يكون ذلك بسبب...». وصمت مباشرة وكأنه أدرك فجأة أنه على وشك أن يذهب بعيدا في أفكاره، وقد لا يكون من المناسب التفكير بصوت عال بين علماء من هذه النوعية... وحدج بشيء من الحقد ذلك الأركيولوجي ذي الفك شبه المتحجر.

- أعلم. ابتسم مارك بدكاء: « يلزم المرء كم خارق من الغرور للدعاء بأنه أول من قام باختراع أي شيء». قال بهدوء مستحضرا بونوا مانديلبرو<sup>23</sup>.

إلا أن مدير المشروع الألماني، وكما فهم تماما جانلوكا من كلامه هذا لم يكن يجاريه في الفرضية التي كان يحاول التلميح لها، بل كان يشير إلى تاريخ إعلان عالم الفلك الهولندي يان أورت<sup>24</sup> عام 1932 عن وجود مادة مفترضة غير معروفة هي ما يؤثر على السرعة المدارية للنجوم، ليوافق طرحه هذا بعام عالم الفلك والفيزيائي السويسري فريتز

---

Benoit Mandelbrot .23

Jan Oort .24

زفيكي<sup>25</sup> والذي افترض هو الآخر أن ثمة مادة نجهلها قد تكون المسؤولة عن الحجم المفقود في المجرات أثناء دوران الكواكب على نفسها. إلا أن التأكيد على هذه الفرضية أتى في سنوات السبعينيات على نحو لا يدع أي مجال للشك من الفلكية الأمريكية فيرا روبن<sup>26</sup> والتي أثبتت بحجج علمية قوية على وجود مادة غير معروفة الكنه في الكون هي المسؤولة عن عدم انتظام دوران المجرات، وهي المشكلة التي حاول فيزيائيون وعلماء فلك كثيرون إيجاد نظرية تفسرها غير وجود افتراض المادة المظلمة كنظرية « تعديل الآليات النيوتنية » المعروفة باسم MOND. إلا أن نظرية المادة المظلمة تبقى إلى الآن الأشد قبولا بين جمهور العلماء، الذين لا يزالون يواصلون بحثهم لمعرفة طبيعة هذه المادة التي أطلقوا عليها اسم المادة المظلمة... المادة المعتمدة... أو المادة السوداء بسبب جهلهم الكامل لمكوناتها. لقد كانت فكرة الاقتراب من ملامسة هذه الحقيقة المخفية على بني البشر منذ الانفجار الأعظم تبت في نفس جانلوكا الكثير من الفخر والنشوة والحماسة تماما مثل ما تفعله مع مارك وجميع من يشارك في مهمة الهوقار هذه، وذلك منذ أن بدؤوا بتحليل ماهية الصور الملتقطة بالقمر الصناعي « نبيرو » من جنيف إلى غاية وصولهم إلى هنا، إلا أنها في ذات الوقت كانت تبت في نفس الفيزيائي الإيطالي شعورا غامضا بالتوجس والرهبة.

- على أي حال نحن لم نتأكد بعد من ماهية تلك النقاط بعد، وإن كانت صناعية أم لا. قال جانلوكا بشيء من التشاؤم محاولا لسبب ما امتصاص حماس مارك وطرده وساوس كريتياس من رأسه... « فقد يكون هناك وراءها تاريخ مبهم » وتذكر تلك الجملة الأفلاطونية بمأتمية :

Fritz Zwicky .25

Vera Rubin .26

... وهناك كانت تعيش آلهة قوية إلا أن أعمالها ضاعت بعد هلاك شعبها، وبفعل مرور الزمن.

وألقى نظرة حزينة على ذلك السكير المحلي المنهمك في الأكل، والذي لا يبدو أن شفرته الوراثة تحمل أي ذاكرة...

أما من بقي منهم فقد كانوا قوما سكنوا أعالي الجبال، يجهلون القراءة والكتابة فلم يحفظوا إلا أسماء حكامهم والنزر اليسير من أعمالهم. ليمرروا أسماء سلفهم لخلفهم بينما فضائلهم وقوانينهم لم يحفظوا منها إلا القليل عبر تقاليد غامضة.

نم... الورد... الأنوناكي... فكر جانلوكا وهو يستدعي تلك المقاطع من كريتياس، متدبرا في ما بدا وكأنه حالة نهم غير قابل للسد لدى ذلك الجزائري الذي لم يتوقف عن الأكل والأكل والأكل...

ولأنهم هم أنفسهم كانوا في شح لضروريات الحياة، وجّهوا جل اهتمامهم لسد حاجاتهم وانصرفوا عن أحداث الماضي وأهملوا ما حصل في سابق الأزمان. ذلك أن علم الأساطير أخذ في دخول المدن عندما بدأ الإنسان يشعر بترف العيش، ويحس أنه سد متطلبات الحياة لديه لكن ليس قبل هذا.

وعاد صوت مارك ليقاطع أفكاره الأسطورية السحيقة مجلجلا في أذنيه بفرضياته العلمية الهادئة عن المادة المظلمة. وحرص جانلوكا الآن على ألا تلتقي عيناه بالحدقتين الضيقتين لذلك الألماني الواثق على نحو مفزع. وتذكر للحظة فيرا روبن مكتشفة المادة المظلمة والتي قالت هي نفسها أنه لو كان الأمر بيدها لكانت ستختار تعديل قوانين نيوتن لتفسير تفاعلات الجاذبية بين الكواكب بدل التسليم بأن الكون مليء بنوع جديد من الجزيئات النووية الفرعية. أو أن يبقى عن نفسه مسلما بنظرية الثابت الكوني لأينشتاين بدل التصديق

بأن 95 بالمائة من الكون هو عبارة عن ظلمة لا يعرف أحد سرها. لقد كانت تلك فكرة تجعل جانلوكا يشعر بقشعريرة باردة كلما تدبر فيها. وأدار وجهه الآن إلى العمال الجزائريين الذين كانوا لا يزالون يحركون فكوكهم بهناء أبله، ليحط بصره على ثقب أسود يطل من زاوية فم أحدهم يفترض أنه مكان لضرس غاب عن ذلك الفم المشغول بالملضغ لسبب ما. هل سنكتشف حقا ماهية المادة السوداء مثلما اكتشفنا طبيعة الثقوب السوداء. وفكر بالثقوب السوداء المنتشرة في الكون والتي تنشأ عندما ينقضي عمر أحد النجوم متناهية الكبر وينفد وقودها، لتنفجر وتنتهي بالانهيار على نفسها. وفرك عنقه بقوة وكأنه يحاول إخراج كل تلك الأفكار المظلمة التي كان يعتمل بها صدره، وانبرى الآن بنبرة تشييعية: « علينا أن نتعاطى مع الأمر بهدوء... وألا نخفل الأخطار الممكنة... ».

- نحن يمكننا بسهولة أن نخفر لطفل خوفه من الظلمة، لكن تراجيديا الحياة الحقيقية تكمن في خوف الإنسان من النور. قال فرانك مستدعيا أفلاطون وهو يفرد بصره على بؤبؤ عيني جانلوكا، ودعاه بحركة شبه مغناطيسية للنظر إلى ذلك الجزائري السكير الذي كان مقفلا عيناه بقوة، وهو يشفط آخر ما تبقى من هواء في قنينة النبيذ. « مشروعنا يسير بهدوء، وقد قدرنا كل الأخطار فلا تقلق ». قال وهو يسكب له ولجانلوكا كأس ماء واستطرد: « المهم هو ألا يعرف هؤلاء بشيء عما نقوم به هنا ». وتابع كلامه وهو يرفع كأس الماء المعدني فيما يشبه النخب: « هم على أي حال لن يتمكنوا من الوصول إلى شيء باستخدام عقولهم. » قال بنبرة ساخرة وهو ينظر إلى المدعو موحوش مدير الموارد البشرية الذي كان غارقا في سكرته اللذيذة، ورفع كأسه بثقة.

- نخب العقل !

- نخب الإنسان الأعلى ! قال جانلوكا مستحضرا نيتشه بتواطؤ، وهو الذي فهم أن مدير المشروع يعتقد جميع نظريات فيلسوف ألمانيا الأعتى...

- À vo...

ليعود صوت رئيس الموارد البشرية الجزائري والمدعو موحوش يلعلع بقهقهاته من بعيد، وتنفلت من فم مارك في هذه اللحظة ابتسامة رضية :

- ثمة فعلا مخدّرين عظيمين اثنين...

- الكحول والدين.

أكمل جانلوكا بتصرف مقولة نيتشه الشهيرة، وهو يتأمل بفضول ذلك الألماني الذي كان يراه يبتسم لأول مرة ابتسامة بانة عنها أسنانه البيضاء المرتبة، لكنها ذكرته على نحو جنائزي بوجه هينريك فورتسنبورغ.

هل علي فعلا أن أثق بهم ؟

ونظر على نحو غريزي إلى الجانب الآخر من القاعة.

- 16 -

بين طراوة وانسيابية المايسترو فيردي وعنفوان وجبروت العبقري فاغنر. لم يكن له أن يتردد في اختيار الموسيقى الأنسب لمزاجه في ذلك اليوم، ولكل يوم : فاغنر دون تفكير. ابتسم هينريك وهو الذي لم يفكر يوما في المفاضلة بين فيردي وفاغنر كما كان شائعا بين محبي

الأوبرا منذ قرنين إلى يومنا هذا، فالمسألة بالنسبة له كانت محسومة، ولا مجال فيها للكثير من الهذر والثرثرة. فاغز دون أدنى شك.

أخذ نفسا عميقا وهو يستعد لولوج ما كان يطلق عليه لحظة فاغز في مثل هذه الساعة من كل يوم. تنفس ببطء ونظر إلى الأسطوانة وكأنه يتأمل ذخيرة قديس قادم من عالم آخر... بعمقه... غرابته... جبروته... سوداويته... لم تكن موسيقى فاغز تنتمي لعالم البشر بل كانت أصوات سماوية لا محالة سجلها فاغز في لحظات وحي استثنائية. وأغمض على هذه الفكرة عينيه وتداعت إلى ذهنه صور الآلهة القادمة من حضارات الشرق المنقوشة على جدران المعابد البابلية، والوجوه الأسطورية في الملاحم الإغريقية، والأروع منها جميعها في نظره تلك النوردية التي لم يحسن أحد أكثر من فاغز نقل أصواتها. وارتفع صدر فورتسنبورغ وهو يستعيد شريط يومه الذي كان يقترب فيه كل لحظة من ملامسة مجد إلهي لم يكن لأحد أن يتخيل طعمه وهو من سعى إليه منذ سنوات، وها هو يضع اللمسات الأخيرة على المشروع الأهم في مسيرته والذي كان يمكن أن يحوله من الرئيس التنفيذي لأهم شركات الطاقة في العالم إلى رب الطاقة الفعلي في هذا الكوكب المظلم حد العمى عن رؤية تلك الإشارات الإلهية القادمة من عمق صحراء منسية قدّر له أن يكون أول من يفض أسرارها.

وسرعان ما شرّع هينريك عيناه على نحو لا يليق سوى بافتتاحية شفق الآلهة<sup>27</sup> وقد اصطدم ذهنه فجأة بصوت جانلوكا فيرو وهو يتسرب رويدا رويدا خلال ذلك الاجتماع إلى مسامعه، ل يبدو في البداية كخبر جدول عذب في إحدى غابات الألب، ويتحول شيئا فشيئا إلى ما يشبه قطرات صنوبر فاسد لا يصلح سوى للتعذيب في زرنانات

---

Götterdämmerung .27

لا تكفل احترام حقوق الإنسان، ليندفع على نحو مفاجئ ويغرق كالطوفان كل ما كان حوله من أفكار... هز رأسه بعنف وكأنه يحاول إعادة الأمور إلى نصابها في رأسه وتعديل مزاجه في إيماءة واحدة منه، لكنه لم يتمكن من مقاومة شعور الاختناق الذي كبس على صدره. انقفلت أساريره، لكن ليس لدرجة تغضن وجهه الذي لم يكن سطحه يظهر سوى صمت الآلهة. وعاد للنظر إلى الأسطوانة التي كان يستعد فيها منذ دقائق للخوض في العوالم الإلهية لداس رينغولد<sup>28</sup>. لكن لسبب ما فتح الدرج الأخير من خزانة الموسيقى في مكتبه، وسحب على نحو غير متوقع نابوكو<sup>29</sup> من مجموعة السبع والعشرين. كان لا بد له اليوم من فهم تاريخ الخيانة بنغمة إيطالية. وأعاد بيد أخرى رائحة فاغز لمحلها بحركة صغيرة جليلة. كان الشيء الوحيد المتأكد منه هو أن جانلوكا لن يتوانى على خيانتته. وركز على أسنانه بحركة غير مرئية. وقد تكون تلك على أي حال خصلة إيطالية. فكر فورتنسبورغ دون تأنيب ضمير. فقد كان من الواضح لهينريك أن جانلوكا فيرو مستعد للتحويل إلى « بارتيجانو » في أي لحظة ويعلم الانقلاب على تحالفهما، لبدأ الحرب عليه في أي لحظة تماما كما فعل أجداده في الحرب العالمية الثانية. ونظر الآن إلى هاتفه وكأنه ينتظر خبرا ما.

## - 17 -

- « الإتفاقيات » واضحة في هذا الصدد.

قال برنة حيادية وهو يسحب سيجاره من الحافظة الجلدية زيتية اللون، والتي كان يحرص على حملها في جيبه باستمرار للمحافظة

Das Rheingold .28

Nabucco .29

على جفاف التبغ من الرطوبة العالية التي تميز جو العاصمة الجزائرية،  
والتي انتقاها بعناية لتسع سيجارين من عيار 48 للحلقة.

- لكن الأمر لن يكون سهلاً... وربما يجب أن نفكر في سبيل آخر  
لفض المسألة.

قص طرف السيجار بعناية وبدا وكأنه يفكر بروية في ما سمعه  
لتوه. دس طرف اللفافة الفاخرة في فمه بعد أن أزال علامتها التجارية  
بعناية واستطرد :

- هناك اتفاقيات يتجاوز عمرها الخمسين سنة هي ما يحدد  
ما يجب فعله وما لا يجب. قال وهو يرفع يده في حركة اعتيادية لصد  
محاولة إهدائه شعلة وقد ظهر على وجهه طيف استياء، ذلك أنه  
لم يكن ليقبل وهو مدخن السيجار المخضرم، أن يدع أحدا يولع له  
لفافته... فالأمر لم يكن يتعلق بسيجارة تافهة. لقد كان ذلك الري ديل  
مونودو. وأخرج الآن ولاعته الفضية الكبيرة. إذ لم تكن أي شعلة تناسب  
هذه اللفافة الكوبية حتى تشتعل على نحو متناسق.

- لكن « تيقنتورين » أخلطت كافة أوراقنا... ويصعب الآن الإقدام  
على...

- في هذا المكتب كلمة صعب لا أحب أن أسمعها !

قاطع بطيف شراسة، وهو يتناول مجددا الملف الذي وُضع أمامه  
قبل قليل بعين متفحصة. وسحب أول نفس من سيجاره بتؤدة شديدة.  
مرر نظرة سريعة على آخر التقارير الواردة من قلب مشروع الهوقار  
دون أن يرشح وجهه عن أي انفعال... ظاهر. لكن من يعرفه جيدا كان  
ليفهم أنه وفي هذه اللحظة يستعد لأخذ قرار اعتمل في ذهنه منذ فترة  
وقد يشكل منعطفا كبيرا على الأرض.  
- علينا أن نمر إلى المرحلة الثانية.

طالع رئيس الفيوتشر إينيرجي كوربوريشن بشيء من الاهتمام صور  
المعبد العتيق المنشورة على ذلك الموقع، وعاد لقراءة عنوان المقال :

- « فيما نا ». تتمم وهو يداري شيئاً يشبه الضحكة. هذا هو اسمها  
بالسنسكريتية !

وتذكر في هذه اللحظة زيارته الأولى للمعبد الأعلى على الأرض  
والذي يعود بناؤه للقرن الثامن للميلاد بالرغم من أن أصوله المملغزة  
تعود إلى خمسة آلاف سنة.

فكر هينريك وهو يتابع آخر أخبار معبد بادمانا هابساومي  
الهندوسي الواقع أقصى جنوب الهند، والذي تتجاوز قيمة محتوياته  
الـ 22 مليار دولار والمخصص للإلهة فيشنو، حيث كان يحوي ست  
غرف غامضة، طالما أثارت الكثير من الجدل من حولها وغذت فضول  
الباحثين عن الأسرار القديمة لاسيما الغرفة ب، التي جربت السلطات  
الهندية فتحها عام 1931 دون جدوى. وقبلها عام 1908 حيث  
أرسلت السلطات في فتحها بعد أن انحسرت مواردها المالية عليها تجد  
في هذه الغرفة على غرار بقية الغرف ما قد يملأ خزائنها. إلا أن العثور  
على أفراد الفريق الذي أنيطت بهم مهمة فتح القبو هالكين وقد التفت  
على أعناقهم ثعابين الكوبرا جعلت فكرة الاقتراب مجدداً من المكان  
ضرب مغامرة. خصوصاً أن هذه الغرفة وبحسب العرف الهندوسي  
محروسة من الإله أوغرا ناراسيما. ليتم إعلانها من طرف كهنة  
أشتمانغالا برسنام منطقة محرمة عام 2011. لكن وفي عام 2012 صدر

قرار بفتح الغرفة ب التي طالما بقيت محكمة الإغلاق تحرسها أكثر التعاويذ الهندوسية شراسة، وذلك بأمر من المحكمة العليا في مقاطعة كيرالا وتحت أعين فريق حكومي هندي مشفوع بحماية عسكرية وكذا صحفي تمساوي مختص في التاريخ القديم اسمه رينهارت. س. مولر<sup>30</sup>. ضيق فريديرك عينيه وهو يقرأ اسم الصحفي من ذلك المقال المنشور على الشبكة، وارتسمت ابتسامة غريبة على شفتيه.

« لسنا راضين على موافقة عشائر كيرالا على فتح غرف المعبد لا سيما الغرفة ب ». صرح شيتال رامانديب، الناطق باسم العائلة الملكية لتريفاندروم. « الكهنة لا ينصحون بالاقتراب بالأساس من هذه الغرفة، لأن هذا من شأنه أن يثير سخط الإله فيشنو ».

وأما الغرف التي وسمت بـ أ، ج، د، و هـ فقد وجد فيها كنوزا من المجوهرات والأحجار الكريمة والتماثيل الذهبية لا تقدر قيمتها المادية والتاريخية بثمن وبقيت الغرفة ب للنهائية. وضم الآن هينريك يديه إلى صدره وهو يتابع القراءة بتأن.

عندما تم الاقتراب من مدخل الغرفة ب والتي كانت مغلقة برتاج ثقيل وقفل محكم، كان لا بد من إلقاء تعاويذ من المانترا بحسب المعتقد الهندوسي، إلا أن رجال الدين وكذا أفراد العائلة المالكة التي رافقت الوفد الحكومي ادّعوا جهلهم بها. ليضطر الجنود المرافقين لفتح البوابة بالقوة. إلا أن ما تم إيجاده في الداخل جعل السلطات تدعو إلى إخلاء المكان على الفور.

وتناول فريديرك كأس ماء من على مكتبه عب منه عبتين طويلتين، دون أن يشف وجهه عن أي تعبير واضح. وعاد لقراءة اسم ذلك الصحفي رينهارت مولر الذي روى ما رآه داخل ذلك القبو :

---

Reinhardt S. Mueller .30

لقد كان هناك شيء أشبه بكبسولة طويلة، ناعمة جدا، ذات لون رصاصي، ولا يظهر منها أي فتحة من أي جانب. وإلى جانب الكبسولة كانت هناك سبع موميאות ممددة لم يظهر عليها آثار موت عنيف، وكانت مدثرة بثياب سميكة يشبه ملمسها ملمس الحرير ولم تظهر رثة أو بالية بأي شكل.

لكن ما أثار قلق السلطات هو الطنين الذي كان يصدره على نحو خافت للغاية ذلك الجسم المعدني الغريب. والذي أخفقت محاولة الاطلاع على ما كان يحويه بشكل كلي. حيث فشلت كاميرا ألياف بصرية من تصوير الجسم من الداخل. كما باءت محاولة صنع ثقب من أي من جوانبه بالفشل، ليتم التأكد من أن ذلك الجسم لم يكن قابلا للاختراق. أما ما زاد من قلق الفريق الأمني المرافق للوفد هو أن ذلك الجسم لم يكن ذا خصائص مغناطيسية إلا أن ملمسه كان حارا. - « فيمانا » ! وابتسم مجددا هينريك ابتسامة كادت تظهر أسنانه، وتمتم : « يقصدون الفيمانا ».

وقد كانت اللفظة السنسكريتية فيمانا تعني حرفيا « العابرة » وهي تعني بلغة التيلوغو الهندية المعاصرة ببساطة « طائرة »، أما باللغات القديمة فقد عرفها أستاذ اللغة السنسكريتية الشهير في جامعة أكسفورد البريطاني مونيي مونيي ويليامز<sup>31</sup> بـ «عربة الآلهة » وهي عربة جوية خرافية تشبه العرش تحمل أصحابها في رحلات سماوية. وفي قول آخر هي أشبه بقصر طائر من سبع طوابق. وتنهذ هينريك بعمق بعد أن أسند رأسه ببطء على متكئ مقعده وغمغم :

البوشباكا فيمانا الشبيهة بالشمس أتى بها رافانا القوي لشقيقي  
لترحل فيمانا الرائعة حيثما شاءت في السماء

ولما استقل الملك راما العربية المذهلة

خلق تحت قيادة راغيرا في أعلى طبقات الجو

وبش وجه هينريك بإشراق، كمن كان يهنئ نفسه على ذاكرته التي كانت تحتزن مقاطع كاملة من الملاحم الأسطورية القديمة حيث كان وصف الفيمانا في الملحمة الهندية الشهيرة رامايانا، أحد ما كان يحتفظ به فيه ذاكرته الفولاذية. حيث كان هذا أول ما ورد في نصوص الأساطير الهندية في تعريف الفيمانا التي صنعها فيشواكارما في بادئ الأمر لإله الخلق ابراهما، وأهداها هذا الأخير بدوره لكوبيرا إله الثراء ليسرقها منه في وقت لاحق أخوه غير الشقيق رافانا.

هز فريديرك رأسه في حركة مبهمة وهو يستذكر هذه التفاصيل الأسطورية من قصص الخلق القديمة التي حاولت الخوض في أسرار الكون، وعاد ليسند ظهره إلى مقعده الوثير وبدا وكأنه يخضع لجلسة تدليك رولفينغ في مرحلتها التاسعة. وتابع قراءة ذلك المقال بخصوص معبد بادماناهاباساومي والغرفة ب الشهيرة :

« والأغرب من كل هذا وذاك » واصل مولر : « هو أن الغرفة لم تحو أية كنوز البتة، كما أن جدرانها لم تحمل أي رسوم أو تعويذات أو أي شكل من الكتابات، عدا عن وجود تلك الكبسولة الضخمة التي تجاوز طولها الثلاثين مترا وعرضها العشرة أمتار وارتفاعها الثمانية أمتار. » وتابع س. مولر مؤكدا أن ما ظهر من بقايا تلك الموميאות البشرية السبعة : شعر أشقر، وبشرة بيضاء، وهو ما أثار دهشة مولر الذي أكد باستغراب بالغ للصحفيين عقب انتهاء مدهمة الغرفة : « خلال جميع رحلتي المخصصة لربورتاجات عن الاكتشافات التاريخية طيلة كل السنوات الماضية لم أر يوما بقايا موميאות بيضاء البشرة » ليضيف أن بقايا الموميאות حفظت بشكل جيد على نحو لافت للانتباه.

البيض الطوال؟؟ غمغم هينريك وهو يكرع من الماء مواصلا القراءة.  
وفي حين لم تبت السلطات الهندية في ماهية الكبسولة التي وجدت  
داخل الغرفة ب سارع مولر للتأكيد بأن تلك الكبسولة لا تبدو  
من صنع بشري بأي حال من الأحوال، مذكرا أن الفن الهندي القديم  
زاخر برسوم لأجسام طائرة.

والواقع أن سجلات الفن على مدى تاريخها الطويل، كما كان يعلم  
فورتسنبورغ جيدا، حافلة بشواهد عن علاقة الإنسان بمخلوقات غريبة  
آتية من الفضاء، سجلت على الألواح والأحجار الأثرية والنقوش البدائية  
التي وجدت في أماكن مختلفة من العالم على اختلاف ثقافتها. لا سيما  
بلاد ما بين النهرين والتي وجدت فيها مجسمات لآلهة سومرية تعود  
إلى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، تصور أغلب الآلهة برؤوس زواحف  
لا رؤوس بشرية. واستحضر هينريك إلى ذهنه تمثال إله الأنونكي الذي  
يملكه، وأقفل فمه عن ابتسامة نشوة مشوبة بغصة. إذ تمنى لو أنه  
تمكن أيضا من ضم مجسم كيبف الغريب لمجموعته، وهو الذي يصور  
كائنا شبه بشري يرتدي بزة حديدية كاملة وخوذة تتخطى بعصيرتها  
ما يمكن أن نتوقعه من صنم قدر تاريخ صنعه في سنة 4000 قبل الميلاد.  
وتأسف هينريك بشكل خاص لفشل آخر مفاوضات له بشأن  
صفقات عدة أخرى كان يسعى من خلالها لشراء تماثيل عتيقة أيضا  
من الإكوادور تظهر ببزات فضائية، وذلك من خلال الشبكة المظلمة  
التي اقتنى عن طريقها في وقت سابق عددا لا بأس به من التماثيل  
الأثرية من كافة أنحاء العالم، لاسيما تلك التي أثارت جدلا بين  
الأركيولوجيين من حيث طبيعة الشخصيات التي تمثلها والتي كانت  
تبدو على نحو مفزع وكأنها قادمة من المستقبل بدل من أن تكون  
مستلة من جوف الماضي.

إلا أن صفقات الشبكة المظلمة لم تكن تنتهي دوما كما هو متوقع منها بالنظر للجدية المفترطة التي كان كل طرف يأخذ فيها العملية، والتي كانت تتم غالبا تحت غطاء برنامج « تور » لتشفير المعلومات الرقمية.

- تور العزيز. وغمغم هينريك بامتان، وكأنه يشكر برنامج التخفي الرقمي ذاك الذي شق له طريقا في الشبكة المظلمة والتي لا يعلم أغلب مستخدمي الشبكة العنكبوتية حول العالم بوجودها، على الرغم من أن كمية المعلومات التي يحتويها أكبر بـ 400 إلى 550 مرة من المعلومات الموجودة في الشبكة العادية، أما قيمتها وجودتها فهي أفضل بنسبة ألف إلى ألفين قياسا إلى شبكة الانترنت المفتوحة للجميع. وابتسم فورتسنبورغ لفكرة المعلومات المتاحة حصرا في العتمة من خلال هذا البرنامج الذي يتيح زيارة مجموعة من المواقع غير المتوفرة للجميع لدى تصفح الشبكة العادية، حيث أنه يخفي عناوين الأيبي للسيفيرات الخاصة بها فتصبح غير قابلة للكشف على محركات البحث العادية. ولذلك يكون من الصعب جدا معرفة هوية أصحاب هذه المواقع والمتعاملين معهم، والذين يمارسون في مجملهم نشاطات خارجة عن القانون من الاتجار بالسلاح مرورا ببيع مواد إباحية خاصة بالقصر، إلى تبادل خبرات على منتديات علمية يقوم الأطباء فيها بتجاربههم على متشردين يخضعونهم لاختبارات غير إنسانية. وقد كان من الواضح بحسب هينريك أن بطل صفقة تماثيل الإكوادور ذاك لم يكن سوى تاجر مخدرات أخرج لا يختلف عن ذلك البرميل الجزائري الأبله الذي كان مصرا على عدم تذكر اسمه. إذ لم تكن تماثيله المعروضة للبيع على إحدى منتديات المتاجرة بالآثار ذات قيمة واضحة بالنظر لعدم تحديد مكان العثور عليها، بالرغم من أن عمرها التقديري لم يكن يقل عن خمسة آلاف سنة، غير أن

اقتلاعها من جذورها على الأرجح من طرف عصابة مخدرات في جنوب أمريكا دون الحرص على تدوين مخطط سير من عثر عليها، وعرضها للبيع دون هوية محددة على الشبكة المظلمة جعلها تفقد الكثير من قيمتها، لتغدو على نحو ما أشبه بورقة مقطوعة من شجرة.

- منحرفون جهلة ! تذكر هينريك ذلك بامتعاض شديد، وقد عاد إلى باله المدعو نزييم خنخان، لكنه فكر لحسن الحظ أن ذلك النكرة لم يكن يستطيع مسح تاريخ بقعة صحراوية نادرة، باع بنهم اسفنجية وغباء برميل جوفها لشركته ببضع ملايين من الدولارات... الغبي. وغمغم بقرف خالطه زهو خفي مستحضرا لعقله تلك الصفحات من كريتياس، وتمتم بكليية :

- على الأرجح أن ذلك العاهة أُمي لا يحسن قراءة التاريخ لما هو أبعد من 50 سنة ! وأطلق الآن ضحكة صاخبة. فما بالك بالغوص في تلافيف كتاب مثل كريتياس.

وفكر بابتهاج خاص ثم عاد لقراءة ذلك المقال المنشور على الشبكة، إلا أنه في هذه اللحظة لم يتمالك نفسه وفلتت من فمه ضحكات مجلجلة، حاول جاهدا كتمها ليأتي نغمها أقرب إلى تنهيدات متقطعة منه إلى القهقهة، لم يتمكن في النهاية من احتوائها.

ودعا في هذه اللحظة مساعده الذي دخل المكتب محملا بملف ثقيل للجلوس على الجهة اليسرى كما يفضل من مكتبه المصنوع من خشب الماهوغياني والمصمم لشركته خصيصا من « إري. آ موبيلي »، ثم انبرى بعفوية :

- كنت أقرأ مقالا بعنوان « صحفي مُساوي يؤكد العثور على فيمانا قديمة في الهند ». قال وهو يبتلع قهقهة كانت على وشك الإفلات من شفتيه.

- على الشبكة المظلمة ؟ سأل المساعد على نحو تلقائي وقد اكتست ملامحه تعابير الجدية.

- بل على الشبكة العادية ! رد هينريك برود مفاجئ دون أن يخفي امتعاضه من السؤال، وذلك بالرغم من أنه أصبح مستخدما وفيما لذلك الجانب المظلم من الانترنت بفضل مساعده الذي تكفل لأول مرة بأمر ولوجه للشبكة المظلمة اليابانية منذ بضع سنوات لعقد إحدى صفقاته الغريبة. إلا أن هينريك كان يفضل التصديق بأن لا أحد يعلم بأمر نشاطاته في ذلك الجانب الخفي من الانترنت أو الحديث عنه بهذه الخفة.

لاحظ مساعد هينريك انزعاج رئيسه من سؤاله العفوي الذي فلت من لسانه دون تركيز، وحاول العودة إلى أسلوبه الجليدي في الحديث. إلا أن ما كان قد خبره شخصيا عن ذلك العالم المظلم كان من شأنه جعل أبرد القلوب وأشدّها التزاما بروتوكولات السطح تحترق فضولا لمعرفة ما تخبّؤه تلك الفوهة الرقمية المجهولة. خصوصا أنه كان يعلم أن هينريك لا يزال نشطا على منتديات الشبكة المظلمة الخاصة بالمتاجرة بالآثار وكان يتابع جديدها في جميع أنحاء العالم.

وعلى الرغم من أن الويب المظلم كان شبه مقسم إلى تخصصات جغرافية، حيث أن رواد هذه الشبكة في الأمريكيتين ينشطون في المتاجرة بالمخدرات بالدرجة الأولى، وفي روسيا بتبييض الأموال، أما في اليابان بالبورنوграфия البيدوفيلية. إلا أن هينريك فورتسنبورغ كان قد فرض وجوده في مختلف المنتديات المعنية بالمتاجرة غير الشرعية بالآثار في كافة أنحاء العالم حتى في البلدان التي يعتمد منحرفوها الأساليب الأشدّ تحصينا من أجل حصر روادهم في نطاق محدد ليسهل التحكم في تدفق المعلومات بينهم. وهو حال الشبكة المظلمة في بلد الشمس الساطعة التي كانت تفرض على أي شخص

يرغب في زيارة منتدياتها اجتياز امتحان في اللغة اليابانية. وقد تمكن الرئيس التنفيذي للفيوتشر إينيرجي كوربوريشن من ولوج إحدى هذه المنتديات المظلمة والمملوفة بملاءة ثقافية غير قابلة للاختراق، بعدما طلب من مساعده الأمين توظيف مترجم ياباني محلف يتكفل بمهمة التنقيب عن أجزاء من منحوتة عتيقة كان هينريك يسعى لضمها إلى مقتنياته الخاصة. وقد وجد المترجم فعلا طلب فورتسنبورغ معروضا على أحد المنتديات لقطعة مختفية من نحت نافر عُثر عليه في جزيرة جوتو ببحيرة توينغ تينغ عام 57 بعد عامين من ضرب زلزال عنيف للمنطقة. حيث عثرت البعثة التي قادها البروفيسور تسي بين لاي على قطع منحوتة تعود لأزمان سحيقة نقشت عليها صور أشخاص يرتدون ألبسة لرواد فضاء، وكانت خوذهم ملتصقة ببزات منفوخة. بالإضافة إلى رسم غريب يظهر ما بدا وكأنه المجموعة الشمسية. وقد كان الكوكب الثالث والرابع فيها مقرونين بخط واحد في إشارة إلى علاقة ما بين الكوكبين. عدا عن أن هذه المجموعة كانت تحتوي على عشر كواكب دون احتساب الشمس، الأمر الذي جعل الكثيرين يفكرون في كون هذا الكوكب العاشر قد يكون كوكب نيبورو، أو ما يعرف بالكوكب إكس المحاط بالكثير من الغموض، وموطن سلالة الأنوناكي بحسب الكتابات المسماوية القديمة.

- آه ! وأطلق هينريك زفرة صاخبة.

فبحسب المترجم الياباني، كان المنتدى يعرض فعلا منحوتة بقي الاعتقاد السائد أنها تهشمت خلال زلزال 1955.

وظهر على فم هينريك الآن زمة عابرة لكنها وشت بكزة داخلية قوية على الأسنان في حركة انفعالية لم تكن تصدر عنه إلا لماما، وهو المعروف بضبط حركاته على نحو كان يجعله أشبه بصنم مهيب

في أغلب الأوقات. بدءا من الالتزام بتجليس دائم للظهر باستقامة 180 درجة قد ينحرف بدرجتين أو ثلاث عنها في زاوية حادة فقط في حال استئثار اهتمامه موضوع ما، وقد يظهر ذلك أيضا من خلال ضم خفيف للكفتين لم يكن لينتبه له أحد سوى الضالعين في قراءة لغة جسده، نهاية بضبط رفة عينه التي كانت تطرف 24 مرة في الدقيقة، وفي حال ارتفاع نسبة الأدرنالين في جسمه، وذلك ما كان يحصل لدى وقوعه على تحفة أثرية جديدة، كان ينخفض العدد إلى 23 أو حتى 22 رفة. أما الزمة الخفيفة للفم فكانت تأتي لدى مروره بشبه نوبة غضب واحتراق شديد للأعصاب.

- المنحرف ! تتمم هينريك بصوت غير مسموع كان بالنسبة له أشبه بانفجار قبلة.

فبسبب ذلك المترجم تم إجهاض الصفقة، وهو الذي ارتكب خطأ الاتصال بالموقع من « أي بي » مختلف لعله كان حاسوبه الخاص، وقد أغوته على الأرجح المواد المحرمة على الشبكة المظلمة. ليكتشف مباشرة القائمون على المنتدى أنهم يستضيفون شخصا أجنبيا مربيا يرتدي قناعا يابانيا أو شخصا يابانيا مربيا يرتدي قناعا أجنبيا. وفي جميع الأحوال لم تكن الظلمة السابحة في الظلمة تغفر للوجوه الرمادية خطيئة استعارة طيف آخر غير السواد في مثل هذه الأعماق. فتم حضر هينريك من الشبكة المظلمة اليابانية، وهو حاسوبه الأسود بفيروسات ضربت قاعدة بياناته، لتسقط بذلك صفقة النحت النافر لكوكب نيبورو في الماء.

أحمق... أحمق ! لعن هينريك في سره بحق ذلك المترجم الشاذ وطففت على شفتاه المزمومتان انقباضة عابرة.

التقط فرانك لحظة انزعاج رئيسه القوية وبادره متسائلا بشيء من القلق.

- وهل الأمر جدي ؟

حدج هينريك مساعده في شبه استفاقة مفاجئة أتت بعد غفوة طارئة، وكأن صوته قد أعاده إلى مكان أكثر متعة من هذا الخاطر المغم الذي عبر ذهنه، وأطلق تنهيدة خفيفة.

- لا... الموقع هزلي ! قال هينريك بنبرة تطمينية. هزلي بحت ! أردف مبتسما ليفلت الآن من حلقة ضحكات مكتومة لكنها صادقة، وتابع : « المقال يندرج ضمن المقالات الساخرة من المؤمنين بوجود حياة على كواكب أخرى ». قال وهو يلقي نظرة سريعة على تلك الملاحظة التي تم تذييل المقال بها بأحرف صغيرة :

« تمت كتابة المقال أعلاه لأغراض ترفيهية بحتة، وكل الصور المرفقة به وأسماء الأشخاص الواردة بداخله مزيفة ولا تعكس أفعالا أو تصريحات أو وقائع حقيقية ».

وأطلق في هذه اللحظة قهقهة صغيرة تذبذب لها بدنه مضبوط العقارب. فقد كان الأسلوب الساخر في نقل معلومات من هذه النوع يجعله مميعا ممتازا لهكذا مواد. فكر وهو يعود لجديته.

- وما الذي ورد ذكره تماما في المقال ؟ سأل مساعد هينريك بشيء من الارتياح.

- أنه قد تم مؤخرا فتح الغرفة ب في معبد بادماناهايساومي الهندوسي بالرغم من اعتراض الأسرة المالكة في المدينة على ذلك... - يقصدون الغرفة التي فتحت بالأصل في الثلاثينات والذي لم يخبر لحد الآن مالكو المعبد أحدا بما وجدوه داخلها ؟

- تماما. لكن المقال يذكر على لسان صحفي ومؤرخ مزعوم أنه قد وجد فيها شيئا يشبه الطائر في إشارة إلى الفيمانا. قال هينريك كالحالم وهو يضم كفيه بقبضة واحدة أراحها بكل دعة على صدره ليعود بذلك لشكله الصنمي المألوف. ثم أغمض عينيه بتؤدة، ولم يجد نفسه إلا وهو يستذكر الترنيمة المائة والثلاثة والعشرين من الكتاب السادس للرامايانا العائدة للقرن الخامس قبل الميلاد :

العربة السحرية :

هذه العربة الجليلة ليست عربتي

هذا ما قاله بوشباك (...) وإنما هي من صنع أياد ربانية

....

فلتحتفظ بهذه العربة بكل عناية

فهي من سيخلق بك في السماء

لتضئ الأرض دونما عناء

ومدينة أيوديا الملكية بكل بهاء

ومن الكتاب السادس، الترنيمة مائة وأربع وعشرين :

الإنطلاق

ها هي تمخر عباب السماء بمشيئة راما

تنهض العربة الجليلة من على الأرض

تنطلق بأجنحتها الفضية

محملة إلى الغيوم بلفيف من الملوك

وتذكر هينريك تفسير إيريك فون دينيكن<sup>32</sup> لهذه المقاطع الغربية الواردة في جميع النصوص القديمة للحضارات الشرقية والتي تصف

Erich von Däniken .32

عربات فضائية، بل وحتى رسومات الأطباق الطائرة التي يزخر بها فن العصور الوسطى في أوروبا، وهو أن هذه المركبات لم تكن سوى عربات أتى بها الفضائيون لزيارة الأرض في سالف الأزمنة وجلبوا معهم معارف حضاراتهم المتقدمة.

وأجفل فورتسنبورغ على هذه الفكرة وقد أطبق جفنيه مستذكرا لوحة دومينيكو غيرلاندايو من متحف بالاتزو فيكيو في فلورنسا، وتدبر في تداعيات مثل هذه الرحلات، وإلا فكيف أمكن للإنسان أن يصل لما وصل إليه من تطور تكنولوجي في تلك الأزمنة، وتحقيق قفزة نوعية من العيش كوحش داخل الكهوف مثله مثل أي حيوان مفترس، إلى تشييد المباني والمعالم الضخمة. وتداعت على شفثيه دندنة تشبه الصلاة، لم تكن إلا مقطع من الملحمة الهندية ماهاباراتا :

حَلَّقْ بهيما على متن الفيمانا مخلفا وراءه شعاعا عظيما

يشبه نور الشمس

وصوتا أشبه بهزيم الرعد

- وإذن ما الذي كان ليكون برأيك هذا يا فرانك ؟ وشرع هينريك عينيه فجأة، ليظهر معه لمعان غير مألوف في حزقته الكامدتين بث على سؤاله إحساسا مدويا.

ولسبب ما شعر مساعد هينريك برعشة غريبة دبت ككهرباء ساكنة في يده. نظر على نحو لإرادي إلى التقرير اليومي الذي كان يحمله من الهوقار. وتسلسل ثقل غريب من نفسه إلى باطن كفه، ثم شعر لوهلة وكأن جملته العصبية على وشك الانهيار، وقد بدأت ذراعه بالارتخاء على نحو غير مفهوم.

لم تكن تلك التقارير القادمة من الهوقار تشعره بالاطمئنان على عكس هينريك الذي لم يكن يبدو وكأنه يخشى الخوض في مدارات مجهولة.

- لكن هل عندك علم بأخر ما صرح به ستيفن هوكينغ للغارديان ؟  
وعاد ذلك العنوان الشهير المنشور في الغارديان على صفحة العلوم  
والتكنولوجيا عام 2010 ليتراءى واضحا أمام عينيه في هذه اللحظة :

« ستيفن هوكينغ يحذر من البحث عن الكائنات الفضائية »

- من الواضح أنك لم تحسم موقفك من « مفارقة فيرمي »  
يا فرانك ! رد هينريك بصقيعية فطرية وهو يدس نظره في اليد  
المرتعشة الممدودة له، على مضض وتابع بحزم مقصود: « أما أنا  
فلا ! » لتتوالى احتمالات مفارقة عالم الفيزياء إنريكو فيرمي<sup>33</sup> الشهيرة  
على نحو آلى في عقله :

هم موجودون لكنهم لا يتواصلون معنا

هم موجودون ويتواصلون معنا لكننا لا يمكننا سماعهم

هم موجودون وكانوا هنا لكننا لم نكن موجودين

هم موجودون ولكن معظم الناس لا يعرفون بذلك حتى الآن... اختفوا.

- لقد كانوا هنا ولم نكن موجودين وانتهى الأمر. جزم هينريك

بنبرة حاسمة.

- وماذا عن كونهم اختفوا ؟ ... ماذا عن قل السوف...

ماذا عن سكان صحراء المكسيك الصامتة... ماذا... ؟

لينتبه فرانك الآن أنه داس منطقة تكاد تكون محرمة في التعامل

مع هينريك، الذي غرس فيه نظرة طويلة نافذة، بدا وكأن ملامح وجهه

الجليدي قد أخذت في الانصهار معها بشكل ما.

لقد كانت هذه هي المرة الثانية في ذلك اليوم الذي يسحب فيها

فرانك عنصرا يفترض أنه مخزن في الشبكة المظلمة من عقله، ليضعه

---

Enrico Fermi .33

في سياق أحاديث علنية مع رئيسه. قل السوف... الصحراء الصامتة... برنامج تور... الشبكة المظلمة... وغيرها من عناوين الكتب وبرامج الكمبيوتر التي يطلب منه تأمينها، وكان لا بد من أن تبقى ككلمات سر لبريده الإلكتروني العقلي، يحتفظ بها في حالتها المشفرة غير القابلة للاستخدام، لا لتوظيفها تحت أي ظرف في استخدامات لاحقة.

- أقصد ما قاله هوكينغ! وحاول فرانك مسح غلطته وتبديدها بشكل ما... وجانلوكا فيرو... مهمم بتشتت: « أقصد تحفظات جانلوكا بخصوص... »

- لا تحدثني عن ذلك الرعيد. نفث هينريك بنفاد صبر وهو ينتش الملف من يد مساعده بالكثير من الامتعاض وأردف: « لقد حسمت أمري بخصوص فيرو وما عليكم سوى تنفيذ الأوامر التي أصدرتها بشأنه ». ودك نظره في وجه مساعده كرصاصة خاطفة.

## - 19 -

شعر جانلوكا بنسبة الأدرينالين ترتفع في جسمه، وهو يجلس إلى شاشة المراقبة الضخمة من داخل المختبر الذي تم انشاؤه وسط قاعدة تمنغاست غير بعيد عن جبال الهوقار، قابعا تماما فوق ما يفترض أنه أحد الثقوب المظلمة.

أطلق زفرة عميقة بدت مستخرجة من لب صدره الذي كان يمكن أن يتحسس حركته المتموجة صعودا وهبوطا على نحو ظاهر للعيان، من تحت قميص الفيرونوتي المصنوع من قطن البوبلين الخالص. إلا أنه لم يحاول قمععه وقد شعر بأنفاس مدير المشروع مارك ويير الذي كان جالسا بجانبه هي الأخرى تتلاحق على نحو تصاعدي كلما تغيرت الصور الحرارية التي كانت تأتي تباعا من جوف الأرض.

- قياسات التدفق المغناطيسي لهذه الثقوب لا يمكن لها سوى أن تعبر عن شيء واحد. قال جانلوكا كلماته المعجونة بالظفر، كاسرا الصمت المهيب الذي بقي مسيطرا على أبعاد المكان الثلاث للحظات طويلة. ليكتفي مدير المشروع برسم ابتسامة دقيقة على وجهه متناظر القسما، وعينه لا تزال مثبتتان على نحو لا فكاك منه على شاشة المراقبة الضخمة.

لقد كان الجيولوجي الألماني يتأمل تلك الصور وكأنه يراها للمرة الأولى تماما مثل أي مؤمن يجثو على ركبتيه أمام أيقونة خبير تفاصيلها. نظر جانلوكا إلى زميله الذي سبقه بأسابيع بالقدوم إلى القاعدة للإشراف على عملية « التنقيب »، وقد تفهم لحظة الوجد التي كان يعيشها أمام تلك الصور.

- قد تكون فعلا هي ! وغمغم الآن وكأنه يتأكد من سماع صوته في حيز ذلك المكان الذي بدا في تلك الأثناء خارجا عن إطار أي زمان. لقد كانت نظرية وجود ثقب أسود في لب الأرض قد طُرحت منذ بضع سنوات بين العلماء لتفسير تدفق الحقل الجيومغناطيسي، وتبرير تمزق وانهيار مناطق مختلفة من هذا الحقل شيئا فشيئا الأمر الذي أصبح يعرض الأرض لسعار الشمس اللاهب كل يوم أكثر فأكثر. وقد كانت تلك الفرضية تبرر على نحو ما التغيرات المعجونة التي كانت تطرأ على الكوكب الأزرق في السنوات الأخيرة. وهو ما دفع العديد من أخصائيي المناخ والجيولوجيا للتأكيد بأن الأرض تتجه نحو الخروج الكلي عن السيطرة، إذا ما واصلت التصرف على هذا النحو الذي لم يسبق وأن شهد الإنسان المعاصر مثله من قبل. وقد تم رصد ميزانيات ضخمة عبر مختلف مراكز الدراسات في العالم من أجل تمويل الأبحاث حول هذه الظاهرة التي كانت مقلقة بالدرجة الأولى كونها غير قابلة للتفسير.

- لكن ليس بعد الآن !

وارتخت عضلات وجه جانلوكا وهو يفكر في ل. ريو فريو<sup>34</sup>، التي حاولت تفسير ظاهرة تقلبات الحقل المغناطيسي للأرض بطرح نظرية الثقب الأسود القابع تحت أقدامنا والذي كان بحسب الباحثة السابقة في النازا هو المسؤول عن كل ما يحصل على كوكبنا، في غفلة كلية منا. ذلك أنه وبحسب ريو فريو فإن ثقوبا سوداء يمكن أن تكون موجودة داخل نجوم كثيرة وحتى الشمس، وقد يكون لب الأرض قد تم اختراقه أيضا من ثقب من هذا النوع وهو المتسبب في تغيرات الحقل المغناطيسي فيه.

الأمر مذهل فعلا! فكر جانلوكا في نشوة.

- سيبدأ الاجتماع بعد ثوان. قال مدير المشروع وهو ينظر إلى الساعة مقاطعا ما بدا أنها لحظات كشف صوفي كان الجميع منخرطا فيها حد الخدر.

وقد كان رئيس الفيوتشر إينيرجي كوربوريشن يعقد اجتماعا عبر الفيديو مع بعثة الهوقار كل أسبوع، وهو الذي كان يولي هذا المشروع اهتماما أكبر من أي مشروع آخر دخله خلال سنوات عمله الإثنتين والأربعين في مجال الطاقة، لدرجة أنه كان يحرص على الوقوف على أدق تفاصيله بشكل يومي من خلال قراءة التقارير الواردة عن تقدم الأعمال في الهوقار، بالإضافة إلى الاجتماع الدوري مع البعثة العلمية المكونة من خبراء جيولوجيين وأركيولوجيين، وفيزيائيين، وعلماء فلك حشدهم من خيرة مراكز الأبحاث الأوروبية للعمل جميعا لصالح مشروعه هذا، والذي كان العد العكسي للانطلاق في تنفيذ أهم جزء منه قد بدأ.

---

L. Riofrio .34

- وصلني تقرير اليوم. قال هينريك في تحيته المعهودة لموظفيه وهو ينحني في ارتباك بسيط محاولاً تبين جميع تفاصيل الصورة التي كانت تأتي عبر حساب مشفر، قابضاً على الملف الذي حملة له مساعده منذ قليل. « عمل جيد ». قال وهو يعود لاستقامته المعهودة.

- كل شيء يسير كما هو مبرمج. رد مارك وهو يرسم على وجهه ابتسامة رصينة.

أوماً هينريك برضا. كانت ساعة الصفر تقترب. فكر باطمئنان وهو يستمع لملخص مارك السريع لعمل اليوم وسرعان ما لاحظ وجود جانلوكا.

- أهلا جانلوكا. قال فورتسنبورغ بصوته المبلوع ذي الرنة العميقة.

« لحظات قوية... أليس كذلك ؟ ».

- إنه حتما اكتشاف استثنائي. علق جانلوكا. « غير مسبوق ».

وواصل وهو يحاول احتواء حماسه. « فتح علمي حقيقي ».

وعند هذه العبارة ضم هينريك يديه وأسندهما إلى صدره في حركته الصنمية التي لم يكن يبدو أن هناك من يعي دلالتها غيره. ضم شفثيه على نحو لا يكاد يكون مرثيا وأوماً بشيء من الانزعاج أراد له أن يظهر لمحدثه.

- فتح علمي قلت لي ؟ غمغم هينريك بامتعاض ثم استطرد بمكر : « وهل تزال الإيزا ترصد التغيرات الحاصلة في المادة السائلة بلب الأرض ؟ » سأل الآن وهو يتناول من أمامه الصور القادمة من خلال قمره الصناعي نيبيرو والتي وصلته منذ قليل ضمن التقرير اليومي لمشروع الهوقار.

- نعم. رد جانلوكا وقد استشعر طبيعة سؤال محدثه واستعاد الآن وقائع آخر اجتماعٍ جمعه بهينريك في جنيف.

- لا جديد من جهتهم... عدا ذلك السوارم<sup>35</sup> ؟ وضح هينريك  
تساؤله بشيء من الاستخفاف.

- القمر الصناعي الثلاثي سوارم يعمل بدقة عالية والعالم يملك الآن  
خريطة مفصلة عن تغيرات الحقل المغناطيسي للأرض وشدته بفضلها.  
رد جانلوكا بحزم وهو يكاد يشد على قبضته.

- الإيذا متفانية. رد هينريك بنبرة حيادية وكأنه فهم شعور الإهانة  
الذي طفا على صوت جانلوكا فيرو، والذي بالرغم من انخراطه  
في البحث المستقل الممول من شركة هينريك منذ أكثر من سبع سنوات،  
لكن لا يبدو أنه قد نسي انتماءه الأول لوكالة الفضاء الأوروبية العمومية.  
- وهل من أخبار عن المعهد الوطني لأبحاث الفضاء الدغماريكي ؟  
سأل هينريك بلامبالاة محاولا الخوض في أي حديث مع هذا الإيطالي  
الذي لم يكن طيعا بما فيه الكفاية، تماما كما أوصاه به مستشاره  
الثقافي للأعمال.

أوما جانلوكا بحركة غامضة وكأنه يحاول تبيين خلفية السؤال.  
وقد كان لا بد له من الاعتراف لنفسه أنه من الصعب فك شفرات  
التواصل مع هؤلاء الشماليين ذوي الوجوه المقفلة.

- على حد علمي البحث الذي أشرف عليه نيلس أولسون ونشر  
نتائجه في مجلة Nature Geoscience عام 2008 هو آخر الأبحاث  
الكبرى التي خرج بها المعهد.

- نعم. رد جانلوكا بجدية. « أولسون<sup>36</sup> وفريق عمله اشتغلوا بجد  
طيلة تسع سنوات وخرجوا بنتائج هامة جدا ترصد التغيرات السريعة  
في الحقل المغناطيسي للرب الأرض ».

Swarm .35

Nils Olsen .36

- نعم... نعم... الأورستيد<sup>37</sup> كان قمرا جيدا على أي حال.  
قال هينريك محاولا تصنع الاهتمام وهو لا يزال يقلب أوراقه...  
- بل مذهلا... رد جانلوكا بشيء من الحدية وانبرى. « قياسات القمر الصناعي أورستيد كانت دقتها كبيرة جدا ». وواصل محاولا تكثيف قوام الخطاب الذي أراده هينريك مخففا لسبب يعتقد جازما أنه يعرف سببه. ثم صمت قليلا محاولا تبني نبرة أكثر هدوءا : « وعلى أي حال لولا فريق عمل المعهد الدنماركي لما تمكنت الإيزا من تطوير الخلف الثلاثي للأورستيد ». قال بفخر مفرط. « وقد تمكن فريق العمل الأوروبي المشترك فعلا من الخروج بقياسات أدق للحقل المغناطيسي للأرض من خلا... »

- وهل تمكنت الإيزا من معرفة سبب التغيرات في الحقل المغناطيسي بعد دمج الأورستيد وسوارم ؟ طرح هينريك سؤاله الاستخفافي مقاطعا جانلوكا وهو يقترب من الشاشة، وقد شرع عينيه على نحو جعله أشبه بكائن فضائي من الصنف الرمادي. وتابع الآن بنبرة تكاد تكون مقترضة من فعل رعب : « هل تعرف أي قمر صناعي آخر وصل لما وصل إليه نيبورو ». وصمت الآن للحظات وكرر : « قمرا ».

- لا. رد خبير الإيزا السابق بحرج وهو ينظف حلقة.

كان من الواضح أن رئيس الفيوثشر إينبرجي كوربوريشن، وبالحاق ذلك الضمير المتصل للقمر الذي صرف على تمويله باخرة من ماله الخاص، يحاول تذكير جانلوكا بانتمائه منذ سنوات لمشروع مستقل. ذلك أن هينريك لم يكن يدخر أي مناسبة لتكرار اسم قمره الذي اكتشف الثقوب المظلمة « المحفوظة » في بطن الهوقار بدقة عالية. إلا أن كل ما كان يريده في تلك اللحظة هو أن يذكر عالم الفلك الإيطالي

أنه يعمل لصالح شركته هو لا مشاريع علمية عمومية يتباهى بأبحاثها المختصون على صفحات المجلات العلمية، وهو ما لم يكن يفكر بفعله ولا حتى في أفضل أحلام جانلوكا.

- إذن لا داعي لكل هذا المهرجان الخطابي بخصوص الأبحاث العلمية الزميلة بروفيسور فيرو، فنحن قد سبقنا الجميع.

- أتفهم حماسة شركتك للريادة سيد فورتسنبورغ لكنني أود أن أذكرك فقط بأن أليكسي ليونوف<sup>38</sup> وقبل خمسين سنة كاد أن يبتلعه الفضاء قبل أن يسجل اسمه كأول من سبح فيه !

وشعر هينريك الآن وكأنه تلقى لكمة وسط بطنه. ثم نظر إلى جانلوكا مليا وكأنه فهم تماما ما قصده.

فلولا فطنة رائد الفضاء الروسي ذاك في التعامل مع الخلل التقني في برته، والذي لم يتوقع الفريق السوفياتي الذي صممها له أنذاك أنها لن تتحمل اختلاف الضغط بين المركبة من الداخل والفضاء الخارجي، لكان قد أصبح في خبر كان. وهو من صرح بعد سنوات من حادثة سفره إلى الفضاء أن ما حصل معه كان يمكن تفاديه لو أن الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة تساعدا سويا في مجال الأبحاث العلمية.

- لكن الأمر هنا مختلف ! قال هينريك محاولا طمأنة جانلوكا وقد استشعر قلقه من هذا المشروع لمجرد محاولة ربطه بحادثة لا يزال تاريخ العلم يذكرها على أنها نجاة من موت محقق بالرغم من أن المهمة لم تكن بذلك التعقيد تماما مثلما هي مهمة الهوقار.

- لا الأمر ليس مختلفا إطلاقا. قال جانلوكا بنبرة ناقوسية : « فخطر العبث بحقل طاقة مجهول كليا عنا أمر لا يمكن أن نتهاون به وعلينا أن نشرك به معاهد بحث أخرى، خصوصا أنه يرجح بأن حضارة عظيمة

ازدهرت هنا في حقبة معينة». ونظر هنا إلى الأركيولوجي العجوز الذي بقي صامتا منذ بداية الاجتماع، ولم يتبادل معه أي كلمة بعد تلك المحادثة الزئبقية التي دارت بينهم عشية البارحة، ثم واصل بنبرة تشييعية: « ذلك لأننا جميعا نعلم بأن كل حضارة متقدمة تستطيع تطوير تكنولوجيا قادرة على إبادة نفسها». وحج الآن على نحو مقصود مارك: « لا بد أنك تعرف صاحب هذه المقولة بروفيسور وير؟ »

- بروفيسور فيرو! صاح هينريك مقاطعا جانلوكا وقد رشح صوته عن رنة امتعاض واضحة. إذ لم تكن جملة إنريكو فيرمي التي أطلقها أثناء عمله على مشروع مانهاتن للقبلة الذرية هي ما كان يود أن يسمعه في هذه المرحلة من مشروع الهوقار بالذات: « مبدئيا نحن لا نتعامل مع الأمور بتهاون والدليل أنك موجود هناك ضمن فريق كامل للعمل على سلامة المهمة، كما أن الأدوات التي طورها خبراؤنا تضمن أكبر قدر من... »

- لكن الأمر برمته أكبر منا يا سيد فورتسنبورغ. فحتى الاتحاد السوفياتي كان يفكر أنه صمم أكثر بزات الفضاء أمانا قبل أن يطلق رائده عام 1965 وحيدا في الفضاء ليواجه الموت بمفرده.

- لا أدري لماذا تصر على هذه الواقعة القادمة من سياق حرب باردة! رد هينريك بانفعال، مستاء من تكرار هذا المثال الجنائزي وهو يلوح بيده من أمام الشاشة.

- لأننا في سياق حرب على الطاقة لا تقل شراسة عن الحرب الباردة  
سيد فورتسنبورغ!

وخيم الآن صمت مطبق بين الطرفين بدا وكأن حركة الكواكب قد توقفت معه هي الأخرى.

\*\*\*

أطلق هينريك زفرة قصيرة وهو يشعر بالانزعاج من عودة أجواء اللقاء الأخير الذي جمعه بجانلوكا، والذي اضطر بعده لتوظيف مستشار يوجهه للتعامل الأنسب مع هذا الكائن الجنوبي الزئبقي. لقد كان آخر شيء يود أن يحصل معه في هذا المشروع بالتحديد هو مواجهة مشاكل بشرية على غرار ما حصل مع هذا المدعو جانلوكا، والذي اتفق أنه أفضل من كان متاحا للإشراف على تطوير قمر نيبورو الاصطناعي والأبحاث المتصلة بالاكشافات التي تمخضت عنه.

- واتفق أيضا أنه رعديد... محب للثرثرة! غمغم بامتعاض واضح. لكنه أخذ يدلك رأسه بحركة مرتبكة وهو يتذكر كلام فيرو بقلق. هل كانت اللوزة الدماغية تقوم بعملها كاملا في رأسه يا ترى أم أن هناك خلل ما طارئ؟ وسرعان ما طرد الفكرة من رأسه وتنهد باستياء، وهو يفكر أن أحد أهم أعمدة مشروعه من شأنه أن يجلب له متاعب من نوع لا يحبه. قلب بانزعاج الفكرة في رأسه واختار أوبرا خاتم نيبولونغ<sup>39</sup> لفاغتر لتعديل مزاجه بعد أن أزاح جانبا اسطوانة فيردي، وقد تملكه الغضب.

لقد كانت فكرة نشر نتائج الأبحاث التي كان يمولها هينريك والتي كان يلح لها ذلك الإيطالي الطائش لا تشبه سوى فكرة عرض برونيلد<sup>40</sup> بكامل عنفوانها عارية على البلاي بوي بنسختها الرخيصة... أو لنتيجة أرقى فوغ في الطبعة الإيطالية. فكر أن الاقتراح الأخير يناسب استعراضية فيرو الوقحة لكن لا يليق بلحاف صمته المهيب هو.

- عالمي لا يعترف سوى بالجلال والقوة... لا بلحظات الجمال الخاوية. غمغم بقسوة، وقد خطر إلى ذهنه كيف أن أوصاف الآلهة في الميثولوجيا اللاتينية طالما أتت مقترنة بالجمال بينما كانت الآلهة الجرمانية لا تُنعت إلا بالقوة.

Der Ring des Nibelungen .39

Brynhildr .40

وملاً صدره الآن بالهواء وهو يتأمل الفكرة. إذ لم تكن الأساطير في عالم هينريك تفصيلاً عابراً في تاريخ تطور الفكر البشري، كما أن مهمتها في حياته كانت أكبر من مجرد تسليته ومساعدته على الاسترخاء من خلال الأعمال الأوبرالية المستوحاة من قصصها الغزيرة، وإنما كانت بالنسبة له السبيل الأفضل لفهم تاريخ العالم بأسره، وإعادة اكتشاف الكون وتفسير جوهر الاختلافات بين المجموعات البشرية في عصرنا. والدليل أننا وليومنا هذا لا نزال نشترى الجمال من المنتجات الإيطالية والقوة من المنتجات الألمانية. واللاشيء ببساطة من شعوب أساطير الخواء... والخلاء... والخفاء. فكر وقد عاد شعور الارتياح ليستتب في نفسه شيئاً فشيئاً.

إذ أن الشيء الأكيد هو أن فورتسنبورغ قد نجح في تحييد أهل تلك البقعة كلياً عن طبيعة مشروعه في الهوقار، وبحسب التقارير القادمة من هناك، لم يدخل القاعدة أي كائن من شأنه أن يشكل خطراً على سرية العمل، والمحليين الوحيديين الذين حطوا قدمهم في المكان التي دفع هينريك عملياً ثمنه للمدعو خنخان ليسوا سوى بعض العمال والخدم الذين لا يفرقون بين الباء والتاء.

- جميل. غمغم هينريك برضا وهو يقرأ بقية التقارير العلمية مهنئاً نفسه على العبقرية التي أوصلته لتحقيق اكتشاف ضخم كهذا في بلد بحجم قارة دون أن يثير انتباه أهله. وفي هذه اللحظة تلقى إشعاراً بوصول رسالة من المدير الإقليمي لتطوير المشاريع في شمال إفريقيا والشرق الأوسط.

عاجل وهام

ضيق عينيه مترقباً مضمون الإيميل الذي تضمن عنواناً ناقوسياً كهذا. أخذ نفساً عميقاً قبل أن يطلع على الرسالة. لقد كان هينريك

يولي أهمية كبيرة لهذه المنطقة بالتحديد لدرجة جعلته يطلب تحويل جميع المراسلات الخاصة بصفقات هذا الإقليم على بريده المباشر لدراستها شخصيا. وكانت رسالة اليوم تبدو غريبة على نحو خاص. لم تكن رسالة روتينية تتضمن الترتيبات المعهودة للصفقات لتأتي موسومة بعاجل وهام :

خنخان يطلب لقاء مستعجلا دون أن يحدد السبب

ما الذي قد يريده ذلك النكرة الآن ؟

فكر هينريك دون أن يخفي توجهه من هذا التطور.

تحقق من خلفياته قبل تحديد موقع اللقاء،

وأطلعني على كل التطورات أولا بأول.

كبس على زر الإرسال وعاد لتأمل الصور القادمة من الهوقار

وقد خالط نفسه الآن شعور غامض بالتوجس.

- 20 -

أرسل مدير الموارد البشرية الجزائري المدعو موحوش تقريره اليومي عن التطورات الجديدة في قاعدة الهوقار ومط ذراعيه نافخا صدره الضيقة برضى. كان عليه في الأيام القادمة أن يراقب عن قرب الوافد الإيطالي الجديد جانلوكا فيرو. فكر وهو يتشاءم بعمق، وأوقف سيل مخططاته اليومية للحظة وهو يستمتع برنين صوته المجلجل وقد هيء له أنه زئير ملك الغابة. ابتسم للفكرة ونظر بهناء إلى النافذة المطلة على صور صحرواية مجدبة، وسرعان ما صفعه شعور بالاشمئزاز وهو ينظر لبعض العمال الجزائريين المتناثرين هنا وهناك وهم مندمجين في الحفر والنقر دون أن يفهموا ما كان يدور

حولهم. وابتسم موحوش بمكر لأنه تمكن من إقناع أرباب العمل الألمان بضرورة تسقيف أجور هؤلاء على أي حال. « فهم إذا ما مددت لهم يدا سحبو الذراع بأكملها! ». قهقهه بانتشاء وهو يبصق على الأرض في حركة غريزية، ونظر إلى المكتب القذر من حوله بلا مبالاة واضحة. - الغاشي تاع الزبل.

تذمر في سره من ذلك « الكحلوش » الذي لا يبدو أنه يقوم بعمله على أفضل وجه.

لكن عمه غير سيء على أي حال. ونظر إلى الساعة قبل أن يسند رأسه بمتعة إلى كرسيه الدوار وهو ينتظر وقت تناول الغداء.

## - 21 -

قرأ التقرير السريع الذي وصله، ومعه تلك الصور. أخذ نفسا عميقا وهو يمسد رأسه بعناية قبل أن يستعد لقصه. تأمل تفاصيله جيدا وهو يتحسس كتفه كأني محترف يعرف قيمة تجربة نوعية كهذه.

كان جو مدينة الجزائر خانقا على نحو مألوف في ذلك اليوم، أما هو فكان معتادا عليه... كان قطعة منه... الابن الصامت لروحه... أم أنه هو من أنشأه ومن كان في أي لحظة مستعدا لابتلاعه، كثقب أسود غميق محجوب ببياض المدينة المشوب.

لم يفكر طويلا قبل أن يتخذ قراره في اختيار الأداة الأنسب للعملية. والأهم في جميع الأحوال هو حدة الشفرة ومدى تناسبها مع حجم الرأس. تأمله ببرد. كانت المقصلة هي حتما ما يليق به. ثبت رأسه وسط فكي الأداة الرمادية المصنوعة من الفولاذ. داهمه شعور قوي

بالوجع من كتفه. لكنه تجاهله. تنفس ببطء. لم يتردد. كان اللجوء إلى هذه الوسيلة أضمن حل لتجنيبه الوقوع في أي خطأ. كان مؤخرا قد بدأ يفقد بصره... للعمر حق. اعترف. لطالما كانت العقلانية أهم نقاط قوته. لكنه لم يكن يود الآن أن يزل في موضع القطع... لم يكن يود أن يفسد لذته.

وبضربة خاطفة... حازمة... قوية قص رأسه. تأمل موقع البتر. ابتسم برضا.

لم يكن ليرضى بنتيجة أقل لقص سيجاره.

- خنخان ! غمغم وهو يستعد لإشعاله. دورك قريب جدا، لكنك تستعجل فقط قدرك.

نظر في كومة الأوراق الموضوعية أمامه واسم جانلوكا فيرو يجول في ذهنه.

## - 22 -

تفحص نزييم خنخان من جديد الصور التي وصلتته منذ قليل على حسابه على الواتساب. وشد قبضته بقوة... أطلق شجرة عنيفة... ولم يشعر بنفسه إلا وهو ينتفض كالذب من مكانه قاذفا بمصباح السرير من على يساره بكل ما أوتي من قوة. وسرعان ما خفف دوي ارتطامه بالأرض من سعار الغضب الذي اعتمل في داخله. أغلق التطبيق الأخضر السقيم مباشرة بكبسة عنيفة من إصبعه وهو يحاول تمالك نفسه حتى لا يهرس ذلك الهاتف بين يديه، واستعاد شريط أحداث يوم أمس.

- تبا له من سافل !

نهض نزييم من فراشه ليلقي ببدنه كاملا على الأريكة الوردية المنضدة وهو لا يشعر بشيء سوى الغضب.  
- الحقيير ! غمغم بسخط.

ثم عاد لقراءة الرسالة التي تركها له محاميه السويسري على بريده الإلكتروني يوم أمس.

- سحقا كيف يمكن لأمر كهذا أن يتسرب من بين يدي؟! فكر الآن بشيء من الوجل وقد غدا صوت أنفاسه مسموعا أكثر فأكثر.

كز على أسنانه حتى سمع صريها، ثم ألقى بهاتفه على طاولة غرفة النوم الصغيرة، داسا رأسه بين يديه للحظات كمن كان يحاول حرفيا عصر دماغه مستعيدا آخر كولسات والده عله يستفيد شيئا من خبرته. وسرعان ما عاد لتقليب بريده الإلكتروني وهو يمني نفسه بالحصول على رد سريع على الرسالة التي بعث بها قبل لحظات لمنسق صفقته مع المركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية. لا بد أن أحزم حقائبى وأتجه إلى جنيف اليوم قبل غد.

## - 23 -

سحب الحاج المخاط من أنفه دفعة واحدة، كانت قد سبقتها سحبات بلغمية متقطعة رافقت كل قطعة لحم مشوي يلتقمها، وكأنه كان يغمسها بصلصة من نوع خاص في مطعم « ملك الشواء » ذي الشكل المألوف، في شبه مشهد معاد في غرب العاصمة الجزائرية. وكل ذلك في أجواء منخارية سمفونية لم يكن غيره قادرا على الإتيان بها، خصوصا في لحظات الانسراح الشديدة التي كان يفقد فيها القدرة على ضبط حركاته.

آه ! شخر منتشيا وهو يقفل حفلة عشائه اللزجة اليومية. ومسح فمه بحركة قوية من اليسار إلى اليمين، كاد يقتلع بها شفتيه. وبقفا إصبعيه رفع كولوملا أنفه المكور الصغير ماسحا إياه من أسفل إلى تحت بشيء من العنف، وكأنه ينتقم من أعضائه البشرية لسبب غير معروف. ثم كبس على جناحي منخاره سادا إياه بقوة مختتما سمفونيته اللزقة لتلك الليلة.

وقد كان سحب المخاط جزء لا يتجزأ من شخص الحاج الذي لم يكن يدري تماما متى بدأت هذه العادة القهرية معه وترسخت في نفسه. وقد يكون للأمر جذور بعيدة تعود على الأرجح لطفولته، أو أنه كان ببساطة يستمتع بطعم ذلك الإنتاج البشري المخضّر. وعبث علاوة زغدودي بأخر كرية بلغم في فمه لهذه الليلة وابتلعها بانتشاء. ثم مسح يده بطرف كفه. ليلبس الآن وجهه ابتسامة رضا عميقة وهو ينظر لصحنه المليء بأعواد اللحم العارية وصحن « الحميس » المغتصب من كل ناحية، ثم تشدق بقوة.

ولم يكن يبدو أن الحاج قد مل وجبته اليومية المكرورة تلك، قبل زيارة ملهاه المعهد « كريستال » والذي لم يكن يبعد عن مقر سكنه سوى بضع كيلومترات. إلا أن حياة السهر تلك لم تكن تعني أحدا من عائلته سواه، فزوجته كانت بعيدة بعد المجرات عن عالمه الليلي ذلك، والذي لم يكن يبدو أنها تأبه لما يجري داخله. والمهم عندها أنها كانت تعيش في ما يطلق عليه اسم « فيلا »، وترتدي الحلي الذهبية السميكة في الأعراس والمناسبات السعيدة. وأنها كانت محل حسد قريباتها وجاراتها. وقد كان ذلك كافيا ليجعل منها ربة بيت سعيدة تتلخص كل انشغالاتها في شراء الثياب لأطفالها، وصبح شعرها، وتغيير أثاث غرفة الضيوف وستائر النوافذ كل سنة، ومعه معدات المطبخ

والأدوات الكهرومنزلية، بما يتناسب ومع ما كان يعرض على القنوات التلفزيونية. وقد كانت هذه الصيغة المسطحة للتوافق العائلي تناسب الحاج الهائم على وجهه أبدا يلاحق بعد الساعة العاشرة مساء الشعر المستعار والرموش الاصطناعية في المربع الليلية، وبعد العاشرة صباحا لدى وصوله مكتبه في مؤسسة الحق التنانير القصيرة وما تخفيه الخمارات الملونة من خصلات شعر عدوانية.

وقبل أن يركب سيارته متجها نحو ملهى كريستال لبدء السهرة التي ستحييها مغنية الراي المتهدلة « إيمان لا مينيون »، لم يفتته القيام بجولة سريعة على آخر الإدراجات الفيسبوكية لذلك اليوم. ليرتطم بأول تعليق صادفه على الصفحة الرسمية لجريدة الحق :

- صحافة الصرف الصحي. والله ما تحشمو.

- انتم فعلا جريدة الزق وليس جريدة الحق.

- ارتقوا إن القاع مزدحم !

- هذا الصحفي ما نعرف وين قرا... صحفي آخر الزمان.

- صدق من أطلق عليكم جريدة الزق يا وجوه البق... تفو.

تنفس بهدوء، وأغلق هاتفه غير آبه بمضمون التعليقات، وقد بدا من الواضح أن ذهنه كان مركزا على أمر واحد فقط، وهو إحصاء كم التفاعل مع الصفحة سلبا كان أم إيجابا. والمهم هو أن هناك من لا يزال مهتما بمتابعة أخبار « الحق » حتى بعد غزو منصات التواصل الاجتماعي المختلفة للساحة الإعلامية وإنجابها لصناع رأي من نوع آخر لا يشبهون الصحفيين التقليديين بأي شكل. ليصله في هذه اللحظة إشعار بتلقي رسالة على بريده الإلكتروني من يحيى فرقاني. واستقام ظهره على نحو لإرادي :

- غير الخير ! غمغم مدير الحق بشيء من العصبية.

سأتصل بك غدا على الساعة الواحدة

كان ذلك يعني أن الأمر يكتسي أهمية خاصة. فكر الحاج بشيء من القلق.

وعموما لم يكن موظف السفارة العتيد ليتك أي أثر مكتوب عن مضمون تواصله مع الحاج، حيث كانت كل أوامره تتم شفويا من خلال المكالمات الهاتفية. وهي ذات العادة التي كان ينتهجها الحاج نفسه بل وأصغر موظف في المؤسسات الجزائرية الخاصة منها والعمومية، ممن يدرك أهمية عدم ترك آثار مكتوبة عن أي شيء يصدر في حياتهم المهنية، عدا عن تلك الكلمات المحسوبة بعناية والمفروضة إداريا. وذلك حتى يترك الجميع مجال المناورة مفتوحا على كل الضربات مع المحيطين بهم.

- فلنر ما الذي يريده غدا !

أغلق الحاج الرسالة، وعاد لإحصاء كم التعليقات على منشورات « الحق »، ثم أطلق تنهيدة ارتياح عميقة بعد رصده لتفاعل قياسي مع الأخبار التي نشرها في عدد اليوم.

مسح أنفه على نحو شاقولي بكفه الصغيرة التي كانت تشبه على نحو غريب يد طفل صغير لم يتم العاشرة من عمره، وقد بدأ يستبشر بالقليل من الخير. فمن الواضح أن استراتيجيته الجديدة التي اتبعها بإيعاز من يحي فرقاني نفسه كانت متجهة نحو المسار الصحيح. فقد كان لا بد فعلا من زيادة جرعات الشعبوية على عناوين الجريدة حتى تلفت انتباه الرأي العام الذي أصبح كل تركيزه منصبا على وسائل التواصل الاجتماعي، والإدراجات التعريضية على الفيسبوك، بالإضافة إلى تسجيل الإعجاب على صور الأطباق

التقليدية والوجوه المنمقة بالفيلترات على ذلك الموقع الأزرق، أكثر من الأخبار العاجلة والتقارير اليومية للصحف الوطنية. ويبدو أن الأمر قد بدأ يأتي بأكله على نحو ما.

ودس الحاج هاتفه في جيبه مطلقا تجشئة صغيرة، حاول افتعال أخرى أقوى منها إلا أن ريح بطنه لم تسعفه الليلة لممارسة هواية التجشؤ بعد تناول الطعام، والتي كان يتحضر لها بكرع قنينة « سيليكينو » أو « حمود بوعلام » كاملة مع كل وجبة أيا كان نوعها. و بسط زغدودي عضلات وجهه في غبطة، وهو يشعر بالرضا على أداء جريدته اليوم والتي أثبتت أنها قادرة على صنع الحدث وسوق الجماهير لمتابعة جديدها في كل مرة. لازلت أترجع على القمة. وغمغم في زهو وهو يرسم على وجهه ابتسامته الغبية التي عرف بها، والتي كانت تلتصق على وجهه بعشوائية تامة وفي مناسبات غير محددة. إلا أنها سرعان ما امّحت واستحالت ملامحه للعبوس، بعد أن مر على ذهنه صورة صحفبيه من آخر اجتماع معهم. كان من الواضح أن الأجواء بين موظفي المؤسسة مشحونة على آخرها، وقد يؤدي ذلك إلى ما لا يحمد عقباه.

- ما الذي كان يخطط له ذلك السعيد بالتحديد ؟

فكر الحاج ونظرات المدعو سعيد شكيكن في تلك الصبيحة لا تكاد تفارق ذهنه. لقد كان يعرف جيدا تلك النظرات وما تنطوي عليه من طاقة مدمرة. عندما يجتمع الحقد والطموح في شخص واحد. وطوح برقبتة يمينا وشمالا في حركة لاإرادية وهو يفكر في شخصه الكريم، وسيرته المهنية المظفرة التي داس فيها على رقاب جميع من سولت لهم نفسهم الاستخفاف بقدراته مذ كان طالبا في قسم الإعلام، وتدرجه المهني من كتابة مقالات عن الجن والعادة السرية إلى غاية تربعه على قمة عرش الصحافة الوطنية.

ثم سحب بقوة آخر ربع لتر من المخاط من أنفه ومرره بسلاسة في حلقة بعد أن شرع خياشيمه بحركة تأملية. دفع الحساب وانصرف بهدوء من المكان، وهو يحضر نفسه لمكالمة فرقاني يوم غد والأوامر الجديدة التي توجس خيفة منها لسبب ما.

- 24 -

« بأسم الله الرحمن الرحيم... بأسم الله الرحمن الرحيم... »  
تمت رتيبة بعصية، وقلبا يرتعش من قراءة حكايات « قل سوف » التي أخذ يرويها ذلك الأسود المدعو المهدي سميث في الفيسبوك. وفكرت عدة مرات أن تقفل المحادثة خوفا من أن ينط عليها جني ما من الشاشة. ثم قلبت بتوجس نظراتها في غرفتها المظلمة سوى من أشعة الكمبيوتر، الذي بدا لوهلة وكأنه يلقي على المكان إضاءة مزرققة لم تكن تليق سوى بفيلم رعب حقيقي، لكنها قررت متابعة القراءة.

« اسم الله الرحمن الرحيم... اسم الله الرحمن الرحيم... »  
وواصلت البسمة وهي تقرأ بتجلد ما كان يكتبه ذلك المهدي الذي كان ابنا للصحراء، وكان يعرف كما توقعت قصصا كثيرة عن قبيلة الجن المقيمة في الهوقار، والتي كانت تنوي أن تخصص لهم مقالا طويلا في موقع الحق للأخبار الثقافية.

« سُم له حم حمين... سُم له حم حمين... سُم له حم حمين... »  
وبدا الآن العرق البارد بالتصبب من جبهة رتيبة المغضنة، والتي عادة ما كانت تحرص على تغطيتها بخمارين منسقين على نحو خاص لتمويه الخطوط الرفيعة في جبينها. فضلا عن أن ارتداء الخمار

بتلك الطريقة كان يضيف عليها حالة من العفاف الفائض ارتأت أنه من المناسب تعزيزها، بلف الخمار على نحو يغطي ذقنها أيضا ويرسم بذلك فك نفرتيتي من على جانبي وجهها، وهي من كانت تتمتع بوجه كبير ذي عظام بارزة، وذقن مزدوجة من فائض بعض الدهون، وكانت تتطلب عمليات تجميل خاصة كانت تحرص النجمات على إجرائها كما اكتشفت من خلال أبحاثها المعمقة على المنتديات النسوية لضمان صور جانبية لا تقل جمالا عن ملكات مصر القديمة. إلا أن صحفية « الحق » وجدت حلا لإخفاء عيوب وجهها من خلال لفة خمارٍ كانت تغطي بها ربعه الشمالي وربعه الجنوبي، لتحصل بذلك على مفعول دائم خارج المنزل للوجه الصغير الأثوي الذي كانت فتيات شرق آسيا يسعين لإظهاره من خلال تغطية فكهن أثناء التقاط صور السيلفي أو تكسير عظامهن من خلال عمليات تجميل قاسية. أما هي فلم تكن بحاجة لذلك فجماها الرباني كان نابعا ببساطة من بركات التزامها الديني وإيمانها.

غير أن رتيبة لم تكن تفكر في هذه الأثناء في أي شيء له علاقة بشكلها وبالإجراءات التي كانت تنكب يوميا على اتباعها من أجل إظهارها في أبهى حلة لها، والتي كانت تستوحىها من جلساتها على الفيسبوك، وتقليب صور البروفائلات المختلفة لعارضات أزياء ثياب المحجبات، وفي وقت سابق على المنتديات النسوية. أما في أيام مراهقتها فكان ذلك يتم أمام القنوات الفضائية، والآن على اليوتيوب قبالة شاشة حاسوبها. إذ أنها في هذه الأثناء لم تكن تعيش لحظات المتعة المعتادة في مواجهة شاشة الكومبيوتر كل مساء، ولا هي حتى لحظات السأم الممزوجة بالغضب عندما يتعلق الأمر بتحضير مادة ما في عملها. لكنها تستعيد على نحو ما أحاسيس رعب طالما قُضت مضجعا أيام طفولتها، في كل

مرة كانت خالتها الصغرى تأتي لزيارتهم للعاصمة وتمضي السهرات في أحاديث عن الجن وحياتهم ومآكلهم ومشربهم، هذا عدا عن قصص عذاب القبر والثعبان الأقرع ومنكر ونكير. لا سيما أن خالتها كانت أختا مرشدة تدربت في إحدى الجمعيات الإسلامية التي غدت لاحقا حزبا سياسيا كبيرا. وقد كانت بذلك تعرف عن « قصص الدين » ما لا تعرفه أي امرأة عادية أخرى.

وكانت خالة رتيبة هذه مثلها الأعلى في صغرها، حتى أنها لبست الحجاب الشرعي في سن الثالثة عشر بتوجيهات منها. وها هي تعود هذه الليلة لاختبار كل تلك الأحاسيس القوية التي كانت تعيشها في طفولتها خلال كل زيارة لخالتها والتي انقطعت عنها بعد زواجها. ليعود الليلة هذا الأسود الطارقي على الأرجح لإحياء طعم الخوف المثير في نفسها، وهي التي شعرت بوخزه الخفيف بمجرد قراءة اسم ذلك الجبل القابع في مكان قصي من الصحراء تلك الصبيحة : غارة الجنون. أي جبل شيطاني هو هذا ؟

وقد كان من المعروف أن الجبال تمثل مخزنا لمختلف الأساطير التي كان يتطير منها الطوارق، لا سيما غارة الجنون هذه. وهي القمة الجبلية الأشهر والأكثر إثارة للخوف في نفس الطارقي، والتي كانت تعد جبل الشياطين. وها هو مهدي يحمل رتيبة على بساط الفيضوك الأزرق لاكتشاف القمص المرعبة لهذا المرتفع الغرائبي الشاهق، الذي طالما استعصى على الإنسان الطارقي وهو أعلى قمم سلسلة تيفيديست. حيث تقول الأسطورة أن ما وراء تلك القمة التي لم يتمكن أحد من بلوغها، توجد جنات ساحرة يقطنها الجن الذين كانوا يختلفون من حين لآخر للناحية الأخرى منه، لأجل إلقاء نظرة على البشر وبث الرعب في نفوسهم بتلبسهم هيئة الإنس. ثم يختفون مجددا ويضيعون في الفراغ، ومن هنا أتت تسميتهم « قل السوف »

أو قبيلة الفراغ. هكذا بدأ مهدي تعريفه للجبل المفزع ذاك بينما كانت رتيبة غارقة في بسملاتها وحوقلاتها.

- حدثني عمي في أحد الأيام أن شخصان من المنطقة قاما بالاقتراب من غارة الجنون، وتجراً أحدهما على الخوض في مكان لم تطأه قدم إنسي قط، لتنتشه في تلك اللحظة يدان بدتا وكأنهما نبتتا من العدم وحملتهما للسماء بحركة خاطفة، ومنذ ذلك اليوم لم يسمع عنه خبر. نقر مهدي تلك الكلمات بأصابع متصلبة: «أما صديقه الذي شاهد من بعيد هذه الحادثة المروعة فقد فقد عقله من هول المشهد».

- سَم الله الرحمن الرحيم... سَم الله الرحمن الرحيم...

لهجت رتيبة في سرها مجددا وهي تقرأ هذه الكلمات. لكنها قررت التجلد ومواصلة المحادثة مع هذا الشاب الذي تأكدت الآن بما لا يدع مجالاً للشك أنه الشخص المناسب الذي وقع اختيارها عليه من أجل تحقيق فتحها الصحفي العظيم. وفكرت على أي حال أنه لا بد من أن تخضع حاسوبها للرقية بعد الانتهاء من هذه المحادثة، لكنها قررت قبل ذلك وبكل عزم المتابعة في جمع كل التفاصيل التي من شأنها تحويل التحقيق الصحفي الذي تنوي كتابته إلى التحقيق الأكثر إثارة في تاريخ الصحافة الوطنية.

- وهل هذا الشخص لا يزال موجوداً؟

- من؟

- الطارقي الذي جن عندما رأى أيدي الجن... سَم الله الرحمن... سَم الله الرحمن الرحيم... وعادت للتسمية بالرحمن الرحيم، ودقات قلبها تتسارع بينما كانت تفكر في صعوبة القيام بتحقيق على الأرض في موضوع كهذا، وأي جرأة ستتحلى بها من أجل محاوره شخص ضربه جن.

- في الحقيقة لا أدري. رد مهدي بصدق.

- معليش... معليش. كتبت بنوع من الحسرة فقد خطر في بالها للحظات أنها كان يمكن أن تنافس « يوسف الكافي » كما كان معروفا في كواليس المؤسسة والذي تحول إلى الصحفي الأشهر في الجزائر منذ سنوات بعد محاورته لمختل عقلي يدعي الاجتماع بالجن أمسية كل جمعة. لكنها فكرت في مناورة أخرى.

- وماذا عنك أنت، هل اقتربت في أحد الأيام من غارة الجنون ؟ سألت بترقب.

- في الحقيقة لا. أجب بعفوية : « أقصد غارة الجنون مكان جهنمي لا يجرأ على الاقتراب إليه أحد ». واستدرك مبررا ما خشي أن يُفسر منها على أنه جن : « ففي هذا المكان تجتمع الشياطين والجن والأرواح الشريرة باستمرار، حتى أننا نسمعهم أحيانا في المساء وهم يشحذون أسلحتهم مصدرين أصواتا غريبة جدا، تجعلنا نبتعد قدر المستطاع عن ذلك المكان المسكون لكي لا نقع ضحية أحد من قل السوف ».

- أصوات من أي نوع ؟ سألت رتيبة وهي تبلع ريقها.

- أصوات لا يمكن وصفها.

- وهل يمكن تسجيلها ؟ سألت وهي تتخيل كيف أنها قد تتحول من مجرد صحفية مجهولة لا يسمع أحد بوجودها إلى نجمة قناة الحق الموعودة إذا ما قدمت هذا التقرير المصور الذي قد يسمع فيه صوت الجن لأول مرة. ليكون ذلك سبق عربي لا محالة.

ذلك أن رتيبة سبق أن شاهدت جميع حصص الجن والأرواح في كل القنوات العربية على اليوتيوب من محيطها إلى خليجها،

حتى تلك التي حاول البعض فيها وضع كاميرات تسجيل داخل القبور والتي كانت نسبة المشاهدة فيها تتجاوز المليون مشاهدة دوماً، لكنها لا تذكر أنها شاهدت تحقيقاً واحداً كشف عن صوت أو خيال للجن، وها هي الآن على وشك تحقيق حلم الملايين من المشاهدين العرب المتشوقين لمشاهدة هذه الكائنات أو سماع صوتها... لكنها لم تتلق رداً على سؤالها.

- هل يمكن تسجيل هذا الصوت الذي تتحدث عنه ؟ كررت بإصرار. إلا أنها لم تتلق إلا الصمت رداً على طلبها، لتشعر لوهلة بشيء من الهلع يتسلل ببطء إلى نفسها...

لماذا لا يتكلم هذا الأسود؟؟ فكرت بريية، واجتاحت بعدها فكرة مريضة رأسها: هل يعقل أن أحد الجن قد انقض على مهدي الذي كشف بعض أسرارهم لها، واختطفه إلى غير رجعة مثلما فعل أحدهم بالرجل الطارقي الذي حاول الاقتراب من غارة الجنون ؟ حاولت تحريك يديها من أجل تكرار سؤالها إلا أنها شعرت بهما وقد تجمدتا.

- سُم له حم حمين... سُم له حم حمين... سُم له حم حمين. ولم تتمالك الآن نفسها وأخذت تبسمل بصوت شبه عال. وبقرار خاطف أطفأت الحاسوب على حين غرة دون أن تقوم بحفظ أي تغيير على الملفات التي كانت مفتوحة قبل بدئها تلك المحادثة. كل ما كانت تشعر به في تلك اللحظة هو الجزع الشديد الذي تلبس روحها وأحاط بنفسها من كل ناحية.

\*\*\*

هناك، وعلى بعد رحلة بالسيارة تدوم ثماني وعشرين ساعة طالما كانت حلم مهدي لبلوغ مركز الحضارة والجمال والبهاء العاصمي،

كانت الشاشة تبث نورا أبيض مزرقا أخذ يخفت رويدا رويدا، قبل أن يحيله انسحاب الأصابع التي كانت تضرمه من على لوحة المفاتيح إلى وضع الراحة. ليستدرك مهدي الموقف على الفور بالعبث بالفأرة من أجل إبقاء الحاسوب في وضع اليقظة. بينما تابع بتوهم التفكير في أسلوب لائق للتهرب من أسئلة هذه الصحفية العاصمية التي يبدو أنها بشكل ما تود أن تدخله في جحر الطب.

- لماذا كل هذه الأسئلة عن قل السوف ؟ تتمم بامتعاض. ولماذا تود

مني أن أسجل صوت معاركهم ؟؟

لقد كان آخر شيء يود مهدي فعله هو الاقتراب من غارة الجنون ومحاولة العبث مع تلك العفاريت الأسطورية التي يعرف عنها الجميع مزاجها الغيور وميلها الشديد للانتقام. وإن كان أول ما خطر في باله لدى قراءته سؤال رتيبة عن إمكانية تسجيل أصواتهم، هو إحالتها لصوتهم المرعوع الذي عادة ما يصدر عن قتال جن غارة الجنون ونظرائهم في جبل إيدنين الواقع في آجير، وذلك أنه يحكى أن ملكا القبيلتين واقعان في غرام نفس الجنية الفاتنة. وهو الأمر الذي كان يعكر صفو الصحراء أيام تقاتلهما. حيث تزكم رائحة الكبريت الأجواء وتصحب كل ذلك همهمات رهيبة ومرعبة من شأنها بث الفرع في قلب الحجر قبل البشر.

- هل هذه أصوات يمكن أن تسجل ؟

أعاد مهدي قراءة السؤال الأخير لتلك الصحفية وهو يفكر في الجواب المناسب، فهو لن يضع نفسه في موقف كهذا : هل يجيب بنعم ليجد نفسه مطالبا بالاقتراب من أهل الخواء ؟ أخذ مهدي وقته في التفكير. وسرعان ما شعر برعشة غريبة تتسرب إلى أحشائه. أدار رأسه بحركة غريزية. ثم انكب على لوحة مفاتيحه وقد انتبه

إلى أنه أمضى وقتا طويلا نسييا للرد على ريتا كما كانت تسجل اسمها على الفيسبوك. وقد كان آخر شيء يريد مهدي أن يحصل له هو أن تتسبب هذه اللحظات الخاوية في إجهاض جنين حبه الفتى.  
ليس الآن !

فكر مهدي بحسرة وهو من لم يتسن له من قبل التحادث مع أنثى « أجنبية ». فعدا عن أمه فاطمة وجدته ميمونة وزمرة بنات الأخوال والأعمام والخالات المعتوهات ممن كانت تعج بهن العائلة، واللواتي لم تكن أي واحدة منهن برأيه تحمل مورثا واحدا فقط مثيرا للاهتمام، فهو لم يحظ ولا حتى بنظرة واحدة من فتاة ما قد تكون مادة محتملة لقصة حب مفترضة. إذ كانت حياة مهدي العاطفية أشبه بصحراء مقفرة، وكانت إمكانية عثوره على شابة في الفضاء العام من تلك البقعة من الأرض، تكاد تكون منعدمة قياسا لإمكانية إيجاد نخلة توحد الله في الربيع الخالي.

تبا للخلاء ! وفرك مهدي جبهته بيأس. فبالرغم من أنه حاول في فترة مراهقته الهروب من استحالة تحقيق حلم كهذا في المدرسة، بسبب صورة الغبي الشفاف الذي لم يكن يستطيع الخلاص منها أمام نفسه، إلى محاولة خلق كيان مواز آخر قد يتمكن بواسطته من مخاطبة فتاة ما، من خلال التردد على بقالية والد صديقه رضوان، ومساعدته في أعمال البيع تطوعا، لعله يحظى بتواصل بصري مع إحداهن قد يبنى عليه قصة حب ما. إلا أن دخول فتاة في سن الزهور لتبتاع علبة « بيمو » أو « قرعة جافيل » كان فرضية بعيدة المنال في مكان كهذا لم يكن خروج الفتيات فيه أمرا روتينيا. ليكتفي مهدي بتبادل نظرات الموددة مع السبورة وبعدها مع الحاسوب، وها هو أخيرا يجد نفسه واقعا في ذلك الشيء المدعو حبا مع تلك الصحفية العاصمية.

نعم لقد كان مهدي بدأ يحس فعلا في تلك اللحظات بتحرك مشاعره جهة الشمال، وقد أخذ شيء ما يتشكل في دماغه من تحت المهاد محررا هرمون الإكسوتيسين بين جهازه العصبي الذاتي والجهاز الإفرازي، تماما مثلما كان يحصل له كل مرة في أحلامه وهو يتخيل نفسه يتبادل أطراف الحديث من دون تكليف مع فتاة ما... لم يعد مهدي يذكر عدد المرات التي وقع فيها بالحب... وعدا عن السبورة كانت كنزة أولى حبيباته الوهميات من عهد المدرسة الابتدائية لتتوالى الحبيبات الخياليات... حتى أنه يذكر أنه عاش قصة حب جياشة لمدة أشهر طويلة مع شخصية كرتونية، انتهت بانتهاء عرض السلسلة على القناة الوطنية.

- تبا للخلاء... تبا للخلاء !

همهم بحزن وهو يتذكر الفراغ العاطفي الذي تركته في نفسه « ليزا » حبيبته التلفزيونية من أيام متابعته الرسوم المتحركة. لكنه ارتعد بمجرد التفكير أنه قد يغضب أحدا ما بهكذا لعنة. وأدار رأسه بشيء من الجزع يمنة ويسرى. ثم قرر كتابة شيء ما. لم يكن يود أن تستشعر حبيبته الجديدة لحظات خوفه المسربة من جزع جماعي من قوم الخفاء التابعين لهذه المنطقة... لم يكن يود أن يبدو جبانا في نظر هذه العاصمية الفاتنة التي اختارته دوناً عن كل رواد الفيسبوك لأن يكون فارس أحلامها.

وتجلد وقرر أن يروي لها قصة أخرى عن قوم الخلاء وعن شجاعة الرجال الزرق ودهائهم في التعامل مع مخلوقات اختارت الخفاء لتلتئم به. وأخذ يحفر في ذاكرته الطفولية التي كانت عامرة بقصص كثيرة عن جيرانهم الشفافين. لقد كان يمكن لجميع الطوارق أن يرووا مغامرة حدثت لهم شخصا مع قل السوف، أو أن يستمعوا باهتمام

كبير لقصص غيرهم. إلا أن أشهر القصص لقل سوف الهوقار كانت بلا منازع قصة تيتي الطارقي الداهية الذي ارتأى مهدي أنه من المناسب أن يروي حكايته المذهلة لريتنا، وكيف خرج في إحدى الأمسيات إلى واد من الوديان المحفوف بالأشجار، ولدى ترجمه من على سنام جملة متجها إلى المكان الذي كان يعتزم قضاء ليلته فيه، لاحظ طيف امرأة. فحياها وهم بفك متاعه، وعندما رفع حقييته تناولتها المرأة من يده ووضعتها على الأرض. ثم ذهب لجمع بعض الحطب فرافقتها المرأة لتقدم له يد المساعدة. وفي الوقت الذي أخذ فيه بإشعال النار كانت هي تحرص على إضرام الشعلة. عندها شعر تيتي بالقلق من تواجد هذه المرأة صاحبة الشعر الكثيف ومحركاتها لكل حركاته، وخمن مباشرة أنها من أهل الخواء. لكنه واصل بهدوء ما كان يقوم به. واندمج بتحضير خبز الشعير، لتستمر هذه المرأة بمحاكاة أفعاله. وعندها تناول عودا مشتعلا وغرزه بحركة سريعة في شعره من جانبه غير المتقد لتقوم هي بذات الحركة، ولكن معها قامت النيران مباشرة بالتقام شعرها. فانتفضت تصرخ وتركض من مكانها، محاولة إطفاء النيران التي أتت على كامل جسدها من خلال الاحتكاك بالأشجار، والتنقل كالمسعورة بين شجرة وشجرة كلما أكلت النيران واحدة منها، إلى أن أتت عليها جميعها وأحرقت بذلك كل أشجار الواد الذي يمكننا إلى يومنا هذا مشاهدة بقاياها، بعد أن أحرقت امرأة من الخواء. كانت تلك إحدى كلاسيكيات حكايات البشر مع قل السوف. ابتسم مهدي بزهو لتفاصيل القصة وهو يرسلها من على نافذة الشات بحماسة شديدة. فقد كانت تلك حكاية دهاء طارقية وجبهة بما فيها الكفاية حتى أنه من الممكن أن يأخذ ريتنا أو على الأرجح ريتناج إلى هذا الواد لترى بأم عينها بقايا الحريق إن كانت تريد دلائل ملموسة. وارتسمت على وجه مهدي ابتسامة عصبية وهو يحرق بمربع الشات متوقبا الرد.

انتظر لحظة... لحظتين... دقيقة... دقيقتين... توقف عن مراقبة الوقت.

لم ترد.

انتظر قليلا.

بلع ريقه ببطء.

ربما لم تعجبها القصة.

سحقا!

ارتسم خطان رفيفان بين حاجبيه.

ولكنه سرعان ما فكر في أن الحل الأنسب لهذه الأزمة المحادثائية التي يرجح أن تكون عابرة، هو ببساطة تغيير مجرى المحادثة.

- كم عمرك؟ سأله مهدي على نحو مفاجئ. ثم ابتسم وقد خطر له أن يحتاج ربما تريده أن يدخل في صلب الموضوع. شعر بنبضات قلبه تتسارع. طرح سؤالاً آخر وهو يشعر بنوع من الإثارة :

- هل يمكن أن أعرف اسمك الحقيقي؟ وتوقف قليلا لتلقي الرد.

انتظر لحظة... لحظتين... دقيقة... دقيقتين...

لكنه لم يأت...

فانتبه أنه ربما قد أطل فترة الرد على معشوقته الفيسبوكية وأنها قد انصرفت عنه. وسرعان ما شعر بمغص مفاجئ وفكر :

أيعقل أنها شعرت بالإهانة ولن تكلمني مجدداً؟

ليبدو مباشرة وأن كل أحلام مهدي الوردية التي بناها خلال الربع ساعة الأخيرة قد انهارت. وأحس بغصة في حلقه لا يعرفها إلا العشاق... لحظة الفقد... الجزع... الألم... ال... لكنه تجلد وعاد لبروفابيلها ليتأكد بذلك أنها لم تحجبه. وتنفس الصعداء. لا بد أنها تتدلل. وابتسم الآن

وقد غب نفسا عميقا هائئا. وفرك عينيه وقد بدأ يشعر بالنعاس وهو يدهمه، تتأبب بعمق. ونظر إلى الساعة ليجد أنها تجاوزت الثانية صباحا. انتفض لوهلة وقد أدرك بأن أمامه خمس ساعات فقط للنوم قبل أن يستيقظ صباحا للعمل. وفي اللحظة ذاتها خطر بباله جانلوكا وتلك الورقة التي ناولها إياه صباح ذلك اليوم.

كانت تلك جمل مفككة مكتوبة بحروف التيفيناغ يعرفها القاصي والداني كونها كانت منقوشة على صخور متفرقة في المنطقة، لكنها كانت محكومة بقفل من الصمت... صمت لم يكن يدرك كنهه حتما ذلك الفلكي الإيطالي. وأعاد مهدي قراءة تلك الكلمات وداخله شعور قوي بالارتباب.

هل ينبغي عليّ أن أخبره بشيء ؟

فكر بتردد وهو يطفئ جهازه بينما كانت أحداث ذلك اليوم الحافل تمر كشريط سريع في ذهنه.

- 25 -

كبس على زر الدخول إلى موقع الجريدة الأكثر مقروئية في الجزائر دون أن يعرف ما الذي كان ينتظره تماما، إلا أنه كان يشعر بضرورة متابعة الصحافة الجزائرية المحلية من اليوم فصاعدا.

- الحق.

قرأ جانلوكا العنوان بتيمن، وهو شبه متيقن من أن مشروعا ضخما مثل مشروع الهوقار لا يمكن أن يتم الماضي فيه قدما من دون أن تنتبه الصحافة المحلية لما كان يدور في كواليسه، وذلك بالرغم من السرية الفائقة التي كان يحرص فورتسنبورغ عليها وجميع أتباعه بمن

فيهم هو، بحكم العقد الذي وقعه مع الفيوثر إينيرجي كوربوريشن  
في وقت سابق.

- اللعنة !

تمتم وهو يكبس زر En الذي كان متاحا على الموقع، لقراءة أخبار  
تلك الصحيفة مترجمة إلى الإنجليزية. وتوقف قليلا أمام الصفحة  
التي انفردت أمامه بكل تواضع عارضة بضع مقالات لا يتجاوز عددها  
السبعة، آخرها يحمل تاريخ نشر مضى عليه شهر على الأقل، وقد كان  
أغلبها مأخوذا على ما يبدو من الصفحة الرياضية.

نفث الفيزيائي الإيطالي بشيء من الاستياء، وقلب عينيه في أرجاء  
الصفحة حتى يتأكد من عدم وجود روابط يتنقل بها من الصفحة  
الرياضية على الأغلب إلى صفحة العلوم والتكنولوجيا. لكنه لم يجد  
أي مدخل يسعفه لتغيير المواضيع. وللحظة، شعر باليتم وسط تلك  
المقالات التي لم تكن تدخل حيز اهتماماته وفكر في تغيير اللغة عله  
يجد ضالته. فكبس على زر Fr المتاح والذي كان يحيل إلى المقالات  
المترجمة إلى الفرنسية من الصفحة على أمل أن يعثر فيها على بصيص  
أمل ما.

وقد كانت عناوين هذه الصفحة فعلا أوفر من نظيرتها الإنجليزية  
في الموقع بدائي التصميم على أي حال، إلا أنه عاد ليلاحظ أن أغلب  
المقالات كانت رياضية. ولو أنه لم يقرأ بعض العناوين الاقتصادية  
والسياسية لجزم بأنه قد أخطأ الصحيفة وأنه أمام جريدة رياضية  
ليس إلا.

قلب جانلوكا عينيه بانزعاج بين العناوين المطروحة أمامه، وأخذت  
ملامح الإهتمام تخبو شيئا فشيئا من على وجهه. ليسمح أخيرا لزرقة

ثقيلة بالتححر من عقالها بعدما أدرك أن مقالات هذه الصفحة أيضا محدودة ولا تفي البتة بالغرض.

وعاد مباشرة إلى الصفحة الرئيسية المطروحة باللغة العربية، وقرر أن يستخدم برنامج الترجمة المتاح لديه لأخذ فكرة عامة عن أخبار هذا البلد، ونوع المستجدات العلمية التي يهتم أهلها بقراءتها. وفي ظرف ثلاث ثوان انقلبت الكلمات إلى اللغة الإيطالية. وأتت العناوين غريبة على نحو تجاوز توقعاته عن غباء الترجمة الآلية، والتي وإن لم تكن قد نجحت يوما في ترجمة نص سليم نحويا مائة بالمائة إلا أنها كانت تفي بتقديم لمحة عامة عن المضمون.

لكن ما كان يشاهده أمامه في تلك اللحظات هو عناوين كوميدية بحتة يستحيل أن يتواجد أجزاء منها في أي جريدة كبرى بأي شكل من الأشكال.

Alkhalesh<sup>41</sup> السحرة يغزون شوارع العاصمة.

سنقوم بواجبنا اتجاه أنصار الفريق الوطني لسنا أرجل ماعز.

بصمت العجز الجنسي يغزو بيوت الجزائريين. الحل الرقية.

أبو أنف يصرح

العوانس في الجزائر ناقوس خطر. خطر الشره الجنسي

أمغادي : فرحاوي ابن harki لا يستحق منصبه

ومن الأفضل له أن Yebla Femo<sup>42</sup>

قرأ جانلوكا العناوين المطروحة بالبنط العريض، دون أن يخفي شعوره بالاشمئزاز من هذه الترجمة السقيمة حد العته، ولم يشعر بنفسه إلا وعضلات وجهه قد تكومت على بعضها. ونظر شمال

41. الكخالش

42. يبلع فمو

الشاشة ليلاحظ أن ثمة روابط للمقالات الأكثر مقروئية أيضا في ذلك اليوم. عقد حاجبيه، وكبس على أحدها بنوع من التردد هذه المرة والكثير من الحيرة. لكنه فكر أن قراءة ترجمة مقال ما كاملا يمكنها أن تضيئي شيئا من المعنى لأحد هذه المانشيتات العبثية :

الجماهير تطالب بتطبيق حد الردة على زوجة اللاعب الدولي

عملت مصادر الحق أن زوجة اللاعب الجزائري الدولي السابق يحيى زراف، خلعت الحجاب بعد أن أعلنت إسلامها غداة زواجها من نجم الخضر وهدايته لها إلى طريق الحق في مطلع العام الماضي في مدينة نيس الفرنسية. وقد شوهدت يوم أمس ماري إيف زراف التي حولت اسمها بعد اعتناقها الاسلام إلى مريم البتول وهي تشارك في ماراتون لدعم مرضى السيدا بينما كانت ترتدي سروالا قصيرا (شورت) أبان عن ساقها بالكامل وجزء كبير من فخذها. وقد قامت زوجة زراف التي يعتقد أنها من أم مغربية بنشر صورتها على حسابها على الفيسبوك بعد أن خلعت لباس التقوى لتعوضه بلباس المجون. وقد تم تداول الصورة بقوة بين رواد الشبكة الذين عبروا عن استيائهم من مشاركة زوجة لاعب الخضر في تظاهرة تدعم مرضى السيدا المجاهرين بالمعصية. وقد طالب رواد الشبكة ابن الجزائر الأصيل وابن مدينة فراون في جبال الجزائر الشماء أن يعيد زوجته إلى الطريق المستقيم. وإن تعذر الأمر تطليقها. كما طالب عدد كبير مهاجم الخضر السابق بتطبيق حد الردة على زوجته حتى لا تفتن نساء الأمة.

يذكر أن يحيى زراف كان ضمن التشكيلة التي فازت على فريق جزر القمر في التصفيات المؤهلة لكأس أمم إفريقيا عام 2007.

تخشب جانلوكا في مكانه للحظات وعاد مجددا ليتأكد من أنه نقر عنوان موقع الجريدة الجزائرية الأكبر في البلاد وليس موقعا ترفيهيا

ساخرا. ولكنه فضل تحميل مسؤولية الأجواء غير المفهومة للمقال، للترجمة الآلية التي لا بد أنها أخلطت الحابل بالنابل في هذا الشيء المنشور والذي لم يتمكن من تصنيفه، وإن كان يدخل في صنف المقالات الرياضية أم التابلويد، أو مدونة ما لمتطرفين دينيين.

فرك لحيته في شبه استسلام وعاد للصفحة الرئيسية وهو يمني نفسه على الأقل بإيجاد مدخل للصفحة المعنية بالعلوم والتكنولوجيا في هذه الجريدة، لكنه عبثا لم يجد شيئا.

وبحركة يائسة أغلق جانلوكا فيرو موقع تلك الجريدة العجيبة التي أحالته للحظات إلى تجربة سريالية لم يستمتع للصرحة بها، وبعدما تأكد من حفظ عنوان الموقع على حاسوبه أغلق جهاز الكمبيوتر. واتجه إلى سريره الذي كان ينتظره على حافته مجلد أفلاطون المتضمن المحاورتين الفلسفيتين التي حرص على حملهما معه في رحلته إلى هذا المكان باللغة الإنجليزية وتساءل إن كانت قد لفتت انتباه ذلك الشاب وهو ينظف الغرفة.

تأمل الكتاب الأنيق بنظرة عميقة، وسرعان ما صدرت عنه زفرة حائرة وهو يتذكر زميله في المشروع الذين كانا يحيدانه على نحو واضح من معرفة تفاصيل تقدم البحث في شقيه الأركيولوجي والجيولوجي بأوامر من فورتسنبورغ على الأرجح.

تنهد باستياء وانغرز داخل سريره وهو يستدعي تطورات المشروع التي أخذت تتقاطع تفاصيله مع السر الأفلاطوني الأكبر على الإطلاق.

نظر إلى كريتياس بدفء، وهو يعلم بأنه على مشارف حل لغز هذه المحاورة والمدينة الضائعة التي ورد ذكرها فيها، والتي كان آخر مكان ذهب إليه الدارسون بحثا عنها هو الحديقة الوطنية لدونانيا شمال كاديز بأقصى جنوب إسبانيا حيث خرج البروفيسور ريتشارد

فروند<sup>43</sup> من جامعة هارتفورد بكونيكتيكت للتحدث في حصة بثتها الناشونال جيوغرافيك عن اكتشافه أخيراً لمدينة أفلاطون الضائعة بفضل استخدام صور من الأقمار الصناعية ورادار عالي الدقة يجس الأعماق وخرائط رقمية، إلا أن فروند نسي أن الوصف الأبرز لأفلاطون عن هذه المدينة هو أنها تقع ما وراء أعمدة هرقل وهي الأعمدة التي حدد المؤرخون مكانها بالقرب من مضيق جبل طارق. في حين أن الموقع الذي أشار إليه فروند في الشريط الذي بثته القناة الوثائقية الأشهر في العالم يقع شمالها.

وتذكر جانلوكا كيف أن التيليجراف نقلت عن زملاء عالم الآثار الأمريكي هذا استياءهم مما ورد على لسان فروند وخيبتهم من تسرعه في القفز على النتائج وهم من عملوا على مشروع التنقيب ذاك منذ 2005. حيث صرح الأنثروبولوجي خوان فيلارياس روبليس<sup>44</sup> الخبير التابع للهيئة الحكومية الإسبانية للبحث بأن «ريتشارد فروند وادف جديد على المشروع وكان يبدو منخرطاً في نظرياته الخاصة المتعلقة ببحث الملك سليمان عن العاج والذهب في طرطوس، في حين أن أول استيطان معروف للإنسان في منطقة دونانيا قد سجّل في الألفية الأولى قبل الميلاد» وهو ما يتعارض مع أوصاف أفلاطون للحضارة الضائعة والذي يعود تاريخ دمارها إلى 9000 سنة قبل زمان أفلاطون. وفكر جانلوكا أن لا أحد من علماء بعثة الهوقار اليوم يرغب أن يظهر على الأكيد بمظهر العالم المعتوه، وقد يكون ذلك كما تمنى سبب التحفظ المبالغ فيه من طرف زملائه في الخوض في تفاصيل الاكتشافات التي تم تحقيقها على الأرض.

- لكن لا مجال للشك في أنها هي !

Richard Freund .43

Juan Villarias-Robles .44

غمغم جانلوكا بخشوع وهو يعيد قراءة الصفحة 49 من تلك المحاورة، وأحس لحظتها بصوت نبضات قلبه يتحول إلى قرع طبول « نغوما لونغونودو » البدائية التي صُنعت بحسب تقاليد شعب الليمبا لحفظ الوصايا العشر بعد تحطم تابوت داود. لتزيد هذه الفكرة من بث المزيد من التوجس على نفسه. وقد شعر الفلكي الإيطالي أنه قد يتحول نفسه إلى تابوت داود من نوع آخر إذا ما بقي صامتا عما كان يدور حوله. ذلك التابوت الذي لم يتم إيجاده إلى الآن، بالرغم من أعمال التنقيب الجارية عنه في كل مكان: بريطانيا، الأردن، إيطاليا، جنوب إفريقيا، فرنسا، إثيوبيا... مثله مثل أطلنطس التي بحث عنها الكثيرون في أعماق المتوسط، جزر إيجيه، مثلث برمودا، بوليفيا، أمريكا الوسطى بل حتى في القطب الجنوبي، لكن دون جدوى. إذ لم تكن أوصاف تلك الحضارة البائدة تتطابق مع أي من هذه المواقع الجغرافية، وهي التي حمل سولون قصتها إلى اليونان القديمة وظهرت أول ما ظهرت في محاورة أفلاطون، إلى درجة جعلت الكثيرين يعتبرون هذه المدينة أسطورة لم يكن لها يوما وجود في التاريخ. لكن ليس بعد اليوم. فكر جانلوكا وهو يأخذ نفسه بحزن. بالنسبة له على الأقل. فقد لا يتسنى للعالم التعرف عليها أبدا. ذلك أن هينريك فورتسنبورغ لم يكن ليطلع الإعلام على هذا الاكتشاف بأي حال من الأحوال. إذ أن الرئيس التنفيذي للفيوتشر إينيرجي كوربوريشن في النهاية لم يكن يشبه في شيء صائدي الثروات الباحثين عن الشهرة من أمثال رون ويات<sup>45</sup> الذي أمضى حياته في تصوير نفسه ينقب في الأنفاق ويعلن اكتشافات لمواقع وأغراض إنجيلية في بلدان يعتقد أنها كانت أوطان للأنبياء والمرسلين، على غرار آثار من فلك نوح في تركيا وبقايا من مراسيه في كردستان... وآثار من المنزل الذي سكنه

Ronald Eldon Wyatt .45

نوح بعد الطوفان... وموقع قرى سدوم وعمورة التي خسف بها الله الأرض في البحر الميت وغور الأردن... بل ومخلفات الكبريت الذي بقي من العقاب الإلهي لهذه القرى... هذا عدا عن الموقع الذي وزع فيه يوسف القمح على المصريين بجانب الأهرامات، والذي استخدم خلال السبع العجاف... وكذا مكان برج بابل جنوب تركيا... والنقطة التي انشق من أمامها البحر أمام موسى في خليج العقبة... وطبعا المكان الذي صلب فيه المسيح وتحتة الغرفة التي تحوي بقايا هيكل سليمان في أنفاق القدس ومعها تابوت عهد الرب... كيف لا ومكان التابوت كان المكان الأكثر قداسة في الهيكل، قدس الأقداس. ابتسم جانلوكا وهو لا يصدق المستوى الذي انحدرت إليه القنوات العلمية الوثائقية في السنوات الأخيرة، حتى أن هناك من أكد من خلالها أن ويات وجد التابوت مطابقا تماما للأوصاف الوارد ذكرها في سفر الخروج، من حيث أنه مطلي بالذهب من طرفيه الخارجي والداخلي، وأنه محمول على مساند من خشب السنط المذهبة، والمعشقة في حلقات ذهبية مصبوبة بجانب التابوت. لكن الأسوأ هو أن ويات يحظى هو واكتشافاته بشعبية عارمة بين المسيحيين الأصوليين لا سيما منهم الإنجيليين. على الرغم من أنه لم يكن يعتبر عالم آثار تعترف به أي جهة، وهو الأمر الذي دفع بجمعية مقبرة باب الساهرة في القدس لتفنيد تصريحات ويات باكتشافاته المزعومة للكنوز الإنجيلية، نظرا للاهتمام الإعلامي الكبير الذي كان يحظى به والمصدقية الشديدة التي كان يحيطها بها المتدينون من أتباعه.

وتبسم جانلوكا في تهكم خالطه شيء من الأسى على حال من كان يطلق عليهم اسم المؤمنین بالخزعبلات الإنجيلية، وأنبيائهم الجدد العاشقين للأضواء والذين يتسابقون على الظهور الإعلامي لإعلان اكتشافاتهم السخيفة تسابق نجوم تلفزيون الواقع لعرض مؤخراتهم

على التلفزيونات والمجلات. واستحضر صورة الرئيس التنفيذي للفيوتشر إينيرجي كوربوريشن قليل الكلام الذي كان يتميز بهدوء لا يشبهه فيه إلا هدوء تمثال إبيح الثاني المعروض في اللوفر. بل كانت جميع تفاصيل ذلك الألماني البراغماتي تذكره على نحو غريب بتماثيل حكام وآلهة بلاد الرافدين المعروضة في متاحف أوروبا.

وقد لا يكون ربط جانلوكا لصورة فورتسنبورغ الذهنية في عقله بصورة تمثال إبيح الثاني السومري المصنوع من المرمر، هي صلته اللامعة فقط ولا عينيه الكرويتين الزرقاوين المصنوعتين من الصدف واللازورد وصخر الشيست واللتان كانتا تشعان بهناء طفولي ملغز. بل قد يكون ذلك بالدرجة الأولى لحركة الذراعين الثابتة التي كانت ملازمة له، حيث أنه لا يذكر أنه رآه من دونها، وكأنه كان يعيش باستمرار حالة صلاة متدفقة لم يكن أحد غيره يعرف لمن كان يتوجه بها. تماما مثلما لم يتأكد المؤرخون يوما من ماهية الآلهة التي كان يعبدها سكان ما بين النهرين، إلى درجة جعلت زكريا سيتشين يؤكد أن السومريين كانوا يعبدون مخلوقات فضائية أتت من كوكب مجهول اسمه نيبرو. وعادت في هذه اللحظة إلى ذهن جانلوكا الصور الأولى التي التقطها القمر الاصطناعي « نيبرو » للهوقار، وإمكانية ارتباط الفجوات المنتظمة في باطن الأرض في هذا المكان بلغز الطاقة المظلمة الذي حير الفيزيائيين منذ اكتشاف تمدد الكون.

لكن هل يملك السكان المحليون أدنى فكرة عما يحصل حولهم؟ واستحضر اللعة الغربية التي لمحاها في عيني ذلك الشاب وهو يناوله صبيحة ذلك اليوم الورقة التي سجلت عليها تلك العبارات الغامضة المكتوبة بخط التيفيناغ. وفكر في طريقة ما لتسريب ما يحمله من معلومات له، ولم لا للصحافة المحلية.

من بعيد، لمح ذلك الطارقي نارا مضطربة في أحد التجمعات من أحد الوديان التي كان يتجه صوبها. وبمجرد ترجمه من على صهوة جملة حتى تمت دعوته لتناول الطعام. ولكونه كان يتضور جوعا اختصر كثيرا من التحيات المطولة وجلس مباشرة إلى مكان المأدبة.

لقد كان يلتف حول تلك السجادة الرائعة رجال يلبسون زي الطوارق لكن من دون أن يتبين مكانتهم، إذ أن لا أحد منهم يشبه بطريقة ارتدائه الثياب أحدا من حيزه الاجتماعي. وبدا له كل شيء غريبا من حوله، إلى أن تم تقديم الطعام في أواني من الذهب ليتبين له بأنه في ضيافة قل السوف فالتقط صحنه وهب من مكانه في لمح البصر طالبا ناقته التي لم تكن لحسن حظه مقيدة، وفرّ على جناح السرعة. ولدى ابتعاده بما يكفي عن ذلك المكان أراد تأمل الآنية الذهبية التي أخذها معه إلا أنه لم يجدها بين أغراضه ليتأكد أنه كان يمكن أن يكون ضحية لقوم الخلاء...

أغلق هينريك كتاب الأساطير الطارقية المطبوع عام 1972 والذي كان يعكف على قراءته منذ أسبوعين دون أن يبدو عليه أنه قد وجد فيه ما كان يبحث عنه. وضع الكتاب على طاولة السرير. وعدل من وراء ظهره الوسادة الوثيرة التي كان يشعر في تلك اللحظات أنها جزء من عموده الفقري. وتداعت إلى ذهنه قصص المخلوقات الصحراوية التي لم تكن تطل بوجوهها الشفافة على أحد إلا على سكانها. « قل السوف » في صحراء الساحل و« القوم القادمون من فوق » في صحراء المكسيك الصامتة. وذكره ذلك بالمحادثة التي جمعتها اليوم بمساعدته فرانك، ليقطب بانزعاج.

لم يكن هينريك يحب أن يعيش أجواء « الظلمة المعرفية »، وهو الوصف الذي كان يستعمله على حالة عدم تمكنه من الحصول على معلومات لآخر الأبحاث العلمية في المجالات التي كانت تهمه : الطاقة... علم الآثار... الفلك... لقد كانت كلها مجالات متشابكة. والأكد أنه حالياً لا يتهيأ على أي معلومة عن الأبحاث التي انطلقت في صحراء المكسيك الصامتة عام 1970. وتنهى وكأنه كابد شعوراً ما بالألم. إذ لا يزال فورتسنبورغ يذكر كيف أن خبر سقوط الصاروخ الأمريكي « أثينا »، المنطلق من قاعدة وايت ساند بقرب نيو ميكسيكو وتحطمه على نحو غير متوقع وغير قابل لأي تفسير في بقعة ملغزة، جعل العالم يكتشف خصائص صحراء عجيبة لا يعرف لها مثيل في كامل أرجاء المعمورة.

وتذكر هينريك تفاصيل ذلك الخبر حيث نُقل عن فريق المحققين التابع لسلاح الجو الأمريكي أنه وبعد زيارتهم لمكان الحادثة، بموافقة من السلطات المكسيكية من أجل التعرف على أسباب سقوط الصاروخ، لا يزالون يؤكّدون إلى يومنا هذا أنهم لم يصلوا إلى أي نتائج بخصوص تلك الصحراء الصامتة، وذلك بالرغم من أن الكثيرين يشككون في الأمر. وفرك هينريك الآن عينيه بعصية. فقد كان هو أكثر من يعرف الجانب المظلم لميدان البحث العلمي الذي لم يشهد الارتفاع في عدد الباحثين فيه خلال السنوات الأخيرة ارتفاعاً مماثلاً للميزانيات المخصصة له. الأمر الذي جعل من الباحثين في هذه الأيام أداة طيعة لدى ممولهم، يوجهون أبحاثهم في الوجهة التي يريدونها لهم، ويصرحون بما يتناسب مع توجهات مراكز البحث التي تمولهم، كما يمكن أن يحجموا عن نشر نتائج تقوض مصالحها إن استدعى الأمر.

- والأكد أن هناك من لا يريد كشف سر تلك الصحراء لأحد !

وتنح في سريره باستياء وعاد لتهدئة نفسه على أي حال. ذلك أنه وبالرغم من أن جريدةً مثل الفينانشل تايمز قد تحدثت مؤخرًا عن الفساد المنتشر في الأوساط العلمية وكشفها عن شهادات لباحثين صغار تم فيها تهديدهم بعدم نشر نتائج أبحاثهم التي تأتي مخالفة للأفكار السائدة من أجل الحفاظ على وظائفهم وتحت طائل فسخ عقود عملهم، إلا أن موضوعا كهذا لم يكن ليثير الرأي العام العالمي. - لحسن الحظ. فكر هينريك باطمئنان وهو من كان يمول من خلال شركته العديد من الأبحاث التي لم يكن يسمح لأحد بنشر نتائجها في أي مجلة علمية قبل أن يقرر ذلك بنفسه. والأكد أن نتائج الأبحاث الدائرة حاليا في الهوقار ليست منها.

وابتسم وهو يتذكر مجموعة العلماء المميزين الذين وظفهم تباعا للعمل على مشروعه، من أجل كشف سر الثقوب السوداء الملعزة في الهوقار. ولكنه فجأة عبس، وبدا وكأن غمامة سوداء قد مرت على رأسه، بعد أن خطر جانلوكا فيرو بباله. فكر بحنق وهو يذكر كيف أن ذلك المهذار طلب في اجتماع جنيف الأخير وقبل أن يتوجه إلى الجزائر، وبوقاحة منقطعة النظر نشر نتائج اكتشافات « نيبيرو » في مجلة « جيوساينسز »، متجاهلا تماما البند الأهم في عقده مع الشركة وهو الاحتفاظ بسرية النتائج والالتزام بعدم كشفها مطلقا حتى بعد انتهاء عقد العمل.

ونفث هينريك بغیظ وعاد يفكر في الصحراء المكسيكية الصامتة، وكيف أن فريق البحث الذي شكلته الحكومة المكسيكية كما تم زعمه، والأرجح أنه فريق ممول أمريكيا، لم يسرب أي معلومة منذ أكثر من أربعين سنة عن تلك المنطقة الغريبة التي أطلق عليها العلماء اسم « الغلاف الحيوي »، ولا حتى على بعض المنتديات العلمية للشبكة

المظلمة والتي كان يتم فيها عادة تبادل الخبرات بين باحثين يقومون بتجارب محرمة.

وقد كان الهدف المصرح من البحث المتواصل في المكسيك هو دراسة الحياة البرية غير المعهودة في تلك المنطقة. إلا أن الجميع كان يعلم أن أبحاثا من نوع آخر كانت قائمة على قدم وساق في تلك الصحراء النائية التي لم يكن من الممكن فيها التقاط إشارات الأثر على نحو عجيب، الأمر الذي جعلها أشبه بمنطقة مظلمة لا يمكن فيها التقاط إشارات تلفاز، ولا مذياع ولا أمواج قصيرة، حتى من فرن كهربائي. ولم يكن بذلك أي قمر صناعي قادر على اختراقها، الأمر الذي جعلها تحمل اسم البقعة الصامتة، وحوّلها إلى محج للعلماء والباحثين الراغبين في فك طلاسمها.

ومسد هينريك الآن ذقنه المتراجعة بظهر وسطاه اليمنى وأطلق تنهيدة عميقة فيها شيء من الرضا.

- أما أنا فعلى الأقل تمكنت من شراء صحراء أخرى لا تقل أهمية عن الصحراء الصامتة ! وابتسم رئيس الفيوتشر إينيرجي كوربوريشن بخبث. بل قد تكون أهم صحراء وجدت على سطح الأرض على الإطلاق. غمغم بسعادة وهو يهنئ نفسه على الصفقة الجزائرية الرابحة التي اشترى بموجبها حقوق التنقيب في منطقة الهوقار على الآثار كما زعم مقابل بضع ملايين دولارات دفعها لبرميل جزائري بائس، يعيش متنقلا كالأبله بين ميامي وجنيف ولندن وباريس تاركا مهمة حلب إبله لشركات طاقة أجنبية، لم يكن يستطيع لولاها شحن هاتفه الأذكي حتما من رأسه المصننة. فكر هينريك وهو يكشف عن وجهه الهواء بشيء من التقزز وكأنه يطرد عن ذهنه وجه ذلك الكريه المدعو كاكا، والذي كان يحسب على جنس البشر.

- النكرة !

وبحركة لإرادية وجد نفسه يفتح مجددا كتاب أساطير الطوارق وبدا وكأنه يبحث فيها عن تفصيل ضائع. كان على نحو ما يحاول إيجاد أوصاف جسدية لأولئك القوم الذين كانت تحفل بهم قصص الطوارق. أولئك القوم الذين كانوا يتشكلون بحسب الأساطير المحلية من أرواح لا تُرى في النهار ولكن مع حلول الليل يمكنهم التمثل في هيئات مختلفة.

قل السوف.

كان من المثير للاهتمام البحث عن طبيعة أهل الخواء هؤلاء على هلاميتهم، أكثر من محاولة فهم ماهية ذلك الكائن الإسفنجي المتشكل من الممال المسروق. فهو في النهاية يشبه غيره من البراميل التي لم تكن تنعم بمادة رمادية في مكان ما في قمة رأسها، تؤهلها للتطور من حالتها الشبيهة القابلة للرمي في أقرب مكب زبالة إلى حالة بشرية قد تكسبها بعض الاحترام. أما أن تفكر في الاقتراب من ملامسة المدارات السماوية العليا فقد كان ذلك بعيداً بعد تمنغاست عن البحر في خيال طفل وُلد لأب تائه بين خيال خيمة بائدة، وعمارات قببحة غرست وسط صحراء قاحلة. فكر هينريك وهو يتناول كتاب الأساطير الطارقية، معيدا قراءة آخر قصة توقف عندها لقل السوف، والذين بدوا فيها ملثمين على غرار « جيرانهم » الطوارق دون أن يتمكن من اقتناص شكل عيون أو لون بشرة أحد منهم. وبالرغم من أنه حاول من خلال بقية القصص إيجاد أي توصيف حسي لهؤلاء لكنه لم يحظ بأي معلومة في هذا الصدد. فقد كان قل السوف بحسب الأساطير لا يظهرون عادة سوى في الليل، أما النهار فقد كان يعد الوقت الأفضل ليرزوا فيه انجازاتهم بأساليب استعارية.

إذ أن جميع تجليات قوى الطبيعة في صحراء الهوقار تعزى لهؤلاء القوم : الأعاصير، الصدى، فيضانات الوديان، الانهيارات الصخرية، النيران التي تلتهب بتلقائية وسط الأعشاب الجافة. وتذكر هينريك التقرير الذي وصله منذ أسابيع عن طبيعة الصخور التي كانت تؤثت الفضاء العجيب لتلك البقعة القمرية الغريبة على وجه البسيطة.

فعلى الرغم من أن مناخ تمنغاست الذي يبدو للوهلة الأولى لطيفا وديعا بفضل حرارته المعتدلة، إلا أنه لا يلبث يشعرك بالإرهاق. وهي الملاحظة التي سجلها بتعجب جميع من مكث لمدة في المنطقة، الأمر الذي يجعل النشاط الفكري فيها صعبا للغاية. كما تزيد الحالات العصبية لدى الزائرين من الرجال والنساء على وجه الخصوص لدى بقائهم مطولا في المكان. هذه الحالات العصبية الغريبة لا تعود للارتفاع الكبير للمنطقة عن سطح البحر ولا للجفاف الكبير للهواء فقط. إنما أعزى الكثير من المنظرين في القرن الماضي السبب إلى تفاعلات مغناطيسية أو إشعاعات من نوع ما. ولم يتمكن أحد من إيجاد حل لهذا اللغز.

لكن ليس بالنسبة لي ! وكتم الآن هينريك ضحكة جلجلت كالصدى في أعماقه المظلمة، وهو يقلب صفحات الأساطير الطارقية التي لم تكن تنهل من المخيال الشعري الذي يسكن الطارقي بطبعه فحسب، ولكنها أيضا تستند إلى ظواهر مناخية خاصة بتلك المنطقة التي كانت تتفجر فيها على نحو مبالغت أعاصير عنيفة، وتشهد هبوب رياح رملية عاتية بشكل غير متوقع مع ما يصحب ذلك من هيع ونعير. وقد كان من شأن ذلك النفج والعجيج أن يفقد القوم الرحل الأكثر خبرة حس التوجه البراني والجواني معا، وتزرع في أنفسهم الوسوس وبذور الأوهام.

وضيق هينريك عينيه وقد عادت إلى ذهنه قصص مشابهة لسكان البقعة الصامتة في صحراء المكسيك. مشاهدات لأنوار غريبة في الليل، أجسام طائرة، احتراق مفاجئ للأشجار، ظهور لكائنات غير بشرية. كلها شهادات تعد كثيرة قياسا لعدد سكان ذلك المكان الغريب. حتى أن هناك من أكد مشاهدته لأطباق طائرة تحط في المكان في جنح الظلام.

ونفض هينريك الآن من سريره وهو يصارع الصحو في هذه الساعة المتأخرة من الليل واتجه إلى مكتبه المهيب. فتح الباب كالمَنومٍ مغناطيسيا، لتقابلته خزانة الأنوناي. توقف للحظات، وانحنى على نحو لإرادي أمامها بحركة طفيفة كأنها كان يؤدي طقس تحية جلييلة. واتجه بثقة نحو أحد الرفوف. تناول منه بخفة كتابا محمدا في فن ما قبل التاريخ. قلب صفحاته بعناية، وتوقف فيه أمام نقش على الصخر يعود تاريخه لـ 7000 سنة وكان قد اكتشف عام 1966 في كويريتارو بالمكسيك.

ضيق هينريك حدقيه وهو يدقق في الصورة التي كانت تظهر أربعة أشخاص يمدون أيديهم للأعلى في شبه تضرع إلى آلة مشعة أسطوانية الشكل. ما الذي يمكن لهذا الشيء أن يكون ؟ تمتم باهتمام. وعاد لتقليب صفحات الكتاب الذي يبدو أنه كان يحفظ تلاميذه. ليتوقف أمام رسمين مأخوذين من كهف تنزانيا يعود تاريخهما إلى أكثر من 29 ألف سنة. وتنهده الآن بوجد كأنها كان يشاهد تلك الصور للمرة الأولى.

لقد كانت إحدى الرسوم التي تم إيجادها في كهف في إيتولو تظهر عربات بشكل أسطواني، بينما يظهر الرسم الآخر أربعة كائنات تحيط بامرأة على نحو شبه استكشافي. وكائن آخر يطل عليهما من آلة مربعة الشكل.

- 29 ألف سنة ! غمغم هينريك وهو يقلب صفحات الكتاب الذي لم تكن تخلو صفحة فيه من رسوم لكائنات شبه بشرية. وعاد ليستذكر قصص قل السوف ونظرائهم في الصحراء الصامتة الذين كانوا بيضا بحسب رواية عائلة من المزارعين المحليين. وكان شعرهم أشقر طويل. تلك كانت مواصفات الكائنات الغريبة التي كانت تزورهم بانتظام وتخاطبهم بإسبانية لا غبار عليها. لم يكن هؤلاء يطلبون شيئا سوى الماء. لا شيء غير الماء. ترهات مزارعين... أشعار بدو رحل... وخيال فني جامع لكهنة العصور القديمة ؟ فكر هينريك وهو يضع الكتاب جانبا. وماذا عن ذلك الباحث الذي ضاع في الصحراء الصامتة وتمكن من العودة إلى مركز البحث زاعما أنه قد تمت مساعدته من طرف ثلاثي أشقر غريب الشكل. كانوا جميعهم يرتدون معاطف طويلة وقبعات بيسبول وهو نفس الوصف الذي أتى به فريق تحقيق صحفي وقع ضحية عاصفة رعدية في الصحراء تعطلت سيارتهم فيها على إثرها وقد ساعدتهم أشخاص غريبو الهيئة. قصص صحفيي إثارة!؟ وسحب الآن محاورة كريتياس لأفلاطون وتأملها للحظات.

- ما هو كم الحقيقة والخيال في كل ما يحيط بنا يا ترى ؟  
تمتم مقلبا صفحات المحاورة مع سبق الإصرار وهو يفكر... الأكيد أن ثمة ظواهر طبيعية تتحدى المنطق هنا وهناك تنتظر للعلم أن يفك شفراتها.

وجلس بهدوء إلى مكتبه دون أن تبدو عليه علامات النعاس في هذا الوقت المتأخر من الليل. والأكيد أنه كان ينتظر رسالة أو مكالمة.

- خنخان وصل جنيف...

- ماذا وراءه ؟

- علاقة والده مع بعض الجنرالات الفاعلين متوترة بحسب ما وصلنا... يبدو أنه خرق اتفاقيات مهمة.  
- أي اتفاقيات ؟  
- الأمور غير مبشرة.

- 27 -

كانت تلك الكلمات من كريتياس تبدو وكأنها تخاطب شيئا يعرفه في نفسه.  
- هل كان هذا هو الكتاب الوحيد الذي جلبه معه جانلوكا فيرو هذا ؟ سأل بامتعاض.  
- نعم... ورقيا.  
كان ذلك يعني أن هناك كم قد لا يحصى من المواد الإلكترونية التي لا يبدو أن هناك طريقة ما للعثور عليها حاليا. فكر وهو يتأمل التصاعد الأنيق لدخان سيجاره دون أن ترتسم معالم محددة على وجهه.  
- عموما لا بد من أن ننتهي من خنخان في أقرب وقت.  
ونفث ذلك الاسم كبصقة ملقيا على الجرائد المكومة على الطاولة نظرة مشفرة.

- 28 -

تفحص سعيد شكيكن كعادته شريط الإدراجات على حسابه في الفيسبوك. ولم يفته إحصاء كم الإعجابات التي حصلت عليها مختلف

المنشورات التي كان ييئها على مدار الساعة أصدقاؤه في ذلك الفضاء الأزرق، المكون من زملاء له في مؤسسة الحق وآخرين من مؤسسات إعلامية مختلفة في العاصمة وخارجها، ممن كان أغلبهم يحرص على كتابة اسمه الكامل مسبقاً بصفة إعلامي بعد نشره لمقال صحفي عن ارتفاع سعر البطاطا أو انخفاض الإقبال على السردين. أو ممن يضعون صورة لبروفيلهم لقطعة تلفزيونية تكون كفيلاً لتحويلهم إلى كائنات شهيرة تثرئ لها الأعناق. وكان جل هؤلاء بتقدير سعيد، من الحالمين بفرصة عمل في القنوات العربية المرفهة، حيث تتلخص أقصى طموحاتهم الفيسبوكية، في نشر صور يكون برج العرب خلفية لها أو برج إيفيل. وإن كانت الكفة أخذت تميل منذ سنوات إلى خلفيات العواصم الخليجية، بسبب تدهور اللسان الفرنسي بين الصحفيين، والتكوين التلقائي في عمر الزهور على لكناات قنوات النايلسات. ولا بأس مبدئياً في نشر صور من لوبي فندق مصنف بخمس نجوم في الجزائر ليدل على شيء من العز.

وتوقف سعيد للحظات أمام صورة لصحفي مجهول، كان يبدو وكأنه قد حبس أنفاسه وهو يتصور مع صديق له على شرفة « لابراسري » في الشيراتون وخلفه يظهر الخضار الباذخ لنادي الصنوبر، وزرقة بحره التي لم يكن يميزها شيء سوى أن رمال شواطئه لم تتلوث بأجساد بقية الشعب. وتوقف المشرف على « ثقافة الحق » قليلاً أمام الصورة وبحركة لإرادية تلمظ وهو يتخيل كم الطعام الذي استهلكه ذلك « الأنوش » قبل التقاط الصورة. وأعاد قراءة اسمه وهو يكر على أسنانه بحقد، متنبأً له بشهرة ما، في قادم الأيام بعد سهرته التي لا بد أنها كانت حمراء في الفندق الأعلى بالجزائر.

- خماج !

نفث سعيد وهو يمرر بشيء من القسوة كفه على شعره الأسود القصير، لتتراءى له الآن صورة ضبابية لشاروخان. وسرعان ما انعقد حاجباه وقلع يده عن رأسه الخشنة بقوة، معاودا النظر لخلفية الصورة الصنوبرية التي تجاوز عدد الإعجابات بها الثلاثمائة. ثم أخذ نفسا عميقا وذكر نفسه بأنه ليس ممن يسعون لأخذ صور تذكارية في تلك البقعة المخملية من العاصمة وإما ممن سيكون لهم موطن قدم دائم فيها.

ورسم على وجهه ابتسامة بوليوودية وهو يضيق عينيه، دون أن يركز نظره في شيء محدد وإما غطس في أفكاره التي لم يكن يحرم نفسه من التلذذ بنعيمها. فيلا واسعة وسيارات فارهة، ولم لا غليون في يده اليمنى، ورولكس على معصمه اليسرى... تلك الساعة التي كانت صور إعلاناتها قد بدأت تغزو مؤخرا العاصمة، بعد افتتاح متاجر رسمية لبعض الماركات العالمية. وقد أصبح من الممكن أخيرا أن يغمس الجزائري يده في القليل من الترف الذي كان يشاهده على شاشات التلفاز الأجنبية طيلة سنوات الاشتراكية، وبعدها تلك العشرية... أما الآن وقد حل الأمن والأمان فأهلا بالماركات المعروفة، أهلا بالمراكز التجارية، أهلا بالنعم... أهلا بالنوتيل... أهلا بـ «تاج محل»... أهلا بزارا... لقد كان الجميع جائعا... خميصا... غرثان... ملهوبا... لكن سعيد عاهد نفسه أن يشبع أخيرا... سيملاً بطنه الخاوية... سيحصل على «أودي Q5» سوداء ضخمة أو حتى لاند روفر بيضاء يقودها في شوارع العاصمة الضيقة، ونظارات راي بان أصلية... أو ربما تلك الماركة الأخرى... لا يعرف اسمها... وسواتش من «سونتخ كومبغسيال دو باب الزوار»، وثياب من... من... سيدي يابا... بل وعلى شقة كاملة في موريتي... وسيصبح شبيها بشاهيد كابور أو سلمان خان أو فاروم داوان...

وسيستعمل الكيراتين... أستغفر الله... أيا كان المهم أنه سيصبح مهما... وسيما... قويا على نحو ما، وسيضع أكسسوارات لا تليق إلا بأصحاب الفخامة، لكنه على أي حال لن يضع حليا ذهبية. فكر الآن وهو يعدل جلسته بجدية. كما أنه سيتمتع بالنساء... الكثير منهم على سنة الله ورسوله... وسيكف جميعهن رهن إشارته... وسيتزوج شقراء... لا بل أربعة من الشقراوات البضات الغضات اللواتي قد يسجدن له بعد الله وسيكف جميعهن من اختيار الوالدة أطال الله في عمرها، وإن تجرأت إحداهن على رفع عينيها في وجه « لعجوز » التي سيرسلها إلى الحج كل سنة، وإن سمحت صحتها مرتين أيضا كل عام لأداء العمرة، سيكون مصيرها ركلها لمنزل والدها والإتيان بغيرها...

- الماديات الحقيرات! غمغم بحقد. ولكنه سيعلمهن الأدب. فكر وهو يزم شفثيه بنق. سيدخل إلى البيت وينظر إليهن بازدراء وسيرمي بعض المال في وجوههن للتبضع، ثم يصرخ في وجوههن إن قاطعن حديثه على الهاتف وهو يعقد صفقة... ويقلب الطاولة على رؤوسهن إن شعر أن لحم « المثلوم » غير متبل بما فيه الكفاية... وسيصفعن إن هن تجرأن على الشجار أمامه... وقد يستمتع أيضا بتجارب جانبية... قد يعاشر بعض « البابيشات »... من طراز تلك المتبرجة صاحبة الكعب الأحمر ومثيلاتها. لتتراءى له الآن صورة زميلته المحسوبة على معسكر « العاهرات والمخنتين » في مؤسسة الحق.

- الرخيصة... الكلبة! ليجد نفسه يهذر بوابل من الشتائم لتلك الصحفية التي لم تجمعها بها يوما أي محادثة جانبية. ودون أن يشعر وجد نفسه يحط على صفحة مغنية الراي « إيمان لا مينيون ».

- الخامجة حاسبة روحها حاجة كبيرة... يموتو على الحديدية! وعاد الآن لينغمس بشرافة في أحلام المال والنفوذ التي سيشتري بها النساء

كل النساء اللواتي يشتهيهن... من شقراوات وصهاوات صاحبات الميني و« الفيزوهات»... وسيعدهن في عداد ما ملك اليمين... كما سيحظى أيضا ببعض الغلمان. وكح بقوة وعاد لتمسيد شعره بعصيبة، وقد لاح أمام عينيه خيال رئيس القسم الوطني « فريد الأنوش » صاحب الشعر اللامع وربطة العنق الوردية.

- أما أنا فلن أقبل بوضعية أقل من وضعية الحاج !

غمغم بحقد وهو يتوجه بفأرته إلى ملف الصور من على حاسوبه، وقد بدا وكأنه يخطط لأمر ما. وتلوث النصف السفلي من وجهه بربع ابتسامة قذرة وهو يقلب الصور التي كان يحتفظ بها في ذلك الملف العزيز على قلبه IMAGEBO3 والذي كان يستمتع أيما متعة بالإطلال على محتوياته كلما فتح حاسوبه.

لقد كانت تلك الوجوه المتشنجة حيننا والمعرفة حيننا، تظهر لقطات مقتنصة ببراعة لأشخاصٍ بأفواه مفتوحة مع جفون مطبقة، وشفاه أخرى مزمومة في تكوير يشبه الأُم مع جباه مقبوضة. وقد كانت جميعها ملتقطة بكاميرا يابانية من نوع Canon EOS Rebel T2i بدقة 18 ميغابيكسل إلا أن عين مصورها كانت جزائرية بامتياز، وهو الذي حرص على استخدام آلة تصويره الأجنبية المتطورة بمهارة منقطعة النظر، حيث بدا أن كل الصور قد أتت تحت ثيمة واحدة محددة هي الخلوة البيولوجية.

- آه يا ميلود يا ميلود !

وابتسم سعيد متذكرا مصور الجريدة الأخرق الذي لم يكن ينتج سوى صور تليق بالجريدة الأكثر مقروئية في الجزائر. وتوقف لبرهة أمام صورة أحد الشعراء الحاملين وهو منهمك في حديث نشر له قبل أسابيع على موقع « ثقافة الحق ». وقد حرص ميلود على أخذ صور له

من زاوية أسفل ذقنه تظهر أنفه أكبر بثلاث مرات من حجمه الطبيعي بل ونكش في أعماقه ليظهر شعر منخاره أيضا. وصورة لكاتب آخر فتح له موقع ثقافة الحق ذراعيه ليشنكي من تجاهل وزارة الثقافة لموهبته، فافتنص له المصور طيلة فترة الحوار التي خصصها له الموقع بكل حب، لحظة بدا فيها وكأنه يعاني حالة إمساك شديدة جحظت فيها عيناه كبومة بينما كان يضغط على أسنانه بقوة، لتكتمل روعة اللقطة المقربة عن قصد، بتبيان جميع تفاصيل حبوب وجه الضيف الحمراء منها والبنية وبعض من آثار القشرة على كتفي سترته، وذلك بعد تفعيل خاصية تصوير الحشرات بتلك الكاميرا، والتي من شأنها إظهار ما لا تراه العين المجردة.

والواقع أن سعيد كان يعلم بأنه لم يكن يُطلب أي مؤهل في مصوري « الحق » وأقلها الموهبة الفطرية لاقتناص اللقطات تحت الإضاءة المناسبة، في اللحظة المناسبة، من الزاوية المناسبة وإظهار اهتمام ما بموضوع الصورة لإخراج أفضل ما فيها. ذلك أن تصوير الزومبي برأيه لم يكن يتطلب سوى الالتزام بمعايير الرداءة الحقية المعمول بها من طرف جميع الموظفين في المؤسسة بدءا من الحاج المدير العام مسؤول النشر، مرورا برتبية الكحلوشة، نهاية بأصغر منظمة في الجريدة، مع الحرص على تغذية روح السخط من الكل والكراهية للجميع للخروج بأسوأ ما عندهم.

والحقيقة أن مهارات مصور « الحق » الذي فشل في الحصول على شهادة التعليم المتوسط، فتوجه إلى فن التصوير الفوتوغرافي وقد كان يكفيه شراء كاميرا بعشر ملايين سنتيم ليعتقد أنه مصور من طراز روبرت كابا كانت تتجاوز ما كان يتوقعه سعيد شكيب في إظهار أقبح ما في الشخصيات التي كان يمنّ عليها بحوارات في موقعه، وكان يحرص

على تزيينها بصور ملتقطة بعين جزائرية أصلية لا تليق برأيه سوى بمخلوقات بُرازية من هذا القبيل.

وتضاحك سعيد وهو يهم بإغلاق ملف صورته المحببة، وقد بدا وكأنه اكتفى بجرعة اليوم من البشاعة. ثم نظر بفخر إلى صورته التي كان يضعها على موقع ثقافة الحق مع تعريف بنفسه كمشرف عام على الموقع، وتأكد من أنها تظهر شبهه بتاركان أو هريثيك روشان، مع فارق أن عينيه ليستا ملونتين كما أنهما ليستا باتساع عيني الممثل البوليوودي الشهير ولا شعره الأملس الطوي... سحقا. لتذكره هذه الجزئية بذلك المخنث العينين صاحب ربطة العنق الوردية الذي كان يكبس شعره الناعم بجيل لماع، والذي يبدو أنه كان مصرا بذلك على سرقة كل أحلامه. لتحط كف سعيد على سطح رأسه بحركة غريزية أطلق معها تنهيدة عميقة وهو يتأكد من أن شعره المقصوص بعناية لم يتجاوز الحدود غير المقبولة في الطول بعد، والتي من شأنها تحويل رأسه إلى شيء يشبه صوف كبش أسود مجنون قد حط على يافوخه.

وقبل أن يقفل سعيد ملف صور IMAGEBO3، ذكره تعبير بيولوجي لأحد الوجوه المختارة من حوارات الموقع بفكرة كانت تراود ذهنه منذ مدة. وابتسم برضا وعاد لقراءة تلك الرسالة الغريبة التي وصلتته على بريده الإلكتروني في وقت سابق مرفقة بصورٍ وسمت بأنها حصرية. أعاد تأملها بعمق في هذه اللحظة. تناول هاتفه. بحث عن رقم ميلود. وفكر أن وقت بدء العمل الجاد قد حان.

- 29 -

مسد يحيى شاربته الخفيف، بحركة منفرجة من طرفي سبابته والإبهام. ثم مرر كفه على النصف الأسفل من وجهه بحركة منتظمة

مرة... مرتين... وثلاثة... إنهاها بملاقة إصبعيه الرفيعين، وضمهما عند طرف ذقنه في لحظة تأملية، وضعت شيئاً يشبه النقطة الأخيرة لملخص انطباعاته عن ذلك اليوم.

لقد كان لا بد من صناعة وجه جديد للمعارضة بل ونوع آخر لها من أجل فتح ملف خنخان للرأي العام في الفترة القادمة. وعبث الآن بنثرته في حركة تساؤلية كان يقوم بها كلما عجز عن فهم تعليمات تصله من القمة.

- لكن ما السبب وراء الرغبة القوية للقيادة في الإطاحة بخنخان الآن يا ترى ؟

وضغط الآن بشيء من القوة على تلك الفرجة، التي كانت تتموضع على نحو غير قابل للتفسير ما بين شاربيه ووتره الأنف. وحاول تذكر معطيات جديدة قد تبرر هذه التحركات غير المفهومة بشأن خنخان، لكنه لم يجد شيئاً غير سرقاته الاعتيادية. ثم أطلق زفرة مستسلمة. ومن كان له معرفة سر هذه الجزئية الحيوانية بالأساس في وجهنا؟ فكر وهو لا يزال واقفاً عند تلك التفصيلة التشريحية الغامضة فوق شفته، متممناً بخضوع تعبدي، وهو يعيد قراءة التعليمات القادمة من الجزائر العاصمة.

- الله أعلم !

غمغم بنبرة شبه روحانية، رافعا باستسلام سبابته عن فرجة شفته. ثم تناول سيجارة من علبة مارلبورو خضراء كانت على الطاولة. وفتح ملفاً كان يعلم أنه سيفتحه بقوة آجلاً أم عاجلاً. رسم على وجهه ابتسامة كلبية، وقلب صور ابن الوزير المتطاول، التي كان يراكمها منذ فترة غير قصيرة. ثم توقف أمام صورة له على يخته الجديد « ماي

بأميلا» برفقة حبيبته السويدية. وتضاحك يحيى وهو يفكر أنه ولإلحاق عطب حقيقي في نفس نزيـم خنـخان، كان يكفي أن يسرب صورته هذه مع كرشه المتدليلة على سروال سباحته الأزرق فقط، بعد أن يقص صورة حبيبته الشقراء، ليذره وحيدا غارقا في شحومه وسط تلك المشهدية الهوليوودية الساحرة. ويترك الباقي على التعليقات الساخرة على مواقع التواصل الاجتماعية، دون أن يحقق لابن الوزير الأبله حلمه الكنداولسي، ويقدم له خدمة إرضاء ميوله الجنسية المريضة أمام ملايين من المنحرفين.

وسحب موظف السفارة نفسا طويلا من سيجارته التي أتت بطعم المنثول مستمتعا بالفكرة. فهو لم يكن ليرضي غرور ذلك المعقد من حجمه أمام شعب اختصر أحلامه في الظفر بامرأة ملونة الشعر والحدقتين. ودفع بلذة دخان سيجارته غير المتوفرة في الأسواق الجزائرية، وقد انتابه شعور بالزهو لسبب ما.

وضيق عينيه وهو يفرز صور خنخان مستمتعا بعطر زيت النعناع، وشاكرًا في سره خلية الأبحاث النفسية التي لم يكن يفوت قراءة الدراسات الدورية الصادرة عنها. ومجرد أن خطرت على رأسه هذه الفكرة حتى وجد يحيى نفسه يفتح على نحو غريزي صفحة جريدة الحق على الفيسبوك كأنما أراد الاطمئنان على أمر ما :

الجزائر عازمة على الفوز على مدغشقر في المباراة الحاسمة.

وزير التجارة يؤكد : أسعار السكر ستبقى ثابتة.

الشيخ غضبان العنزي يثني في تصريح للحق على الكرم الجزائري.

- بلا بلا بلا...

تمتم يحيى فرقاني برضا، وفكر بالمقال الذي نشرته الغارديان عن «كتائب التويت» بتاريخ 16 أغسطس 2015، والذي فضح

ممارسات جهاز المخابرات البريطاني، واستخداماته لعلم النفس السلوكي في عملياته ضد معارضيهِ خارج وداخل بريطانيا استنادا لتسريبات سونون. وإن لم تكن تلك الخلايا غريبة على جميع أجهزة المخابرات في العالم، والخبر بالنسبة ليحيى فرقاني لم يأت بأي جديد. لكن ما كان متأكدا منه، هو استحالة نشر تسريبات كهذه للرأي العام في الصحافة الوطنية، وإن حدث فالأمر لن يتم استيعابه بأي شكل من الأشكال من طرف « لي سيتوايان ». فكر موظف السفارة الجزائرية وهو يأخذ نفسا طويلا من سيجارته باطمئنان. فمصطلح المخابرات يرتبط في المخيال العام بمفردة « حضرات » الهيلمانية وما تمنحه البزة العسكرية من امتيازات لصاحبها ومن يتمسح به، أو أنها تثير في أسوأ الحالات، رؤى سوداوية عن أقبية سرية لا يرغب أحد في ولوج أروقتها المظلمة، أو استذكار روائعها التسعينية العظنة. ودك رجل الأمن المخضرم تلك السيجارة مجددا بين شفثيه وهو يشعر بالراحة. فالمخابرات العسكرية تعني أن يسرق حضرات منك الممتلكات... المناصب... البترول... المال... أو الحرية... لكن لا أحد يمكنه أن يشك بأنه قد يتحكم مباشرة في عقلك وتوجيه سلوكاتك اليومية، لأن الجميع كان مؤمنا أنه « باباها ».

وأطلق الآن يحيى ضحكات مدوية وهو يستذكر أجواء مواقع التواصل الاجتماعي العصابية، حيث كان يلزم المرء شيء بسيط من العقل حتى يدرك أنه من دون عقل. وهو ما لم يكن حال حفنات الفيسبوك التي ساهمت تكنولوجيا الفلترات بصنع صور محسنة عنها، وكونت لها نرجسيات متضخمة لا تتناسق مع أرواحها المتأكلة. وبسط فرقاني عضلات وجهه وهو يتجول بين بقية روابط جريدة الحق والمواقع التابعة لها. ولم يلبث طويلا إلى أن وجد نفسه يقلب وجوه الصحفيين الذين كانوا يحرصون على دك صورهم بجانب مقالاتهم المكرورة السقيمة.

لدرجة أنه انتبه لمقال من ركن الحق الثقافي يظهر صورة لصحفية قصديرية الشكل وهي تحاور ضيفة التقطت لها صورة من وراء ظهرها.

ارتفع صدر يحيى بضحكات متموجة وهو يفكر برضا. لقد كانت الترجسيات المريضة تكتسح عالم الصحافة الجزائرية، وغدا واضحا أن الأنا داخلها طغى على المعلومة. لقد كان الجميع يتنفس الجنون ويرى نفسه كتلة من النور في تلك البقعة من الأرض، وهو كل ما كان يكفي لبقاء استمرار عمل الظلمة. وسرعان ما توقف أمام صورة ذلك الوجه العابس ذي النظرات الثاقبة.

- سعيد شكيكن !

قرأ اسمه بتمعن وهو يفكر في المعلومات الجديدة التي كان لا بد من تسريبها في قادم الأيام. وعاد لتقليب ملف ابن الوزير المغضوب عليه مؤخرا، وداهمته مجددا تلك التساؤلات الملحة : ما الذي أثار القيامة من حول خنخان في هذه الفترة بالتحديد، مع أنه كان مرضيا عنه منذ فترة غير بعيدة ؟

- هل لمشروع الهوقار سببا في هذا ؟ غمغم بحيرة. فهو كان يعلم تقريبا كل شيء عن كواليس ذلك المشروع لكن لا بد من أن هناك منطقة ظل غائبة كليا عنه، وهي ما كانت تسير الآن هذه المرحلة في مكان ما في القمة.

- 30 -

عاد هينريك لذلك المقال المنشور في النيويورك تايمز بتاريخ 17 يناير 2013 وطالعه بالكثير من التوجس :

لا طالما وصف المسؤولون الأمريكيون السابقون والحاليون،  
وخبراء بالشأن الجزائري جهاز المخابرات الجزائري كشيء يشبه  
العلبة السوداء.

وتوقف أمام هذا الوصف للحظات وتابع القراءة بتمعن...

ثمة رجل ظل (...) يدير الجهاز منذ التسعينيات، ولا يعرف عنه  
الخبراء في الشأن الجزائري الكثير. كما أن صورته لا يتم تداولها  
في الفضاء العام.

وفجأة أقفل هينريك المقال الذي تم نشره في عز أزمة تيقنتورين  
الجنائزية، وشغل مباشرة مقطوعة دي فالكير المدوية وهو يفكر  
في ربط خيوط الظلمة ببعضها البعض. وسرعان ما وجد نفسه يغوص  
في النوات الفاغرية المضطربة، وتذكر لسبب وجيه أن روائع ملحن  
ألمانيا الأعظم لم تدخل مجموعة المقطوعات الموسيقية التي تم  
إرسالها عام 1977 للتواصل مع المخلوقات الفضائية على متن مسبار  
الفوايجر واحد في الأسطوانة الذهبية. وتناهى في هذه اللحظة  
إلى ذهنه صوت جانلوكا من آخر اجتماع له في الهوقار واختلط بنوات  
فاغز... صور من الحرب العالمية الثانية... موسوليني... الخيانة... رجل  
مخابرات الظل...

نهض من مكانه وهو يفرك بارتباك رأسه. شعر بالتشوش.  
كان يفترض أن كل شيء يسير على مايرام. تناول هاتفه. هل تم تحديد  
الموعد مع خنخان أم ليس بعد؟ تأكد من مواعيد الطبيب اللاحقة.  
حرك ببطء رقبته. وقف أمام مكتبته وسحب محاوره تيمايوس. تأمل  
غلافها الصامت بعمق وهو من كان يشعر منذ مدة أنها كانت تناديه

لإعادة قراءتها، وقد دفعته تلك المحادثة مع جانلوكا للعودة لتلك الصفحات الملعونة.

في الدلتا المصرية، وفي قمة المكان الذي ينشط فيه نهر النيل، كانت هناك مقاطعة اسمها سايس (... ) وهي المدينة التي ينحدر منها الملك أماسيس. وقد كان سكان المدينة يؤكدون أن الإلهة المؤسسة لمدينتهم والتي يطلق عليها باللسان المصري اسم نيث هي نفسها الإلهة التي يطلق عليها الهيلينيون اسم أثينا. لذلك كانوا من أشد المحبين للأثينيين، كونهم يعتقدون أنهم على نحو ما أقارب لهم.

وقد زار سولون هذه المدينة، حيث تم استقباله بحفاوة كبيرة. وهناك سأل أبرع الكهنة في أمور التاريخ عن الأزمنة السحيقة ليكتشف أمرا لم يكن له ولا أي هيليني آخر يتوقع حدوث أمر مماثل له في الزمن الغابر. ومن أجل دفع الكاهن للحديث عن هذه الأزمنة القديمة، أخذ سولون يحدثه عن أقدم ما يمكن تصوره في جزئنا هذا من العالم، فراح يتكلم عن فورونيوس الذي يطلق عليه اسم « الرجل الأول »، وعن نيوبي، وبعدها عن الطوفان العظيم، ونجاة دوكاليون وبيرا، وراح يخط شجرة خلفهم مستذكرا التواريخ، ومحاولا حساب عدد السنين التي انقضت عن عمر الأحداث التي سردها.

وفي هذه اللحظة قال له أحد الكهنة وكان أكبرهم سنا :

- أه يا عزيزي سولون، أنتم الهيلينيون لستم سوى أطفالا، ولا يوجد بينكم رجل مسن.

وجفل هينريك للحظة...

ليسأل سولون ما الذي يعنيه بكلامه هذا. فرد الكاهن أنه يقصد بأن عقولكم جميعاً عقول شابة، ولا رأي لشخص كبير بينكم يأتيكم بالتقاليد السحيقة، أو علم متوارث من القدم. « وسأخبرك عن العلة ». وأرخبى هينريك بدنه على الأريكة وقرر تسليم نفسه كاملاً للمحاورة...

لقد كان هناك وسببى دوما كوارث تؤدي لهلاك البشر تنجم عن أسباب عدة، أسوأها الماء والنار، وغيرها أقل تطراً لمسببات أخرى. وثمة قصة، تحفظها أنت بنفسك تروي أنه وفي يوم من الأيام قام بايثون، ابن هليوس بحرق كل ما كان في الأرض بعد أن ربط الأحصنة بعربة أبيه وفشل في قيادة العربة على درب والده، ليهلك هو بصاعقة. ونفر هينريك الآن لسبب ما. وفكر ملياً في تلك العربة...

صحيح أن هذه القصة أتت في إطار أسطوري إلا أنها تشير فعلاً إلى هلاك الأجسام في رحلتها من السماء إلى الأرض، وما تتسبب فيه من حرائق عظمى، تفصل بينها أزمنة متباعدة، ويقضي نحبه فيها غالباً من يعيش في الجبال وفي الأماكن الجافة والعالية، أما من يعيش على ضفاف الأنهار والبحار فتكتب لهم النجاة. ومن هذه الرزية يقوم النيل وهو مخلصنا الأبدي بحمايتنا وحفظنا.

في المقابل، وعندما تقرر الآلهة تطهير الأرض من خلال الطوفان ينجو في بلدانكم رعاة الغنم القاطنون في الجبال فقط، أما من يعيشون من أمثالكم في المدن تحملهم الأنهار إلى البحار. إلا أنه وعلى هذه الأرض لم يحصل في أي زمن من الأزمنة أن غمرت المياه الحقول من السماء، وهي من تأتيها المياه عادة من جوف الأرض. وعليه فإن التقاليد التي نحتفظ بها هي الأقدم على سطح المعمورة (...). وأياً شيء وقع سواء أكان ذلك في بلدكم أم في بلدنا، أو في أي مكان آخر من العالم

فنحن نعلمه ونسجل مآثره وأعمال أهله العظيمة أو مناقبه بشكل ما، وقد تم تسجيل كل شيء لدينا منذ زمن وتم حفظه في معابدنا. وهكذا وفي الوقت الذي تبدأ فيه غيرنا من الأمم باصطناع بعض الآداب، وغيرها من متطلبات الحضارة... تنتقض عليهم فجأة عاصفة من السماء ولا تترك منهم سوى من لا علم له ولا تربية. لتجدوا أنفسكم مضطرين للبدء في كل مرة من جديد كالأطفال، دون أن تعلموا شيئاً مما حصل في غابر الأزمنة سواء أكان ذلك عندنا أو عندهم. ولذلك فإن شجرة الأنساب التي سردتها علينا منذ قليل يا عزيزي سولون، ليست أفضل من قصص الأطفال.

وهز هينريك رأسه مؤمناً على الملحوظة وتابع القراءة...

فأولاً أنت لا تذكر سوى طوفانا واحداً فقط، بالرغم من وجود أعداد كبيرة منها سبقتك. ثانياً، أنت لا تعلم أنه وعلى أرضكم عاشت أنبل الأعراق البشرية وأفضلها، وأنت ومدينتك تنحدرون من بذرة صغيرة أو من بقايا الناجين منها. وهذا ما كنتم تجهلون لأنه ومع تعاقب الأجيال، مات الناجون من هذه الكارثة دون أن يخلفوا أي آثار مكتوبة. وقد كان هناك زمن، يا سولون، سبق الطوفان العظيم كانت فيه المدينة المعروفة باسم أثينا اليوم تعيش حالة حرب ولم يكن هناك أدنى جدال في كونها أفضل المدن حكماً، كما كان يقال أنها أتت بأعمال نبيلة وكان لديها أفضل دستور عرفه التاريخ على وجه هذه الأرض. تعجب سولون من هذا الكلام، وسأل الكهنة باهتمام بالغ معلومات أدق وأوفى عن هؤلاء المواطنين السابقين لأثينا.

- بكل سرور يا سولون، هكذا أجاب الكاهن. إكراماً لك ولمدينتك وقبل هذا وذاك إكراماً لإلهتنا المشتركة، سيدة المدينتين وأما ومعلمتنا.

وهي من أسست مدينتك آلاف السنين قبل مدينتنا، بعد أن تلقت من الأرض وهيفاستوس بذرة عرقكم، لتؤسس بعدها مدينتنا التي يعود عمر دستورها وبحسب سجلاتنا إلى 8000 سنة.

وهز هينريك رأسه برضا...

وأما فيما يتعلق بمواطنيكم قبل 9000 سنة، فسأخبرك باختصار عن قوانينهم وعن أشهر أعمالهم، أما التفاصيل الدقيقة لهذه الأشياء فسنأتي عليها لاحقا عندما يسمح لنا الوقت للنهل من السجلات المقدسة نفسها (...). فقد تم تسجيل العديد من مآثركم الجليلة والمهيبية في سجلاتنا. إلا أن واحدة منها تعدت الجميع في عظمتها وبسالتها. إذ تحدّثنا السجلات عن قوة عظيمة شنت حملة غير مبررة على كامل أوروبا وآسيا، إلا أن مدينتك وضعت حدا لها. وقد خرجت هذه القوة من المحيط الأطلسي.

وابتسم هينريك الآن وهو يفكر أنه قد حط يده الواثقة على تلك البقعة. لكن سرعان ما انقفل وجهه وعاد للتأكد من عدم وصوله أي إشعار يبلغه بتحديد موعد اللقاء الجديد مع خنخان. ثم تابع القراءة بشيء من القلق :

ذلك وأنه في ذلك الزمن كانت الملاحظة متاحة في ذلك البحر...

« بحر الظلمات » ! غمغم بتردد وهو يقلب الهوامش التي سجلها بخط يده على حواشي الكتاب، حارصا على الحفر في تاريخ كل كلمة مفتاحية من ذلك النص الملعز. « بحر الظلمات » وأعاد قراءة الوصف بارتباك.

لقد كانت تلك هي تسمية العرب لذلك المحيط، بينما يأخذ الأطلسي حاليا اسمه من سلسلة جبال الأطلسي المغربية. « مقبرة الشمس ». قرأ الكلمتين بجزع مفاجئ، وبلغ ريقه على نحو مأمي.

كان يفترض أن ذلك هو معنى كلمة « أطلس » بالنطق الأمازيغي. ونظر الآن بقلق أبوي إلى رمز الشمس الساطعة المطبوع على أجددة الفيوتشي إينيرجي كوربوريشن والذي اختاره لها منذ تأسيسها. مسد أسفل رأسه بحركة غريزية محاولا تبين مكان الفقرة الحاملة من عنقه. « فقرة أطلس » كان ذلك هو اسمها العلمي، والذي أُطلق عليها تيمنا باسم الإله الجبار « أطلس » الذي يحمل القبة السماوية على كتفه بحسب الأسطورية الإغريقية. ذلك هو أصل التسمية وكفى ! فكر دون اقتناع، وهو يحاول أن ينفذ عن رأسه صور الظلمة المفزعة التي غزت رأسه فجأة... بحر الظلمات... مقبرة الشمس... رجل الظل... تبا ! فكر بقلق بالتقارير الأمنية القادمة من الهوقار ومقال الـ نيويورك تايمز المزعج عدا عن اللقاء المفاجئ الذي يطلبه خنخان... لكنه قرر متابعة القراءة... فهو قد وضع يده على تلك الأرض وانتهى الأمر. هذا كل ما كان عليه أن يفكر به...

وقد كانت هناك جزيرة تقع قبالة تلك العواميد التي تطلقون عليها اسم « عواميد هرقل»، كانت أكبر من ليبيا وآسيا مجتمعتين... وقد كانت معبرا لجزر أخرى.

وتوقف هينريك بحذر أمام الحاشية التي سجلها بأحرف صغيرة على هامش الفقرة ورسم على وجهه ابتسامة كبيرة. *Aljazair*. وراح بهدوء يقرأ تلك الحاشية : « لا طالما كان حجم أطلنطس موضوعا خلافا لدى العلماء ذلك لأن أفلاطون ذكر أنها أكبر من ليبيا وآسيا مجتمعتين. وأما "آسيا" بحسب المؤرخين فكان المصطلح الذي استخدمه الإغريق للإشارة إلى تركيا. وأما "ليبيا" فكانت تشير إلى المنطقة من غرب دلتا النيل وتشمل جنوب المتوسط بأكمله ما عدا مصر. وبحسب القياسات التي قدمها أفلاطون لأطلنطس فقد تكون مساحتها 90686,534 كم مربع. وهي مساحة شاسعة جدا لأي جزيرة

كانت، لذلك حاول المؤرخون إيجاد تفسيرات أخرى للمصطلحات التي استخدمها أفلاطون لوصف هذه الجزيرة التي لم يتم إيجادها بعد غرقها في أعماق البحر. بالإضافة إلى أنه وبحسب أوصاف أفلاطون للجزيرة، فقد كانت تحدها جبال كانت تحميها من الشمال أيضا. وكل هذا يجعل من المستحيل لأرض بهذه الشساعة وبهذه المواصفات الجيولوجية أن تنخسف داخل البحر بفعل زلزال...».

ونظر رئيس الفيوتشر إينيرجي الآن إلى خريطة البلد الأشسع في إفريقيا وصحرائه التي كانت تنام على أحد أكبر خزانات المياه في العالم، وفكر بمكر... جزيرة غارقة... أم ببساطة جزائر اصطناعية؟ حيث كان يمكن أن تمر من خلالها إلى الجزء المقابل من القارة بأكمله والذي يحيط بالأطلسي الحقيقي، لأن هذا البحر الذي يقع داخل مضيق هرقل ليس إلا مرفأ، ممدخله الضيق، أما الآخر فهو بحر حقيقي، واليابسة المحيطة به يمكن أن يطلق عليها بحق اسم القارة غير المحدودة. لتدوي في هذه اللحظة موسيقى فالديكير في رأس هينريك كأنشودة نصر مكتملة. وتتهافل معها صور الهوقار ومواقع الثقوب المظلمة لتلك الحضارة الغابرة... أطلنطس.

### - 31 -

ها حوجي يا نا وها حوجي يا نا وها حي  
وشا نقولك وشا تقولي وها حوجي وها حي

نظر بعمق إلى الصور التي نزلها لتوه من كاميرا الكانون. وبدا للخطات غير مبال بكلمات تلك الأغنية التي كانت نوتاتها العالية تدحّ طبلتي أذنيه دحّا، وتبخ أجواء كباريهاتية في كامل أنحاء غرفته التي أكلت الرطوبة جدرانها...

وعلى سعدي وعلى وعدي وها حي

وها حوجي وها حوجي وها حي

كانت تلك « إيمان لا مينيون » التي كان مصور جريدة الحق يتابع صعودها المدوي في سوق أغنية الراي حيث أصبحت المنافسة الأقوى « لفريدة لا بلوند » والأرجح أنها ستطيح قريبا بمغنية الشباب الأولى في الجزائر. لكنه توقف في هذه اللحظة طويلا أمام صورة التقطها اليوم وقد أثارت انتباهه على نحو خاص...

وما نقولك ما تقولي وها حي وها حي

وها حوجي... وها...

- على الحق !

تمتم ميلود بعد أن صدح آذان العشاء من مئذنة المسجد الملتصق بالعمارة التي كان يقطن فيها، وبحركة سريعة كتم صوت الفيديو من على اليوتيوب، وأوقف معه جميع نشاطاته على الحاسوب، تاركا المؤذن يتابع نداءه للصلاة بهدوء دون أن يقاطع الأجواء الروحانية التي أرخت سدولها فجأة على المكان، سوى كبسة زر خاطئة منه أطلقت العنان مجددا لأنين تلك ال...

- استغفر الله ياربي ! واستدرك ميلود لاجما لسانه حتى لا يتلفظ

بتلك الشتيمة التي لم تكن إلا التوصيف الأنسب لتلك ال...

- أستغفر الله ياربي ! وعاد للاستغفار مجددا. وهو

يشعر بالاستياء من إصرار تلك المغنية الفاجرة (واستقر على هذا الوصف مبدئيا) على تلويث هذه اللحظات الروحانية، وتؤكد من كتم صوتها كليا في هذه الآونة.

وبالرغم من أن ميلود لم يكن ينوي القيام لأداء صلاة العشاء لأنه لم يكن يصلي بانتظام، إلا أنه كان يحرص على إظهار احترامه لهذا النداء الإسلامي الذي كان يعلم أنه يستطيع طلب ما يشاء في حضرته، غير أنه لم يكن في وارد الانخراط في أي تضرع لله الآن، وكل ما كان يريده في سريره هو أن ينهي المؤذن أذانه بسرعة وألا يبط فيه أكثر حتى يعود لعمله. وقد بدأ يشعر بالتوتر لأنه كان منهماكا في فحص صور ذات تفصيلات في غاية الأهمية.

وراح يتجول في هذه الأثناء بين صفحات موقع التواصل الاجتماعي الأكثر رواجاً في الجزائر إلى حين انتهاء الآذان.

والواقع أن ميلود لم يكن ناشطاً فاعلاً في الفيسبوك، وإنما عضو مراقب للصور المجتمعية التي كان هذا الموقع مرصداً حقيقياً لها، لاسيما صور الفتيات اللواتي كن يسمحن لأنفسهن بوضع صورهن على الشاشة العامة ليشاهدن القاصي والداني.

- راحت الحشمة ! وتأمل صور المتبرجات الفاسقات اللواتي كن يسمحن لأنفسهن بنشر وجوههن مبتسمات على موقع التواصل الاجتماعي من أجل إشاعة الفاحشة، وفتنته هو وغيره من الفحول.

- ما عندهم ماليهم هادو الكلبات ! تمتم باشمئزاز، وشكر الله أن أختيه اللتين تكبران، متزوجتان من رجلين يعرفان كيف يضبطان سلوك المرأة... كما أن أختيه بالأصل « بنات فاميليا » وليس مثل موسطاشات العصر الحالي. فكر وهو يعود بسرعة إلى تشغيل زر الصوت في فيديو « إيمان لامنيون » على اليوتيوب، ورجع معها للصور المنزلة من على آلة تصويره الحبيبة التي لم يكن يتسنى له استعمالها على النحو الذي تستحقه في هذا البلد.

- في شكويستان كل شي يولي مفسدر !

وزفر متذكرا حلمه في الهجرة وهو من يحمل آلة تصوير من طراز Canon EOS Rebel T2i التي لم يكن للأسف يستثمرها في لقطات تليق بمقامها. بل كانت عدستها تتسخ بشكل يومي بوجوه محلية قبيحة ومناظر شعبية دميمة، في حين أنه كان يحلم بتصوير لقطات تهديف في مباريات كرة قدم عالية المستوى من ملعب برنابيو في نهائي بين الريال والبارسا على أقل تقدير مثلا، أو تصوير تمثال الحرية لم لا أو البيغ بان، بل وحتى تصوير اجتماع قمة يجمع تيناهاو وأوباما أو ربما مجموعة الثمانية بأكملها... لا نتاهاو لا، فكر مستدركا. فقد كان ليقاطع تصوير ذلك اليهودي... كان حتما ليرفض هذه المهمة أثناء عمله في البي بي سي أو السي أن أن.

والواقع أن ميلود لم يكن يحمل مؤهلات عالية سوى شهادة حصل عليها في مدرسة صغيرة للتصوير، سجل فيها بعد سنوات طويلة من تركه الدراسة في المرحلة المتوسطة، ليس بدافع شغف خاص بهذا الفن لكن لأن أحد أصدقائه قرر فتح محل تصوير فوتوغرافي وكانت تلك فرصة مناسبة للعمل بعد تجريب التجارة لفترة قصيرة في الملابس الداخلية النسائية المستوردة من تركيا، ولفترة أقصر البيع في محل بقالة، ليتنقل بعدها إلى العمل في « سير كافي » بحيه اكتشف فيه شغفه بمشاهدة أفلام معينة، والحقيقة أنه لم يستقر إلا مؤخرا على مهنة التصوير. إلا أن ذلك لم يكن ليحول دون أن يكتشف الأجنب ذكاءه الفذ، ويتبنوا مواهبه الاستثنائية، ففي الجزائر فقط يعمل الجميع على تكسير العباقرة من أمثاله، فكر ميلود بأسف.

ومع أن مصور الحق لم يكن متأكدا من طبيعة عبقريته التي كان على الأوروبيين التنبه لها أجلا أم عاجلا، إلا أنه كان على يقين أن الألمان والأمريكان سيكتشفونها لا محالة ويستثمرون فيها.

وشعر بالزهو للفكرة، لكن هذا لن يجعله يركع لهم البتة. دمدم وهو يقبض عضلات وجهه متذكرا بفخر موقف مقاطعته لكل ما يمت لليهودية بصلة، ورفضه تصوير رئيس الكيان الصهيوني كما تخيله منذ لحظات... بل سيقدم استقالته إذا ما أصر على ذلك مديره الكافر... غمغم بحزم. فهو لن يخضع تحت أي ظرف كان للصهاينة!

وتخيل نفسه عائدا إلى وطنه محملا بمجد هذه المقاطعة، وصفحات الجرائد تنشر صورته، وتشبهه بالعربي بن مهيدي أو علي لا بوانت أو ربما عميروش. ونفخ صدره وهو يتخيل كيف سيتم تناقل صورته الشخصية بين الجماهير العريضة على وسائل التواصل الاجتماعي، حيث يظهر من ورائه برج إيفيل على سبيل المثال وهو ينظر إلى الكاميرا نظرة تحد عميقة من طراز نظرات بومدين، بينما يكون مرتديا زوج أديداس أصلي أو نايكي سيتعرف عليه خبراء السلع الأصلية من خبيري الطراباندو القدامى في حيه، ويعلمون أنه يعيش في النعيم وليس مثلهم يعيشون في شبه مزبلة، ويرتدون الأحذية الصينية العفنة.

وأخذ نفسا عميقا وهو يشمشم الغرفة التي كانت تعبق برائحة قدميه، بينما كانت « إيمان لا مينيون » لا تزال تنفخ في أذنيه كلمات تلك الأغنية المنحوسة...

وعلى سعدي وعلى وعدي وها حي

وها حوجي وها حوجي وها حي

لتعود ملامح وجهه للانقباض وهو يدرك بأنه ما دام لا يزال في هذا البلد فهو لن يستطيع تحقيق أي إنجاز مهني، أو مجد شخصي، أو مقاطعة صهيونية، والأهم من كل هذا وذاك فهو لن يتمكن

من هداية شقراء أوروبية للإسلام، وتكرمه عليها بالزواج بعد أن تقع في غرامه، ليدخل بعدها الجنة...

- آه... يا شكوبستان آه كرهتيلنا حياتنا !

وتنهذ بالكثير من اللوعة وهو يتذكر وجه زميلته الصحفية رتيبة الكحلوشة، ومهام التصوير القميئة التي كانت توكلها إليه في إطار عمله بمؤسسة الحق الإعلامية، وقد كان آخرها اضطراره صبيحة اليوم لتصوير وجه شاعرة زفرة لا يذكر اسمها وقد حاورتها تلك البغلة التي كان يعمل معها. وفكر باشمزاز وهو يستحضر تصرفات تلك المدعوة رتيبة التي كانت تتعامل معه وكأنه خادم، تجره وراءها في خرجاتها وكأنه إحدى حقائب يدها، ولا تكلف نفسها حتى تحيته كل صباح على الرغم من أن وجهها لم يكن يذكره سوى بوجه حبة بلوط مرة، وهو الذي لم يكن ليرد عليها التحية إن هي فعلت بالأساس، والأرجح أنها كانت تعتقد أن صوتها عورة، مع أنها لم تكن سوى شينا يشبه البعرة.

وهمهم مستذكرا أجواء عمله السقيمة، حيث كان جميع الصحفيين يتخيلون أنهم أرفع مستوى منه هو المصور، بينما هم المثقفون، كما كان يحلو لهم اعتبار أنفسهم لمجرد أنهم يكتبون أشياء يذيلونها بتوقيعهم. لكنهم في الحقيقة ليسوا إلا بغالا. غمغم مصرا على الفكرة، وتلك الرتيبة بالتحديد عاهرة أيضا مثلها مثل كل صحفيات المؤسسة، حتى بالرغم من كونها محجبة، بل وترتدي خاتما ذهبيا ضخما في بنصرها الأسود المنتفخ، كانت تلوح به باستمرار لتؤكد للجميع على أنها مخطوبة، إلا أن ذلك لم يكن يمنع بأنها عاهرة، مثلها مثل متبرجات المؤسسة وإلا كيف تمكنت من الحصول على عمل في مكان يديره الحاج، فكر ميلود باقتناع. ذلك النذل النتن، الذي كان الجميع في المجال يعلمون أن حلم لقاءه يراود كل المتخرجات من كلية الإعلام

لتأمين منصب عمل في كنف جريدته بعد المرور بين أحضانه، ولم تكن رتيبة بذلك في نظر مصور الحق سوى عاهرة متخفية في ثياب قديسة. ليتذكر ميلود في هذه اللحظة حبيبة أحلامه الشقراء التي ستكون رمزا للطهارة والعفاف، والتي ستهم به عشقا وتتفرغ لتدليله والعناية به، وكي ثيابه، وتحضير سفرته، وغسل قدميه أيضا. وعاد على نحو غريزي لشمشمة رائحة الغرفة. كما ستضطلع بالتأكيد بمهمة الإنجاب، وتحسين نسل أسرته بإضافة لون الشعر الذهبي والعينين الملونتين، ليصبح أبناؤه مصدر فخر العائلة بأكملها، ولذلك فسيختارها من أوكرانيا أو هنغاريا... أو ربما الأفضل من إنجلترا أو ألمانيا. وفكر أن هذه الجنسية مناسبة أكثر له لكن الأهم من كل هذا وذاك هي أن تكون شقراء سيحرص على تحجيبها بل تنقيبها أيضا، فهي ستأتمر بأوامره وتنتهي بناوحيه لأن هؤلاء هن النساء « تاع الصح » وليس « الموسطاشات تاعنا ».

وتذكر الآن بحنان قصة وعظية شاركها هو نفسه على حسابه في الفيسبوك بعد أن انتشرت كالنار في الهشيم على الشبكة العربية... موظفة في محل عام بفرنسا تويخ زبونة على ارتدائها النقاب... ليتبين في النهاية أن تلك الموظفة ليست سوى مهاجرة منحلة الأخلاق وعلى الأرجح أنها عربية « مزعوقة » بينما الزبونة المنقبة هي أوروبية هداها على الأرجح زوجها للإسلام.

« ما شاء الله ! تمتم ميلود بورع. وكان ذلك أيضا ليكون سلوك زوجته الألمانية، أو البريطانية تماما بعد أن يهديها هو نفسه لطريق الإسلام.

وأطبق عينيه كالحالم وهو يتخيل الغيرة التي ستثيرها في قلوبهن زوجته الشقراء بين جموع الكحلوشات المتكبرات اللواتي لم يعدن

يقبلن بالزواج من أحد لا يملك شقة خاصة، بينما زوجته الأجنبية ستعيش مع أمه... ولأن الجنة تحت أقدام الأمهات، ستغسل لها قدميها أيضا، فيستحق بذلك دخول الجنة عن جدارة واستحقاق. بل سيجعل زوجته المهديّة على يديه تركع تحت قدمي أمه أيضا، ليشق هو بعدها طريقه بهدوء في رياض الخلد.

- ميلود نَقص للبوست شوي !

- أيا خيلنا منك انتي تاني !

لوح بيده باستياء. وهو من لم يكن يشعر بالراحة في ذلك البيت ولا يحظى بأي لحظات استقلالية حقيقية ولا ينعم بأي خلوة.

- واحد كاره الدخلة تاع حياتو وتزيدولو همكم !

غمغم بانزعاج وراح يبحث عن السماعات بين أغراضه. التقطها بضجر وسد بها أذنيه بحركة عصبية منصاعا على مضمض لطلب أمه، وعاد ليفكر بحياته الكريهة، وعمله البغيض، وحلم الزواج الذي كان بعيدا عنه، وجميع المتبرجات اللواتي يعمل معهن ممن يتقاضين رواتب أعلى من راتبه، ورتيبة وجه البلوطة أيضا مثلهن نعم بالرغم من حجابها... والدليل هو هذا... فكر وقد جحظت عيناه في تفاصيل صورة أخذ يكبرها ويتأملها عن قرب وقد كاد وجهه أن يلتصق في هذه اللحظة بالشاشة.

لقد كانت تلك صورة جانبية تظهر فيها رتيبة بالصدفة أثناء حوار اليوم وقد برزت مؤخرتها من تحت الحجاب في شيء يشبه الرف وعلى الأرجح أنه هو ما جعلها تستحق تلك الوظيفة. وحاول تكبير الصورة، والنظر إليها من زاوية أقرب حتى يتبين تماما تفاصيلها. ليتذكر على نحو عجيب موظفا آخر في جريدة الحق يدعى فريد ويقال أنه هو الآخر يدين لمؤخرته بالكثير.

كان ذلك هو « أنوش » الشركة من دون منازع. شيء يقف على طرف نقيض مع رئيس تحرير موقع ثقافة الحق سعيد شكيكن، الصحفي الوحيد الذي كان ميلود يحترمه في تلك المؤسسة تقريبا، وهو من كان من الواضح أنه يشترك معه في بغضه للمتبرجات. بل أنه كان يشكل شيئا يشبه التكتل هو وجماعة أخرى من الموظفين، ممن ينتمون إلى نفس المنطقة ضد جماعة فريد الأنوش المائعة والمتفسخة وأخواتها. لم يكن ميلود يعرف الكثير عن كواليس هذا التكتل لأنه كان يُمنع بشكل أو بآخر بوصفه مصورا ليس إلا من الخوض في صراعات الجبارة، إلا أنه كان يشعر بالتعاطف مع جماعة سعيد لا محالة. وتذكر اليوم أن سعيد قد اتصل به ليكلفه يوم غد مهمة عمل خاصة كما أخبره.

- « ما الذي يريده يا ترى »؟! تساءل بحيرة. فسعيد عادة لم يكن يستخدم تلك النبرة في الحديث معه، وهو من كان يحرص على ضبط حديثه مع الجميع على نبرة حيادية لا تسقط في الحميمية التي من شأنها أن تؤدي إلى ما يعرف شعبيا باسم « الدسارة »، ولا نبرة متعالية تشبه نبرة رتيبة الكحلوشة. ليعود ويسترجع ما سمعه من تلك الصحفية الصدئة وهما متجهين لتصوير لقاء اليوم، وكانت تطلب معلومات على الهاتف عن... « غارة الجنون ».

- يا لطيف... همّ كحلوشة وهمّ سحّارة !

وتذكر أنه هو سيتزوج بألمانية أو داغاركية أو هولندية... ليس مهم من أي جنسية أوروبية ستكون لكن الأهم هو أنها لا تعرف عن السحر وأجوائه شيئا... بينما سيترك هو البلاد كلها بسحاراتها ومشعوذاتها وكحلوشاتها لفريد الأنوش وأمثاله... لكنه عاد ليفكر في المهمة التي كانت تنتظره غدا. واهتز بدنه من فكرة أن يكون للأمر علاقة بغارة الجنون هذه...

« بسم الله الرحمن الرحيم »...

وعلى سعدي وعدي وما نقلك وما تقلي

وها حوجي وها حوجي يا نا... وها حي

وأطفاً تسجيل الشؤم ذاك في شيء يشبه الفرع.

- 32 -

تسمر أمام شاشة حاسوبه الأش بي موديل الـ2006 وهو يفرك ظهر كفه اليمنى بعصبية، منتظراً أي إشارة جديدة من الفيسبوك تجعله يفرج عن تنهيدة حب طويلة. كان مهدي يشعر برفرفة فراشاتٍ في بطنه منذ أن قرأ آخر رسالة وصلته من تلك الصحيفة العاصمية الفاتنة وهي تدعوه من جديد للحديث معها، وذلك بعد أن وقعت على الأرجح في غرامه بعد محادثتهما الأولى، دون أن يفهم تماماً كيف حصل هذا. إلا أن الشيء الوحيد الذي كان متأكداً منه، هو الامتنان لهذا الموقع الأزرق الذي كان يعتقد في وقت سابق أنه كائن لا وزن له فيه ولا قيمة، حتى أنه فكر مراراً في الانتحار من أجل أن يلفت نظر أصدقائه إليه، لكنه كان يخشى ألا يآبه أحد بموته الفيسبوكي. فكتب أكثر من مرة خطاب نعيه الافتراضي وأعرض عن نشره في آخر لحظة. وقد كان آخرها خطاب مؤثر تقشعر له خبطات اللايك الزرقاء اختصره بـ :

خاوتي، راح نغلق الكونت تاغي نهائياً. أعتذر إن أخطأت

في حق أي أحد. السماح بيناتنا.

ولكنه مسح الإدراج مباشرة. إذ أنه لم يكن يقوى على الابتعاد عن الفيسبوك يوماً واحداً، حتى مع كونه لا يحصل منه على أي تفاعل

يذكر. إلا أن نشره لصوره وهو يرتدي نظارته السوداء العريضة صاحبة الـ250 دينار، وأولى سيلفيهاته من بقالية الحي الفارحة، حيث تصطف في خلفية الصورة قوارير العصائر والمشروبات الغازية المفضلة لديه من فئة « فانتا » و« رامي »، متبعة بصور من مقر عمله الذي كان يشعره بوجوده على سطح هذه الأرض قد أتى أكله على نحو ما...

- هل أنت معي ؟

- نعم... نعم... هنا... أنا ! تلعثم وهو لا يصدق أن ريتا هي من قامت فعلا بالخطوة الأولى لمصالحته، بعد النهاية غير المتوقعة لمحادثتهم الأولى.

- أعتذر عن التأخير.

- معليش خذي وقتك أختاه ! وعض على لسانه وهو يلعن نفسه.

- أرغب في أن أطرح عليك بعض الأسئلة.

- طبعاً... طبعاً أختي ! وشم مجدداً نفسه لاستخدام هذا اللفظ.

لكنه لم يجد طريقة أخرى ليظهر فيها بمظهر المؤدب.

- انتظري قليلاً لو سمحت... لا تذهب.

- طبعاً... طبعاً.

وانتفض من مكانه ببهجة. لبس نظارته الشمسية الهوليوودية، ووقف أمام مرآة الحمام. كان يعلم أن شكله بالنظارة السوداء لا يقاوم. لكنه لم يتوقع أن يكون سحره قد أثر على صحفية جميلة من العاصمة... من يدري منذ متى قد وقعت في غرامه يا ترى... وكيف بدأ عشقها له... وأية صورة بالتحديد هي التي أوقعها في حباله... وتزاحمت الأفكار في رأسه. ليعود الآن إلى طاولته بسرعة وبحماس كبيرين.

جلس إلى حاسوبه وراح يتفحص حسابَ حبيبته الجديدة، منتظرا رسالة أخرى منها، وأخذ يتأمل باهتمام أدق تفاصيله.

كان من الواضح أن الاسم الحقيقي لريتا ليس هو اسمها الفيسبوكي، إلا أن Rita Haq Ben الاسم الذي اختارته لها، يدل على ذوق رفيع وحس ناعم ورفيع. فكر بحبور. وذلك بالرغم من أنه ذكره بلفظة قح... قح... قح... وكح الآن محاولا تجاهل الفكرة السقيمة التي غزت رأسه، فكلمة « الحق » في اسمها الافتراضي والمستلهمة من وظيفتها الشريفة في أهم جريدة في الجزائر، تستحق أن تدكها وسط اسمها حتى وإن كانت النتيجة في النهاية غريبة نوعا ما... لا بأس. فكر متصنعا عدم الاكتراث. فقد كان كل شيء جميلا مع كل هذا وذاك... وأخذ يتخيل في هذه اللحظات ملامح وجه ريتا الجميل ونبرات صوتها العذبة، من خلال صورة بروفايلها، والتي لم تكن هي صورتها الحقيقية على أي حال. وذلك لأنه قد رأى ذات الصورة عشرات المرات في حسابات مختلفة، إلا أنه لم يكن سوى أن يستبشر خيرا في حضرة كل هذا الجمال.

ولسبب ما تذكر صورة صديق طفولته رضوان على الفيسبوك والتي اختارها لمراد علمدار. وزفر الآن بكثير من الاستياء. فصديقه الأخرق لم يكن يشبه في شيء ذلك الممثل التركي على الإطلاق... لا في شعره ولا في نظرتة ولا مشيته، ولا حتى في الهواء الذي يتنفسه. - من أين يأتون بهذه الصور ؟ غمغم بانزعاج، لكنه استدرك مفكرا أن حبيبته العاصمية لم تكن لتختار صورة هذه العارضة بالتحديد لو لم تكن تعلم أنها تتقاطع مع صاحبها في بعض الملامح على الأقل... كأن تكون صاحبة بشرة مخملية... أو أنف دقيق... أو عيون واسعة... لكن الأكيد هو اشتراكها مع صاحبة الصورة الحسنة هذه في العفة

التي كانت تقطر من محياها، بالإضافة إلى الالتزام بصلواتها الخمسة كما هو ظاهر على غلاف حسابها، الذي نقشت عليه بأحرف حمراء متوهجة من خط الرقعة عبارة : صلاتي سر حياتي...

هذا عدا عن محافظتها على أذكار الصباح والمساء، حيث كانت صفحة ريتاج - كما خمن اسمها في هذه اللحظات هو عمليا أشبه بكتاب « حصن المؤمن ». وخبط مهدي الإعجاب بعد الإعجاب بكل الأدعية الدينية المنشورة على حساب الصحفية العاصمية دون أن يقرأ أيا منها بداعي العجلة. لكنه حرص بذلك أن يظهر لها مدى توافقهما، كما لم ينس تسجيل إعجابه بصورة نشرتها لمتحابين شرعيين في دين الله، تظهر امرأة محجبة ذات وجه أبيض مخضب بشتى الأصباغ، وهي تضع يدها في يد خطيبها وخاتم خطوبتهما يظهر في البنصر الأيمن لكليهما وحولهما تتناثر الورود الحمراء، والبيضاء، والوردية، والصفراء، والبنفسجية، في مشهدية لم تكن تليق إلا بأنصار الحب الحلال على الشبكة. وبالطبع لم تكن تلك هي حتما صورة حبيبته العاصمية الحسنة، ولكنها صورة رأها تتداول منذ مدة هي الأخرى بين الراغبات والراغبين في إكمال نصف دينهم من شباب وفتيات الأمة. ولم تكن ريتاج كما أصبح مقتنعا باسمها الآن لتنشرها بدورها، لو لم تكن تعلم بوجود نقاط تشابه بينها وبين تلك العارضة المحجبة الفاتنة صاحبة خصر الـ 58 سنتمترا والأصابع البيضاء الناعمة.

وتنهد مهدي وهو لا يصدق أنه سيعيش أخيرا قصة حب ملتهبة... ومع من صحفية من الجزائر تعمل مع أكبر مؤسسة صحفية في البلاد. وقد وقعت في غرامه على الفيسبوك ؟ لقد بدا له وكأن شيئا يشبه نافذة القدر قد فتحت عليه من خلال هذا الفضاء الأزرق.

وعاد لخانة المحادثة ليتأكد من أنها لم ترسل له شيئا. ولم تكن بالفعل قد بعثت له بأي رسالة، إلا أنه قرر ألا يزعجها. ووجد نفسه

يطالع مجددا حسابها بشغف، عله يتبين تفاصيل وجه حبيبته العاصمية، أو نغم صوتها من خلال منشوراتها. ولفته في هذه اللحظة أنها سجلت في معلوماتها الشخصية أنها متزوجة. تنهد مهدي بطيبة للأمر، كونه يعلم مثل بقية الشباب أن الفتاة الجزائرية تستخدم حيلة « راني مخطوبة » مرفوقة بخاتم خطوبة مزيف في إصبعها عندما تخرج إلى الشارع أو اختيار حال<sup>46</sup> Mariée على الفيسبوك بالإضافة إلى نشر صور شرعية ملتصقين في حضرة سجادة الصلاة، للإيحاء بأنها مرتبطة في أرض الواقع تفاديا للمضايقات. تماما مثل كلمة « أخي » التي بدأت بها ريتاج محادثتها.

وابتسم مهدي بهناء طفولي وهو يتخيل شكل تطور العلاقة بينهما، والتي كان لا بد له من أن يذكرها ويوقد نيرانها ويحافظ على تأججها. ولذلك لم يفته ملاحظة أن محبوبته الفيسبوكية قد أظهرت اهتماما كبيرا من خلال محادثتهما القصيرة في الليلة الماضية، بمعرفته الواسعة وثقافته الكبيرة وحنكته الشديدة، وقد أسعده هو أيما سعادة إظهارها لذلك القدر الكبير من الاهتمام بالصحراء. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على استعدادها للمجيء والعيش معه في هذا المكان المدعو في نشرة الأحوال الجوية « بقية البلاد »، والذي كان يتصور أن جزائري الشمال لا يعلمون بوجود بقايا بشر يقطنونه بالأساس. وتنهد بغبطة، وعاد ليفكر فيما سيحدثها عنه اليوم حتى يثبت لريتاج أنه رجل جدير فعلا بالاهتمام والتقدير وأنها ببساطة لم تخطئ الاختيار. لكنه سرعان ما دعا الله ألا تعود لطرق موضوع « قل السوف »، إذ لم تكن فكرة تمضية شهر عسله في غارة الجنون واردة إطلاقا في ذهنه. وفكر في هذه اللحظة في أمر من شأنه أن يثير اهتمام حبيبته الصحفية المولعة على ما يبدو بالقصص المثيرة. نظر إلى الورقة التي تركها له جانلوكا

46. متزوجة

والتي كانت تحوي رموز آبقة من التيفيناغ، وبرق في خاطره أنه ما من شيء يمكن أن يترك انطباعاً أشد على نفس ريتاج سوى إخبارها بأمر هذه الورقة وصاحبه الأوروبي الجديد. وتأمل مجدداً تلك القصاصة، وعاد ليستشعر ذات الرهبة التي اعترته وهو يلمح الرموز المسجلة عليها لأول وهلة.

سأخبرها!

- 33 -

الشاعرة رومايصة خرنوني : « الإبداع هو قدرتي ! »

كُتبت رتيبة العنوان بشيء من السخط وهي تضع اللمسات الأخيرة على نص حوارٍ أجرته مع شاعرة، أرسلها سعيد لتغطية جلسة توقيع آخر إصداراتها. وقد كانت تطل من تحت خمارها غرة مصفرة تتصور أنها كانت تجعلها تبدو مثيرة.

- يا خي بغلة يا خي ! غمغمت رتيبة باستياء لكونها منحت تلك الشاعرة لحظة تخيلت فيها أنها شخصية مهمة تستحق التحوار معها، ولو أن الأمر يعود لها لما كانت قد أعطتها هذا الشرف العظيم البتة. وعلى الأرجح فثمة علاقة ما تجمع بينها وبين سعيد غريب الأطوار ذلك، والذي لم يكن يوحى على أي حال بأي نوع من الانحرافات الأخلاقية، إلا أن كل شيء ممكن، خصوصاً أنه وفي ميدان عملها لا مجال للثقة في أحد ثقة عمياء أبداً. فكرت رتيبة بعمق.

ومن أجل أن تؤدب تلك الفاسقة الممتثوفة التي تعتقد ربما بأن اسمها رومانسي لسبب ما، قررت صحيفة الحق أن تخطئ عمداً في كتابة اسمها في الحوار الذي ستنشره لها وتجعله رومايصة بدل رميساء. فهي لم تكن في وارد إظهار تلك الحشرة بمظهر بطلة مسلسل

تركي على حسابها. كما أنه وعلى أغلب الظن فالاسم الأصلي لتلك المتأشعرة هو لموشية أو علجية ليس إلا، لكن يبدو أن تلك المصفرة قررت عيش حلم اسم عاطفي على أوراقها المطبوعة عديم القيمة. فكرت رتيبة بغيط وهي تضبط خمارها بحركة حازمة، وقررت أن تعيد تلك الشاعرة إلى حجمها الطبيعي، بل كانت ترى أن من واجبها تأديب فاسقات الساحة الثقافية على طريقتها، وقد غزاها الفخر لفكرة صعق تلك الحشرة برؤية اسمها مسجلا بإعاقه مستديمة على المواقع الإلكترونية وهي التي قد لا تكون بالأساس سوى عاهرة. تمت رتيبة مغتظة وهي تختار صورة جانبية لـ «رومايصة» من بين ما صوره ذلك الشيء الذي يعمل معها، والمدعو ربما ميلود.

والواقع أن ميلود هو الشيء الوحيد الذي كان يشعر رتيبة بأهميتها داخل العمل، وذلك كلما جرّته وراءها من مكان لمكان وأمرته أن يصور ما تشاء. وبالرغم من أن ذلك الميلود كان كائنا جاهلا متخلفا برأيها. إلا أن رتيبة كانت تحب بصراحة الصور القبيحة التي كان يبدع في التقاطها لضيوفها من زوايا استثنائية، لم تكن تشبه شيئا سوى وجهه المقلوب أبدا، والذي لم تكن على أي حال تمنحه شرف النظر إليه إلا نادرا وهي في سياق إصدار أوامرها. وها هو الآن قد تفنن في التقاط صورة لتلك الرومايصة العلجية أو اللموشية بدت فيها أشبه بحبة ليمون مكرمشة.

- يا خي مصفارة يا خي !

والواقع أن سخط رتيبة على تلك الخرنوبي أو ربما كانت قرنوبي لأنها لم تعد تذكر إن كان لقبها قد مر على مقص التشويه أم أنها ولدت معه بهذا العيب الخلقي لم يكن نابعا من بياض بشرة تلك النصف شاعرة كما اتضح لها حتى من دون أن تقرأ قصائدها.

ذلك لأنها تأكدت بالمقابل أن شعرها المصفر والذي حرصت على إظهاره من تحت خمارها هو نتاج عملية تشقير صناعية، وقد تكون بشرتها البيضاء هي أيضا نتاج كريم تبييض ما. فكرت وهي تحاول أن تواسي نفسها متذكرة المرهم الذي بدأت باستخدامه مؤخرا والذي كان إعلانه يعد بنتائج ثورية في تفتيح لون البشرة قد يوصلها لدرجة لون وجه تلك الحشرة.

والأكيد هو أن انزعاج رتيبة العميق في ذلك اليوم كان قد بدأ يعتمل أصلا في صدرها حتى قبل تحريرها لتلك المقابلة، بل منذ مرورها على البلدية في وقت سابق لسحب شهادة ميلادها والتي كان لا بد أن ترفقها بملف عقد زواجها الوشيك لتكتشف مباشرة خطأ في لقبها الذي كتبه الموظف : بن جلجولي بدل بن لجلوجي. وبدل أن يصحح مباشرة الخطأ طلب منها تصحيح الاسم بنفسها من خلال استصدار حكم من المحكمة، مدعيا أن لقبها مسجل بالأصل على هذا النحو، وهي ما كانت متأكدة من أنه كذبة.

وجه الشر ! غيور !

والأرجح أن ذلك الموظف التافه في البلدية لا يملك في أحسن الأحوال شهادة البكالوريا، ولا يمكن أن يضاهاها في مستواها الثقافي وسموها الفكري، كيف لا وهي الإعلامية البارزة خريجة الجامعة. ونفخت رتيبة صدرها بزهو. كما أنه ولجهله المدقع فهو لم يدرك على الأرجح أنه قد تسنى له مقابلة صحفية قديرة تكتب مقالات عميقة حيث وظفت في عنوان آخر ما خطت أناملها لفظي الذبابة والذبابة على نحو متناغم، ليهز ذلك المقال كيان جميع من قرأه ومخر وجدانهم وزلزل كيانهم زلزلة لا ردة بعدها. ولو أنها قد منحت الفرص التي تمنح لعاهرات ذلك المجال المهني، كما تطلق عليهن، لغيرت خارطة الصحافة الجزائرية بفتوحات إعلامية مهيبة لا محالة.

وتنهدت رتيبة وهي تستحضر تجارب خالدة كانت تستلهم منها قوة إرادتها لمحجبات اقتحمن الإعلام العربي منذ سنوات. فأصبحت الخمارات الملفوفة حول وجوههن الخزفية الملونة بشتى أنواع الأصباغ، وسترتهن اللماعة، وبدلاتهن البراقة ماركات مسجلة. ولم يكن لرتيبة أن تقوم بفتح إعلامي وإنجاز مهني أقل قيمة من فتوحات صاحبات تلك الوجوه الخزفية، حيث أنها كانت تنوي أن تدرج موضة لون الخمار المطابق تماما للون ظلال العيون، ومعها بروشات على شكل وردة تتغير ألوانها بحسب لون الخمار أيضا، وتصبح بذلك هي الأخرى إعلامية يضرب بها المثل من المحيط إلى الخليج بكفاءتها المهنية، وسمو أخلاقها، ورفعته، وجمالها الخلاب، وأناقته. وابتسمت بفخر وهي غارقة في هذه الفكرة اللذيذة. وقد تخيلت نفسها تتجول في صالات الأعراس بعد سنوات مرتدية أثقل القفاطين، ومزينة بأسمك المصوغات، ومكحلة بشهرة لا مثيل لها.

وبينما يشير الجميع لها بالبنان يتجاهلون في المقابل سلفاتها، وعلى رأسهن تلك « المكشردة ». ليقطع الآن وجه سلفتها الذي تراه مباشرة أمامها صفاء أفكارها. كيف لا وقد تذكرت أن تلك المخلوقة تجرأت أن ترتدي عدسات ملونة يوم خطبتها هي حتى تسرق الأضواء منها، بالإضافة إلى وضعها طن من البودرة البيضاء على وجهها.

- الغيورة ! غمغمت رتيبة بحنق محاولة منع نفسها من تخيل ما يمكن لصاحبة شعر الليفة تلك، كما كانت تطلق عليها، فعله يوم زفافها. وإن كانت ستجرأ على منافستها بثياب تضاهاى ما أعدته من ملابس وأكسسوارات ومجوهرات لـ « تصديرتها ». ارتجف قلبها للفكرة. وسرعان ما ذكرها موعد زفافها الوشيك بضرورة تصحيح لقبها حتى يكون ملف عقد الزواج جاهزا في الأسبوع القادم. وقد كان عليها

أن تبحث فوراً عن شخص ليتوسط لها في البلدية من أجل تصحيح اسمها، إذ لم يكن من الوارد أن تعود شخصياً لتتجى ذلك القدر.  
- الكلاب يحبو غير القحـ...

وسرعان ما قاطع أفكارها إشعار على حسابها في الفيسبوك  
- أختي لدي معلومات مهمة أود أن أخبرك بها... إذا كان هذا لا يزعجك.

- أوه... هذا نسيتمو فَعَّ!

وكمشت شفتيها وهي تنظر إلى صاحب ذلك الوجه الكمووني بشيء من القرف. لقد كان يفترض أن تحضر لـ «مهدي سميث» هذا بعض الأسئلة عن «غارة الجنون»، لكنها لم تكن في هذه الأثناء مركزة. وبما أنه عرض عليها معلومات من تلقاء نفسه فلا بأس بذلك، إذ أن قصة «تيتي» التي تركها لها في المرة الماضية لم تكن سيئة.  
- اكتب لي ما لديك في حوالي الأربعمئة كلمة. الآن أنا في اجتماع مهم.

وضبطت خمارها بعنفوان وهي تتخيل وقع كلماتها التي تنم عن باع طويل في المهنة، لاسيما الجملة الأخيرة. لكنها سرعان ما ارتأت أنها لا بد من أن تخفف نبرتها المتعالية كي لا تخسر هذا المتعاون المطيع على الأقل في الوقت الحالي.  
- شكراً أخي.

ونقرت الرسالة وهي تمنى نفسها بمقال مثير عن الجن قد يحولها قريباً إلى نجمة الجزائر الأولى.

\*\*\*

قرأ مهدي رسائل ريتاج المقتضبة بخيبة دون أن يفهم تماما ما الذي يعنيه أن يكتب لها شيئا في أربعمئة كلمة لكنه استبشر بـ«شكرا أخي» على أي حال. وفكر أن وقت محادثة جانلوكا قد حان ليتبين سر اهتمامه بعبارات التيفيناغ تلك... وقد يسحب منه في النهاية هو تلك الكلمات الأربعمئة.

- 34 -

أخذ الحاج علاوة سحبة مخاط عصبية، وهو يستعيد في ذهنه الرنة التهديدية لتلك المكاملة. نظر إلى هاتفه مجددا وهو يود أن يقنع نفسه بأنه سمع فقط الأمر بإلغاء المقالات الخاصة بمشروعات «الهورقار التنموية» وأنه لم يتلق لتوه تهديدا بسحب الدعم المالي عن مؤسسة الحق الإعلامية، التي لم تكن تحقق في الفترة الأخيرة بحسب محدثه التفاعل المرجو منها على صفحات التواصل الاجتماعي، عكس صفحات ناشطين في الفضاء المدني، في توجهه بدا وكأنه يؤسس لإعلام من نوع آخر قد يجعل من الصعب بمكان ضبطه أو التحكم بصنائه.

حك الحاج صدغيه بانفعال وقد بدا لوهلة أنه فقد كليا القدرة على التفكير. أخذ رشفة ماء سريعة تهمض بها على عجل وعاد لبلعها ببطء محاولا استعادة تركيزه بطريقة ما.

لم يكن علاوة زغدودي يتوقع أن وضعيته الإعلامية قد تردت إلى هذه الدرجة، فالتفاعل مع حالات الرقية الناجحة، وفصائح مغنيات الكابريهات على صفحات الحق لا يزال في أوجه. لكن يبدو أن ذلك لم يكن كافيا بنظر أصحاب القمة.

- تبا !

لقد كان يعلم أن الفيسبوك أضر بمصلحته كثيرا، وذلك مذ أصبح كل شخص قادرا على فتح حساب افتراضي من شأنه أن يحوله إلى إعلامي بشكل أو بآخر إن نجح في طرح مادة تجلب الاهتمام الشعبي وتحمل شيئا من المصداقية، ليجمع متابعين بمئات الآلاف ويشكل بذلك تهديدا قويا ليس لصفحات إعلاميين وصحفيين مكرسين بحكم التكوين أو الخبرة المهنية فحسب، وإنما لمؤسسات إعلامية قائمة بذاتها.

وحك الحاج وجهه شاردا، وكأنه غرق فجأة فيما يبدو ظلما مستقبلا المهني. ففي الوقت الذي كانت الصحافة لوقت غير بعيد هي من يتحكم في الرأي العام ويوجهه على نحو حصري، غدا الآن الفيسبوك المنافس الأكبر للإعلام التقليدي. والحقيقة أنه لم يكن قد حضر نفسه لهذا التغير الجذري...

تناول مباشرة هاتفه بعصبية، وحاول تجميع أفكاره فيما بدا وكأنه يبحث عن طريقة ما لوضع مسيرته المهنية على السكة من جديد بأي وسيلة.

- أطلب لي رئيس التحرير حالا.

وضع سماعة الهاتف وهو يفكر في المقالات القادمة...

الفيسبوك رجس من عمل الشيطان

كان يمكن لهذا العنوان أن يفي بالغرض... فكر بتشوش.

أو ربما...

الخلوة الفيسبوكية من الكبائر

لم يقتنع.

تذكر فتوحاته المشهودة في صناعة العناوين المزلزلة لاسيما أيام أزمة الجزائر ومصر الكروية... كان لا بد له من إعادة أمجاده مع مصر... يقصد ضد مصر...

تبا كانت الأمور تفلت من بين يديه.

كان يشعر أنه يغرق...

نظر من حوله بهلع... كانت امبراطوريته فعلا تغرق... تذكر نبذة

يحيى فرقاني التشيعية على الهاتف...

كان يعلم أنهم يصنعون ويمحقون من يريدون في لحظة واحدة

لكن ليس هو...

ليس أنا. غمغم بحقد وتذكر كل ما ورد في تلك المكاملة...

- لن أسمح بذلك. كان عليه تجميع أفكاره وترتيبها. صمت

عقله هنيهة.

لقد كانت الأمور تتعقد... ولم يعد يفرز طرف الخيط... ما الذي كان

يجري في كواليس الربوبية؟ لم يكن يعرف من كان يسير هذه المرحلة...

والحقيقة أن لا أحد كان يعرف ذلك... لكن كان لا بد من أن يقرر

معسكرا ما... إله ما... يفعل شيئا ما... المهم أن لا يغرق بهذه الطريقة.

## - 35 -

الأكيد أن الأمور في هذه المرحلة قد بدأت تتعقد. فكر وهو

يضع المحاورة الأفلاطونية جانبا. ذلك كتفه ببطء ثم أوقد سيجاره.

حاول تجميع أفكار تيمايوس التي بدأت تأخذ مسارا فلسفيا صعبا

في صفحاتها هذه، وعاد للوقوف أمام الجملة الوحيدة التي تمكن

من استيعابها ضمن سيل من الأفكار الجانبية :

عندما كانت الفوضى تعم كل شيء، خلق الله في أي شيء علاقةً بذاته،

وفي كل الأشياء علاقةً ببعضها البعض...

- وهو كذلك ! غمغم برضا وهو يأخذ نفسا طويلا من « الري

دبل موندو ».

كانت قدرته على خلط الأوراق وإعادة ترتيبها... خلق المعلومة ونقيضها... قتل المعارضة وبعثها... كل ذلك في الوقت عينه هو ما كان يشعره بربوبيته... لكن ماذا لو فقد المرء القدرة على تبيين صنائع الرب ؟ أجفل وهو يفرك عينيه مستذكرا أن بصره قد بدأ يخف في الفترة الأخيرة... لكن هل كان الأمر بهذه الأهمية ؟ وعاد للغوص في تلك الكلمات التيمائية...

هل ثمة نار موجودة بذاتها ؟ وهل كل هذه الأشياء التي نعتبرها موجودة بذاتها موجودة ؟

وغرق الآن في صورة ذاته الممنوعة من الفضاء العام والخاص، واسمه الممنوع ذكره جهرا أو همسا، فضلا من هناك وأمرنا من هنا، دون أن يفهم أحد سر أسرار هذه العتمة...

أو لا يوجد فعليا سوى تلك الأشياء التي نراها ونلمس وجودها من خلال حواسنا ولا شيء آخر غير ذلك ؟ ...

وابتسم في هذه اللحظة وهو يغلق الكتاب على تلك المعضلة :

هذه هي المسألة التي لا ينبغي تركها دون فحص أو تحديد، ولا أيضا من خلال التأكيد بثقة مفرطة على أن لا حل ممكن لها...

- 36 -

أخذ مهدي نفسا داخليا عميقا وهو يستعد لقول تلك الكلمات، دون أن يعلم إن كان الحب الذي استبد به من حيث لا يدري هو الذي جعله يقدم على ما سيقدم عليه في عملية حب استشهادية لا تشبهها إلا عملية السبورة الأثرية، أم كانت ببساطة رغبته في إشباع فضوله الشخصي لمعرفة سر اهتمام هذا الأجنبي بأسرار عبارات

غامضة منقوشة بحروف التيفيناغ على صخور متناثرة هنا وهناك في منطقة الهوقار، يرجح الطوارق أنها تعود للغة بائدة لا يعرفونها ولم يلتقوا بأهلها.

- إنها ليست التهاماق.

قال مهدي بارتباك، بينما كان يبلع ريقه الذي نشف فجأة في حضرة ذلك الأوروبي ذي العينين الصغيرتين البراقيتين واللحية البيضاء الخفيفة، والذي تجرأ لتوه على طرق باب غرفته في ذلك المبنى المجهز للشخصيات الهامة في القاعدة، بالرغم من أنه كان يُحضر عليه التكلم مع الموظفين، بحسب التعليمات الصارمة الصادرة من مدير الموارد البشرية. ذلك الموحوش السقيم ذي الوجه الصغير والملامح الحادة المقفلة أبداً، بالإضافة لتوصيات عمه ذي الباع الطويل في العمل مع الأجانب، والذي نصحه بالتفاني في التنظيف ومسح الغبار عن المكاتب ونفض الرمال عن الأغراض، وعدم الاحتكاك قدر المستطاع مع الموظفين الأجانب منهم بل وحتى الجزائريين تفادياً للوقوع في أخطاء ثقافية قد لا يدرك أبعادها.

والحقيقة أن مهدي لم يكن يخطط بالأساس للدنو من أي أحد من هؤلاء الأوروبيين، وهو من كان قد رضع أصول الرهبة وخبر فنون الارتعاش أمام كل من يملك شيئاً من السلطة. وقد يكون هذا أهم ما خرج به من المدرسة، حيث كان يكتفي بمراقبة المعلمين في صغره من بعيد، وهم من كانت بيدهم سلطة طرده من القسم أو استدعاء والده وتحويل لون يومه بذلك إلى الأسود القطراني، أو لون محيط عينيه بضربة واحدة من قبضة أحدهم إلى الأزرق النيلي. هذا عدا أنه لا يذكر أنه تمكن يوماً ما من توجيه نظره إلى المدير رب المدرسة، حتى أنه لا يذكر ملامح أي من المدراء الذين تتلمذ في كنف مؤسساتهم.

وعليه فتاريخ حافل بغض البصر الخنوعي لم يكن له ليحيله بأي شكل من الأشكال إلى تركيز نظره على وافدين من شمال الشمال، وليس فقط من شمال جزائره التي كان يحلم برؤية بحرهما، حيث كانت أقصى رغباته صفاقة حياها لا يتجاوز اختلاس النظر إلى فتياتها اللواتي سمع عن ارتدائهن السراويل الضيقة. مع أنه لم يكن متأكدا أنه كان ليجرأ على رفع بصره وبسطه على أي شيء في حضرة تلك البيضاء التي كان يطلق عليها اسم الدزاير... مستدعية « دز معاهم ». وهي عبارة سمعها هي الأخرى من فنانيين محليين تعرض للتلفزيونات الخاصة والعمومية مسلسلاتهم المملة، والملقاة على مسامح مواطنيها بلهجة التنطع الرسمية لتلك المدينة المتعالية، وهي العبارة التي كل ما سمعها شعر أنه معنيا بها على نحو ما...  
- أعلم ذلك.

وانتفض بدنه الآن بعد أن خرقت هذه الجملة رأسه. ولم يدر إن كان يفكر بصوت عال... أم أن هذا الجانلوكا يعرف شيئا عنه... وعن ماضيه ودواخله وخوارجه وما يحيط به... باختصار ما الذي يعرف عني أيضا هذا الأجنبي؟ وفجأة شعر بوجهه يتغير لونه من البني الفاتح إلى البني الغامق ربما بفعل تدفق الدم على يافوخه الذي لم يكن متأكدا إن كان قد أقفل بعد عامين من ولادته، أم أنه بقي مشرعا على مختلف الأخطار... تبا ما هذه الأفكار التي أخذت تتزاحم على رأسه في هذه اللحظة... وحاول إغلاق فمه يقصد عقله. تبا لم أتيت إلى هنا؟؟

نظر جانلوكا إلى محدثه بهدوء تأملي بدا للحظات وكأنه تشخيصي، وأردف يحاول طمأنة ذلك الشاب الإفريقي الذي كان يتلفت كل حين وآخر من حوله وكأنه يخشى انقراض شيء ما على كتفيه. وبادره  
بلكنة أبوية :

- أعلم أن هذه ليست لغة التهاماق بالرغم من كتابتها بحروف التيفيناغ. قال بابتسامة رقيقة وهو يحط يده على كتف مهدي عله يبت فيه شيئاً من الهدوء، وهو الذي لم يفهم سر اضطرابه الشديد أمامه حد إظهار علامات أقرب إلى البارانويا أو الفرع المؤسس منها إلى مجرد ارتباك عابر. « ولكنني فكرت أنك ربما تعرف شيئاً عن هذه اللغة الخفية ».

- لا... لا... أقصد نعم. لا إنها ليست التهاماق. أقصد أنظر...

ومد الورقة بيد مرتعشة وأردف بصوت أخذت الثقة تنمو بداخله شيئاً فشيئاً. « الكلمات هذه لا تعني شيئاً إن حاولنا قراءتها من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين ».

- حسناً. أوماً جانلوكا من دون أن يظهر أي تعبير واضح على محياه. « ولا في أية لهجة من لهجات التهاماق ؟ »

- لا... لا أعرف... لا... بل نعم... أقصد لا. وعاد مهدي للتلعثم. فصحيح أن التهاماق، وهي اللغة الأمازيغية الوحيدة التي تستخدم أبجديتها الخاصة ويتحدثها الطوارق، تتكون من لهجات عدة كالتهاقارت التي يتحدث بها أهل الهوقار، وتادراق في أدرار إيفوراس، وتاعلومات لعلماء الدين... إلا أنها كانت لهجات متقاربة. تختلف فقط في النطق بين بعضها البعض باختلاف المناطق، أو استخدام عبارات مختلفة قليلة من مكان لآخر، ولا ينجم عن هذا الاختلاف انغلاق كامل للمعنى في أي حال من الأحوال. فكر مهدي وقد خامره بعض الشك وهو يراقب جانلوكا الذي أخذ يهز رأسه بحيرة.

- حسناً... حسناً.

قال الإيطالي وهو يقلب الورقة في تفحص واضح للطريقة الخاصة في كتابة الجمل. كان من الواضح أن ذلك الخبير الإيطالي يعرف شيئاً

غير هين عن هذه اللغة التي يمكن كتابتها في جميع الاتجاهات. وثبتت جانلوكا الورقة على الشكل الصحيح. فوحدها طريقة كتابة الحرف « م » بحسب أبجدية التيفيناغ المكونة من خمس وعشرين حرفا يمكنها أن تنبئك بالوجهة التي أخذتها الكتابة من اليمين إلى اليسار، أم من اليسار إلى اليمين.

بلع مهدي ريقه وهو يشاهد حركة هذا الأوروبي الواثقة وفكر باستغراب. إذ لم يكن من المرجح أن يزعج نفسه جزائري من الشمال بتعلم هذه اللغة التي كان يعتبرها الوطن فلكلور بدائي من « بقية » الوطن، بيد أن هذا الأوروبي ذي البشرة البيضاء المحمرة يبدي اهتماما غير مألوف برموزها الخفية.

- وكيف تفسر تواجد هذه « العبارات » التي لا معنى لها على صخور كثيرة في الهوقار ؟ طرح جانلوكا سؤاله بهدوء وقد أرفقه بابتسامة صغيرة من عينيه جعلت استفهامه يأخذ طابع السؤال الاستنكاري أكثر منه الاستفهامي. إلا أنه لم يدر أن سؤاله العفوي ذاك كان ليثير زواجع من الأسئلة الوجودية في نفس ذلك الشاب الخجول... أسئلة لا علاقة لها بموضوع تلك الورقة من أساسه ولا بالحروف المسجلة عليها، وأحس به الآن وصوت أنفاسه قد علا على نحو كاد يطغى على صوت المكيف...

- تبا ما الذي يحصل ؟

فكر مهدي في سره وهو يشعر بقفصه الصدري يضيق على نحو لإرادي. فهو لم يواجه قط سؤال من نوع « حلل وناقش » منذ أيام الدراسة التي كان جسمه يحتفظ منها بذاكرة بافلوفية رهيبية، حيث كان يقدر دوما ضرورة حماية أعضائه الحيوية من هجمات المعلمين

الكاسرة بعد طرح أي سؤال. حتى أنه وبمجرد أن ينادي المعلم عليه كان يجد نفسه قد بدأ بثني صدره قبل أن يسمع السؤال. لتهوي عليه الضربات والصفعات بعدها بل وحتى الركلات من كل جهة.

كان جانلوكا قد بدأ يشعر أن مهدي يعاني خطباً ما، وهو يتابع حركاته المضطربة. ها هو يثني صدره بحركة تشي بوجع ما، ثم يحك جبينه بعصبية. ليبدأ في هذه الأثناء بمحاولة التلفظ بشيء، لكن بدا وكأن الكلمات قد علقت في حلقة في مكان ما...

وها هو مهدي يحاول تجاوز أزمته هذه بمحاولة تذكر سؤال جانلوكا... يا إلهي ما الذي طرحه علي؟ والحقيقة أنه قد حاول مرة التغلب على خوفه من الأسئلة المدرسية بالتركيز ببساطة على سؤال المعلم ومحاولة إيجاد الإجابة، ليكتشف أن جميع أسئلة المعلمين كانت واحدة:

- أسمع انت شا كنت نقول؟

- عفوا؟ سأل جانلوكا بفضول. فأردف مهدي يترجم على التو ما قاله على نحو غير واع وكلماته لا تكاد تستقيم مع بعضها...

- What did I say... I mean what did you... you say...

What were you saying... I mean... what... nothing... nothing... sorry<sup>47</sup>

وهكذا شعر جانلوكا أنه ربما قد أخطأ في طرح ذلك السؤال، أو أن صيغته كانت مسيئة على نحو ما. وانبرى لتصحيح ما اعتبره خطأ ثقافياً في إيصال المعلومة. فنغمة استفهامه في النهاية ربما قد أشعرت هذا الشاب بشيء من الإهانة:

---

47. ماذا قلت... أقصد ماذا قلت أنت... أنت... بل ماذا كنت تقول... لاشيء... لا شيء... آسف.

- آسف ميدي، إن لم أوصل فكري جيدا. « ألم تقل لي صباحا أن اسمك ميدي؟ » واقترب بأبوية منه وواصل كلامه بالكثير من الحرص ليهز الآخر رأسه بطاعة خنوعية مفزعة. « لقد قصدت بسؤالي إن كنت حقا تعتقد أن هذه الرموز هي رموز لا تحمل معنى بالرغم من انتشارها الكبير في المنطقة. ففي النهاية كل شيء قد وجد لسبب ما؟ ألا توافقني الرأي؟ ».

وبالرغم من أن نبرة كلام جانلوكا هدأت القليل من روع مهدي، لكن سرعان ما عاد الجزع ليستبد في نفسه، وهو من كان يضطرب لسماع أي جملة تنتهي بنغم علامة الاستفهام.

وبدأ الآن بمسح حبات العرق التي تكاثرت على جبينه بيدين متخشبتين كحطبة يابسة. تبا لماذا كان يصر هذا الجانلوكا على طرح الأسئلة الصعبة؟ فكر وهو يتأثت. فهو لم يتعلم طيلة حياته كلها سوى الرد على أسئلة من نوع « شحال شريت تريكوك؟ ... » « وين راك رايح؟ » ... وحتى « كاش جديد؟ » التي تم استيرادها مؤخرا من العاصمة، وكأن بدء المحادثة بها يضيفي على صاحبها طابعا عصريا من نوع ما... إلا أن أي سؤال غير مألوف ويخرج عن إطار المتوقع كان يفقده شيئا من توازنه. فهو لم يتعود التفكير قبل الإجابة بل التذکر... تذكر ما كان يفترض به أنه يعرفه كإسمه ولقبه ومهنة والده وسعر بنطاله، وتفاصيل الدروس للطلبة النجيين الذين يحفظون عن ظهر قلب محتوى كراساتهم... والذي لم يكن يوما منهم. وبلع مهدي ريقه وهو يستدعي مجددا تلك الذكريات المدرسية اللعينة حيث كان يجلس في آخر الصف نصف أطرش بقرب رضوان نصف الأعمى. فمن أين له بإجابات على كل هذه التساؤلات. لينقذه الآن جانلوكا بسؤال آخر يتضمن نصف الإجابة...

- ألا تعتقد أن هذه الرموز قد كانت مثلا لغة قوم لا تعرفونهم من المنطقة ؟

- هل تقصد قل السوف ؟ تساءل مهدي على نحو تلقائي تشوبه الريبة وهو لا يكاد يصدق كم الإهتمام بقل السوف في هذين اليومين، وكيف وصلت أعمال هؤلاء القوم لأوروبا أيضا.

- قل السوف؟؟ هجى جانلوكا الإسم وهو يحاول التأكد من لفظه الصحيح.

- نعم... نعم... قل السوف... الجن. ورمى مهدي على نحو لإرادي الورقة من يده. واستدرك الأمر وعاد لالتقاطها بحذر، وهو يشعر بالحماسة الحذرة لأنه قد بدأ يجيب عن أسئلة هذا الأجنبي دون أن يشعر بضرورة حماية صدره.

- فهمت... فهمت... قال جانلوكا بشيء يشبه الخيبة. « وأين يعيش قل السوف الآن ؟ » سأل دون اهتمام حقيقي.

- يعيشون في مناطق محددة مثل الوديان السحيقة التي يكون جزاء من يتجرأ على الاقتراب منها وابل من الحجارة تمطرها الجن فوق رأسه. وانطلق الآن في الحديث برنة واثقة : « بالإضافة إلى الكهوف التي تظهر في داخلها من حين لآخر أضواء غريبة. كما يوجد أماكن محددة في الهوقار تعد مأوى لأعداد كبيرة من قل السوف على غرار قلته إين تافيلت، ومسطحات ملح أمادرور التي تزخر بالجن الذين يصدرون في الليل هرجا ومرجا كبيرا، حيث يقومون بتكسير صخور الملح، ونحتها على نحو من شأنه أن يقتلع النوم ممن يأتي للعمل عليها والذي وبمجرد أن تشرق الشمس لا يجد أثرا لذلك النشاط الليلي ». قال مهدي وهو يستحضر نبرة الإثارة مع أحاديثه مع ريتاج. وتابع بحماس عله يثير اهتمام هذا الأجنبي مثلما فعل مع حبيبته العاصمية :

« وتعد المرتفعات على غرار غارة الجنون من الأماكن المفضلة أيضا لإقامة هذه القبيلة المخفية. »

- أممم...

همهم جانلوكا متصنعا الاهتمام، وكأنه فرغ من سماع قصة صنعها خيال طفل في السابعة. وأردف محاولا تخير كلماته بعناية حتى لا يشعر هذا البدائي على نحو ما بأي ظل إهانة : « لكن عموما هناك أصوات كثيرة موجودة في الطبيعة لها تفسيرات علمية. »

... -

رد مهدي بنظرة خاوية، ليعود جانلوكا بصفحه بسؤال آخر لم يتبين ماهيته الاستفهامية أو الاستنكارية.

- فأنت طبعا لم تشاهد قل السوف يا ميدي ؟

- لا. رد بتردد. « فمن كان يتسنى له سماع أو مشاهدة هذه الأرواح يبقى مضطربا إلى الأبد، وقد يملكه المرض، كما قد يفقد عقله لأن قل السوف قوم لا يدعون ارتطامهم بأحد حواس البشر الخمسة يمر مرور الكرام... وفي أغلب الأحيان كان ليتم ذلك على نحو شديد ». وتابع محاولا بث المزيد من الإثارة على كلامه : « فقليلون هم قل السوف الطيبون. ولذلك لا بد من التحصن ضدهم بذكر الله، أو من خلال التمايم التي يتم الاحتفاظ بها معلقة بالملابس على الدوام، أو حمل أداة مصنوعة من الحديد ».

- لكن يقال أنه كان هناك في أوقات ماضية من كان يقيم من البشر علاقات وثيقة مع « قل السوف » هؤلاء تصل إلى حد الصداقة، وقد كانوا يتخاطبون معهم بلغتهم الخاصة ؟

سأل جانلوكا محاولا العودة إلى رأس الخيط في هذه المحادثة، وهو من كان شبه مقتنع بأن حضارة كبيرة عاشت في هذا المكان بالتحديد قبل

عشرات آلاف السنين، وطورت نوعا من الطاقة المجهولة المدمرة، وقد تكون هذه العبارات غير القابلة للفك والمنتشرة في كل مكان في الهوقار إحدى شفراتها. أو ربما قد تكون عبارات تحذيرية من مغبة العبث بها... أي شيء كان يستطيع به التواصل مع هؤلاء الأقوام السابقين، وقد كان يأمل على نحو ما أن يجد لدى هذا المحلي بصيص إجابة.

- هل تقصد لغة قل السوف ؟

- نعم ! قال جانلوكا بترقب. هل تعرف شيئا من هذه اللغة ؟

- جوكيين، جورسين، جيتات، جيتوري، أليندياز، إيندياز، هامالو، فيلاللي، تيرا، تيك.

- ما هذا ؟

- الأرقام من واحد إلى عشرة... ويوجد أيضا طريقة أخرى للعد : ديينانا، ديسينانا، ماكاركادا، ماتيزوا، سوراتن، سوراتايني، تيغيميلغاميل، تيغيدتاسا، نوغوميللي، نوروبيللي.

- هل هذا يعني أن قل السوف لهم لغات مختلفة وليس لغة واحدة مشتركة ؟

- لا أدري ! رد مهدي بصدق.

- وهل تعرف شيئا آخر من هذه اللغة ؟

- لا.

- ولا تعرف حتى أحد يحسنها ؟

- أعتقد... وشعر مهدي للحظة بالارتباك قبل أن يتابع الجملة.  
« أعتقد بعض النسوة... ».

- من هن ؟

- في الحقيقة لا أعرف كيف أقولها. وسكت مهدي للحظة، ثم انبرى : « في الواقع يوجد نساء يقال أنهن في سالف الأزمنة كن قدرات على التنبؤ بما تسفر عنه المعارك التي كانت تقوم أحيانا بين العشائر المختلفة حتى قبل أن يعود المقاتلون من الحرب، وذلك على مسافات تصل إلى الأربعمائة كيلومتر. فتعلن إحداهن عن وقوع ابنها جريحا بعد نزال ما، أو عن سقوط زوجها في ساحة المعركة، ليتم التأكد من هذه المعلومات بعد عودة المحاربين. وعلى الأرجح فهذه المعلومات تمرر لهن من قل السوف الذين يقمن بالتخاطب معهم بلغة خاصة. »

- وهل تزال هناك نسوة يدعين اتقان لغة قل السوف ؟

- أعتقد ذلك لكن لا أعرف إن كان الأمر لغوي بحت. ثم صمت برهة وأردف : « إذ لا تزال الكثير من النساء ممن يمارسن التبصير، يخاطبن قل السوف من خلال منظومة طقوس متكاملة، فتقوم المرأة بالاغتسال جيدا لدى حلول الليل وارتداء أجمل ثيابها لتتوجه إلى ”أدبني“ وهو أحد الأضرحة الوثنية، وتنام على حجارته بعد تلفظها بكلمتين اثنتين لا يعرف أحد معناها هما ”إيميجدا أنكرغدا“ .»

- إيميجدا أنكرغدا ؟

- نعم، ولدى إسناد أذنها على الحجارة تتناهى لسمعتها الأخبار التي ينقلها لها من دون شك « قل السوف »، ولكن يقال أن الأدبني يخاطبها بكلمات مقتضبة ثلاث مرات لا أكثر، إذ لا يسمح بالسؤال أكثر من ثلاث أسئلة.

- وهل هناك أساليب أخرى للتواصل مع قل السوف غير هذه ؟

- أعرّف أن هناك أسلوب « التيزوميتين » والمتمثل في التضحية بشاة، ثم اقتلاع الأعشاب العالقة من أمعائها وصنع كريات منها تقوم المرأة بحملها معها لمكان في الفلاء بعيد عن حركة البشر. لتلقي بكل ما أوتيت من قوة بهذه الكريات التي تعتبر دعوة لقل السوف من أجل التواصل. وتبسط بعدها أذنها على الأرض لتأتي المعلومات بذلك تباعا على سمعها.

- وطبعا لغة التواصل تبقى مجهولة لكم ؟

- نعم. ولكن يوجد أساليب أخرى يستطيع البعض التنبؤ من خلالها بالغيب كأسلوب « جهان » القائم على مساءلة حبة الرمل عن قادم الأقدار من خلال رسم نقاط معينة فوقها تختلف باختلاف نوعية الأسئلة، إلا أن الأجوبة بحسب هذه الطريقة هي دوما نعم أم لا فقط، ومن أجل الحصول على أجوبة محددة ومنوعة ثمة أساليب أخرى يتقنها البعض لكنها أساليب جد معقدة.

- وهل تتقن شيئا من هذه الأساليب يا ميدي ؟ ابتسم جانلوكا وهو يتجه إلى المكتب الصغير من تلك الغرفة وكأنه لا ينتظر ردا حقيقيا عن هذا الاستفهام.

- لا... لا... أنا لا... السحر حرام... أقصد لا يجوز... الشعوذة محرمة... الله...

- أوه ! قال جانلوكا بنبرة مسرحية : « تأكد أنني لن أدفعك للقيام بأي من الأشياء التي تحرمها معتقداتك يا ميدي... لا تقلق ! » وتوقف أمام مكتبه مردفا برنة جلييلة : « كما أنني لست مهتما بالسحر والتبصير، وشؤون الآلهة ».

- نعم... لكن عمي... أقصد عم والدي... أذكر حكي لنا شيئا...

وبدا أن مهدي سينخرط في نقل حكاية ما من طراز الحكايات الإكزوتيكية، التي ألهب بها مشاعر ريتاج، من أجل أن يقبض على اهتمام هذا الأوروبي من جديد والذي أفلت منه لسبب ما. إلا أنه انتبه الآن لتناول جانلوكا كتابا رفيعا مجلدا على نحو كتب التراث القديمة من على طاولته، تبين في هذه اللحظة عنوانه. ليشعر مهدي فجأة بمغص في المعدة، وقد تذكر أنه قد « سرق » عنوان ذلك الكتاب في وقت سابق وبحث عن نسخته الإلكترونية. وعلى نحو لإرادي أخذ يثني ببطء صدره. هل اكتشف هذا الأوروبي سرقة يا ترى ؟ وأخذ الآن بالتأتأة...

- أنا... هل عليه أن أخبره ؟ في الحقيقة... ليفتح جانلوكا الكتاب بحركة استعراضية. ويتوقف مهدي عن هذره في هذه اللحظة، تماما مثلما ينغلق صنوبر ماء في حمام عام بمجرد سحب يدك عنه بكل سلاسة. ويبدأ الآخر بالقراءة بهدوء معلم روجي :

إنه لمن الأسهل بكثير أن يحدث المرء غيره عن الآلهة من أن يحدثهم عن البشر، ذلك أن انعدام خبرة المستمعين أو جهلهم التام بموضوع الكلام يساعده على أن يوجد أكثر، كوننا جميعا جهال إذا ما تعلق الأمر بعالم الآلهة...

ورفع رأسه إلى مهدي ليتأكد من أنه يتابعه :

ولأن كل ما نقوله ليس إلا محاكاة وتمثيل لما هو حولنا تماما مثلما يفعل الرسام، لاحظ أننا نكون أكثر رضى عن الفنان القادر على تقليد صورة الأرض والجبال والأنهار والغابات والكون بأكمله، أيا كانت درجة اتقانه لها، كوننا لا نملك معرفة دقيقة عنها، فتجدنا لا نفحص ونحلل كثيرا اللوحة، لأن كل ما هو مطلوب من الرسم أي شيء يمكنه خلق وهم من الظلال حول تلك الأشكال. إلا أنه وعندما ينتقل الأمر

لرسم الإنسان، فنحن سرعان ما نقف على العيوب والأعطاب. ذلك أن معرفتنا اليومية بالجسم البشري تجعلنا قضاة قاسين على كل من لا يقوم بنقل أدق تفاصيل الجسد. وهذا هو تماما ما يحصل في خطابتنا. فنحن نميل للرضا عن المواضيع التي تتضمن أحاديث إلهية وغيبية حتى إن لم تكن أمينة في نقل تفاصيلها. إلا أننا أشداء في النقد وأكثر دقة إذا ما تعلق الأمر بأمور الإنسان الفان.

وابتسم جانلوكا، متمنيا أن تكون فكرته قد وصلت. ثم أعلن برنة مسرحية: « هذان محاورتا تيمايوس وكريتياس لأفلاطون! »  
- نعم... نعم... أفلاطون... أعرفه! رد مهدي بخجل وهو غارق في تأنيب ضميره.

- أول واضح في التاريخ لأسس البحث العلمية...

وبدا وكأن جانلوكا سينخرط في خطاب معرفي هام يستعرض فيه قيمة الفيلسوف الكبيرة، وأهمية المحاورتين التاريخية. فتغيرت على إثر ذلك معالم وجهه واتشحت بجرعة أكبر من الوقار، ليقاطع مهدي ببراءة هيبية اللحظة:

- وأيضا كريتياس... أعرف كريتياس... تيمايوس وكريتياس أعرفهما من قبل!

قال مهدي وهو يحاول أن يهرب من السياق الأفلاطوني الذي « سرقه » في وقت سابق بدافع الفضول، حيث اختلى بالنسخة الإلكترونية من هذا الكتاب دون علم صاحبه، ولم يكن يدري إن كان عليه إخباره أم لا، لينبهي الآن: « أعرف تيمايوس وكريتياس من قبل... أعرفهما ». قال مصرا على هذه « المن قبل » التي تعني سياق كرتون الأنيمي يوغوي أو...

ليتوقف جانلوكا في هذه اللحظة عن كلامه وقد اتنايته الدهشة. إذ لم يكن يتوقع معرفة مهدي لهذين الشخصيتين المجهولتين نسبيا للعامّة، ولم يلبث حتى شاركه بهواجسه المعرفية :

- لكن لاحظ يا ميدي أن العلماء اختلفوا في هوية كريتياس التاريخية، حيث كان يُعتقد أن الأمر يتعلق بالسياسي الأوليغاري الأثيني الشهير وذلك حتى بدايات القرن الواحد والعشرين. إلى أن أكد الباحث في التاريخ الكلاسيكي القديم بورنيت<sup>48</sup> أن ثمة هوة زمنية كبيرة بين كريتياس والمشرّع سولون الذي أتى بقصة المدينة التي أوّمن أن سرها محفور على هذه الصخور. قال جانلوكا بقلق وهو يتناول تلك الورقة التي كان لايزال مهدي يحملها في يده. وواصل الآن وكأنه يعتذر عن هذا القوس ويضيف بنبرة علمية لم يكن يخطؤها : « وقد كان أول وصف ورد لهذه المدينة في الكتب القديمة هو في محاوره كريتياس، التي حملها سولون من روايات مصرية قديمة إلى اليونان. ليخلص المؤرخون إلى أن كريتياس المقصود في المحاوره هو جد السياسي الأثيني المعروف وليس هو ذاته ». وتوقف هنا للحظات وتابع متأملا : « ليبقى السؤال هو عن سبب إدراج أفلاطون في محاورته هذه لشخصية مجهولة مثل كريتياس الجد هذا ويضعها جنبا إلى جنب مع شخصيات معروفة في المجتمع الأثيني آنذاك، على غرار سقراط الذي شارك في نفس المحاوره. »

ليتناه جانلوكا في هذه اللحظة أن التعبير الذي ارتسم على وجه ميدي، أصبح أشبه بوجه الزنجي في بورترية زامور لماري فيكتور لوموان<sup>49</sup>، والذي يذكر أنه وقف قبالة طويلا قبل سنوات عدة

John Burnet .48

Marie-Victoire Lemoine .49

في متحف كامر بفلوريدا. وأعزى تلك النظرة التائهة الذابلة المستسلمة والمنتشية أيضا في مكان ما، للتوقيت المتؤخر من الليل الذي أتت فيه هذه المحادثة. وارتأى أنه من المناسب خصم الكلام قيل أن يخبر هذا الصغير مغشيا عليه من الإنهاك.

- على أي حال أعتقد أنه يمكننا أن نخوض في مسائل أخرى غدا يا ميدي... إذ يبدو لي أنك متعب الآن ؟

- أنا... نعم... أنا لا... أقصد... تلعثم وهو ينظر كالتائه إلى ذلك الكتيب الأنيق، وهو لا يدري إن كان لا بد أن يصفي ضميره ويخبر هذا الإيطالي أن الفضول دفعه لسرقته على نحو ما منه لكنه تردد.  
- لا بأس... لا بأس. رد جانلوكا بلطف وهو يتابع نظرات مهدي المرتبكة : « سأعطيك نسخة إلكترونية من الكتاب إن شئت... »  
- آه. شكرا. أقصد. كنت... نعم...

- سأرسلها لك على بريدك الإلكتروني حالا. وفتح له أجندة جيب صغيرة يتوسطها قلم رفيع وهو يشعر لسبب ما بالحماسة : « سجل لي عنوانك هنا ».

اقترب مهدي من الطاولة بحذر وبهد مرتعشة تناول القلم الدقيق وهم بالكتابة.

Mehdi\_smith1992@mail.com

- سميث ؟ قرأ جانلوكا الإسم مستغربا.  
- نعم... نعم. وأطلق مهدي ضحكة خجلة، وشعر أنه غير قادر على التبرير ثم أردف متلعثما : « لكن لقبى الأصلي مكنار... مكناع... مو... أقصد... »

- لا بأس... لا بأس. وابتسم جانلوكا بطيبة : « ومهدي اسمك إذن يكتب بالهاء وينطق بدونها ؟ أم أنني مخطئ ؟ ».

سأل وهو غير متأكد إن كان قد سمع هذا الشاب يعرف على نفسه كميدي أو مهدي في أول لقاء لهما.

- نعم ميدي... ميدي موكتار موكتاغ أقصد... أسهل لكم... أقصد لا أعرف... وتذكر مهدي أن موحوش كان يناديه أحيانا ميدي وأحيانا موكتاغ أو ربما مكتار... وانخرط مهدي الآن في تصحيح اسمه لهذا الأجنبي الذي يبدو مستعدا لتقبله كما هو مهدي... نعم المهدي... أقصد ماهدي... هل يعترف له بالسرقة... الآن... لكن... تبا وتذكر اسمه بالرسم الخاطئ على تلك السبورة. وبدا وكأنه نسي اسمه أو أنه لم يعرفه بالأصل. « نعم... نعم... مثلما تريد... ألفظه مثلما تريد ».

- لا بل كما تريد أنت ! قال جانلوكا باستغراب، وهو يفكر إن كان أنثربولوجيو القرن الماضي محقين بافتراضهم أن بعض القبائل المتوحشة لم تكن تطلق أسماء على مواليدها، لشدة بدائيتها وانعدام التنظيم في حياتها. وتساءل في سره إن كانت الأسماء في حياة هؤلاء اليوم هي مجرد حوادث عرضية فرضتها المدنية ليس إلا...  
- لا توجد مشكلة... في النهاية أنا... هو أنا.

- لكن هل سأفهم هكذا ماهيتك إذا ما لفظت اسمك على طريقتي، أم أنني سأسبغ عليك لا فهمي لكينونتك ؟

وعاد مهدي ليلبس تعبير الزنجي في بورتري زامور وفتح فمه لقول شيئا ما ذي معنى... الشيء الوحيد الذي يعتقد أنه متأكد منه :  
- لكن أنا سيبقى أنا على أي حالة ! وتذكر لسبب ما أحلام يقظته الهوليودوية بين ويل سميث... فيفتي سنت وحتى أوباما... « أو ربما لا » !

- أوه ! وزفر جانلوكا وهو يتناول منه ورقة التيفيناغ مجددا، وطفق يتأملها وقد أحس أن مهدي هذا أو ميدي كان يخفي عليه شيئا ما :  
« لا لا يا ميدي بل سنعود بذلك إلى المربع صفر وسينقفل كل المعنى ». وفكر كيف أن ما كان يعتبره الأنثربولوجيون قبائل بدائية لا تعي أهمية الأسماء في تحديد الهوية الفردية للإنسان لم تكن بذلك التخلف. حيث تم اكتشاف أسماء سرية كانت تُمنح للفرد في هذه القبائل بُعيد القيام بطقوس سحرية لا يتم تداولها في العلن لفرط قدسيتها.  
ونظر مهدي إلى تلك الورقة ذات الأبجدية المعروفة والمعنى الغائب بحنين غريب هذه المرة.

- ولا بد أنكم في الجزائر أدرى ؟ واستطرد جانلوكا مترقبا ردة فعل ذلك الشاب الذي بدا له غامضا على نحو مفاجئ. إلا أن مهدي رد بنظرة منكسرة دون أن يفهم معنى الملاحظة. ليحمل الخبير الفلكي الأوروبي كتاب أفلاطون مجددا بين يديه ويشرع عينيه بحركة مسرحية :  
- هنا ستجد اسمها كما هو...

- من هي ؟

ALJAZAIR

هكذا لفظها.

- 37 -

كان يدرك أن العمل لجريدة بهذا الحجم والتأثير قد ينطوي أجلا أم عاجلا على القيام بعملية من هذا النوع بالضرورة.  
نظر إلى يديه المرتعشتين، وراودته للحظة فكرة الخروج من هذا المكتب وعدم العودة إليه مجددا في مثل هذه الساعة من الليل... ساعة الوسواس والخبائث والرزابا. إلا أنه قرر هزم مخاوفه وقد لاح

في ذهنه خيال سعيد شكيكن في آخر لقاء جمعهما. لقد رزق بلحظة بطولة طالما انتظرها، ولا يجوز له الآن تضييعها. فكر بحزم وهو يجول بنظره في أرجاء المكتب الإعلامي الأهم في الجزائر. شعر بمرارة في حلقة من نوع ما وقد التقت عيناه بصور لشخصيات سياسية نافذة وأخرى شهيرة تحتفي مع جريدة الحق في مناسباتها الكبرى.

- القذرون... كلهم قذرون ! غمغم بحقد.

وفي هذه اللحظة ركز نظره على الباب. حبس أنفاسه.

كان يدرك لا محالة حجم المجازفة.

وكبس على الزر.

- 38 -

فتح حسابه على الفيسبوك بعدما أنهى بكل برود المكالمة، وأخذ يتخيل ملامح وجه ذلك الأصبغ الوسطى كما كان يحلو له تسميته لدى سماعه بقرار السحب التدريجي للدعم المالي عن جريدة حقه التعيسة. وأطلق يحيى ضحكة مجلجلة وهو يفرك شاربيه بلذة متخيلا ذلك الأخرق غارقا في هذه اللحظات بشرق مخاطه بعصبية، وهو يكاد يبتلع لوزتيه من هول الصدمة...

- كبير وبهلول.

وأخذ عبة من كأسه المربعة، مستذكرا تلك الملامح الغبية للمدعو الحاج في الساحة الصحفية، والذي لم يكن يصلح إلا للتربع على مشهد إعلامي بذات العته والبلاهة. واستدار لحاسوبه وهو يأخذ نفسا عميقا بادئا جولته المعتادة على ضفاف الفيسبوك والذي غدا الساحة الحقيقية للعب لا تلك الجرائد المهترئة.

مر على حسابات من هنا وصفحات من هناك دون أن يرف له جفن أو يتغضن له جبين، إذ كان الجميع يقدم على نحو استثنائي دروسا حية لكيانات ميتة... تالفة... ممحية... تماما كما أرادها كامو في غريبه لا اسم لها ولا ملامح جلية، مستعدة، لأن تُقتل ومُحقق وتُسحق دون أن تستحق حتى أن يشار لها.

دمعة ... Douniazad Monroe... Messi Abdelhakikhov...

اشتياق... الحنون التائب إلى الله... بن مهيدي سون بور سون...  
Salim le roi... امشي بعدي... laldjiri fi 9albi... وأشياء أخرى  
لم يكن قادرا على فك رموزها إلا أنها كانت تثبت له في كل مرة قدرة  
الجزائري الخارقة على لعب دور المواطنة المازوشية. ومسد رجل  
الأمن المخضرم شاربه المثلث برقة، وهو من لم يكن قادرا على تمثل  
نظرياته الاجتماعية الخاصة بعيدا عن الانحرافات الجنسية. ثم عاد  
لتأمل تلك الأسماء العجيبة بمتعة كبيرة، وقد لاحظ أن « السيتويان »  
لم يكفه التنكيل باسمه من طرف عمال الحالة المدنية ومختلف  
موظفي الدوائر الرسمية بأوامر فوقية أو بحكم توجهات سادية  
يوظف الجميع على أساسها حيث يتعمد هؤلاء ارتكاب الأخطاء  
في تسجيل أسماء المواطنين وألقابهم، وحتى نوع جنسهم، لخلق كائنات  
برمائية رخوية لا فقارية موجودة وغير موجودة مهزوزة متلعثمة  
لا تدري إن كانت ستصبح على اسمها أو على مسخ حروف مكورة  
لا على التعيين ببعضها في أي دائرة حكومية. وها هو السيتويان نفسه  
يتفنن على الفيسبوك في الإيغال بتشويه نفسه، في صيحة استمنائية  
مازوشية على وسائل التواصل الاجتماعي ربما لم يعرف تاريخ الشعوب  
كافة شيئا يشبهها.

ومرر يحيى شريط التحديثات لمنشورات أصدقائه على ذلك الفضاء الأزرق، وهو مركز أشد التركيز على قراءة تلك المسميات البشرية بدلالاتها الفصامية، لأشخاص يطالبون بالتمرد وآخرون بالثورة، من خلال أسماء افتراضية اختاروها لضرورات أيديولوجية غدت الآن شبه فلكلورية، أو لتوجهات مسلسلاتية وأخرى كروية، أو حتى بأسمائهم وألقابهم الحقيقية التي اختارتها لهم السلطات الاستعمارية... وضحك الموظف السامي في السفارة، وهو يصطدم ربما بالمنشور المائة من هذه النوعية خلال مسيرته الفيسبوكية :

أعتذر عن قبول صداقات الأشخاص ذوي الأسماء الوهمية

ولم يشعر بنفسه إلا وهو ينثني من الضحك على ما يفترض أنه الاسم الحقيقي لصاحب ذلك المنشور « مراد بوبرويطة »، وهو الذي كان يبدو مزهوا بالحفاظ على « هويته » الاسمية في الحياة الافتراضية من خلال تسميته « الحقيقية »، والتي كانت يراد منها في الفترة الاستعمارية أن تكون مهينة مضحكة عرجاء عوجاء جوفاء وعديمة الدلالة في أغلبها... لتبقى هي هي في مرحلة العزة الاستقلالية.

- مسكيبين ! غمغم يحيى وقد غالبه شعور حقيقي بالشفقة على تلك الكيانات المحكوم عليها بالإعاقة الهوياتية الأبدية. وسرعان ما توقف أمام منشور أشعره بشيء من الزعزعة :

وردني الآن فقط... فضيحة في تمنغاست لا يمكن السكوت عنها...

وشعر بمغص مفاجئ في معدته وتابع القراءة.

على وزير الثقافة أن يقدم استقالته فوراً.

امتقع وجه رجل المخبرات الصلب وهو يقرأ هذه الكلمات وتراءى أمامه طيف ذلك المعتوه.

هل يعقل أنه بدأ ينفذ تحركات انتقامية بعد المكاملة التي أجراها؟ ولم يشعر بنفسه إلا وهو يتناول كأس الجاك دانيلز المربعة من أمامه ليفرغها كاملة في جوفه بعد أن جف الريق في فمه فجأة. هل يعقل أن علاوة قد عرف شيئاً عن صفقة الهوقار؟ ... كيف تجرأ على النشر؟ ... هل أفقدته الصدمة عقله؟ وواصل القراءة وقد ارتفع منسوب الأدرينالين في جسمه لدرجة غير مسبوقة.

- 39 -

- الجزائر؟! -

تمتم مهدي وهو يفكر في اسم بلده الذي لم يفهم يوماً مدلوله ولا علاقته بالبدال عليه أو دلالاته... « أجدها هنا؟! » سأل بنبرة طفولية وهو ينظر إلى مجلد تيمايوس وكريتياس بين يدي جانلوكا.

- نعم! ورسم الآخر على وجهه ابتسامة تواطئية واستدار إلى حاسوبه: « ستأكد من ذلك بنفسك! ».

وفتح برنامج كروم ليدخل منه إلى بريده الإلكتروني، وسرعان ما لمح مهدي أثناء ذلك صفحة موقع جريدة الحق على شاشة الحاسوب.

- إنها الحق! هتف بدهشة.

- الجريدة الأولى في الجزائر... أليس كذلك؟

- نعم... نعم! رد مهدي بزهو، وهو من لم يكن يتصور أن شهرة هذه الصحيفة قد وصلت إلى أوروبا. « ولكن هل تحسن العربية؟ »

سأل مهدي بتردد وهو يود أن يصدق أي شيء عن القدرات الخارقة لهذا الغربي بعدما أثبت أنه يحسن قراءة التيفيناغ بطريقة ما.

- لا... لا ! رد جانلوكا وهو ينظف حلقة بحرج : « لكنني كنت أبحث فيها عن موضوعات محددة، وحاولت مساعدة نفسي ببرامج الترجمة الآلية، غير أن النتيجة كانت مضحكة ». قال وهو يتذكر تلك العناوين العجيبة وأردف : « لكن بالمناسبة، هل يوجد صفحة علوم وتكنولوجيا في هذه الصحيفة ؟ ».

- إيببي... آآآ... ! وتلعثم مهدي وهو يفكر في الإجابة عن هذا السؤال : « لا أدري... في الواقع أنا... ». وتذكر أنه لم يتعرف على هذه الجريدة بالأساس سوى في مناسبات رياضية بحتة. « ربما... لا أعرف... في الحقيقة... » وخطر بباله ريتاج في هذه اللحظة، وانبرى الآن بثقة : « لكن يمكنني أن أصلك بهم بشكل مباشر إن أردت ». ونفخ صدره على طريقة أصحاب النفوذ : « فخطيبي صحفية هناك ! ».

ليلمح لمعة غريبة في عيني جانلوكا.

- 40 -

حاول يحيى استجماع قواه متابعة قراءة منشور ذلك الصحفي المغمور، وهو لا يكاد يستطيع إخراج علاوة زغدودي من رأسه.

- هل يُعقل أنه تصرف بهذه السرعة ؟

وشعر برعشة في باطن يديه وهو يكبس على ذلك الإدراج. هل يعقل أن ذلك البليد قد وصل لشيء ما بخصوص حيثيات صفقة الهوقار مع المركز الدولي للأبحاث الأركيولوجية ؟

لأن كلمة الحق لا يمكن السكوت عليها... ولأن الساكت عن الحق شيطان أخرس. كفانا صمتًا.

- لا بد أنه فعلها... تبا لك علاوة !

أبلغني أحد الأساتذة الجامعيين في جامعة تمنغاست  
من مخبر الموروث العلمي والثقافي...

لتبدأ الأفكار بالتلاطم في ذهن يحيى في هذه اللحظة... وتذكر أحد  
بنود الاتفاق التي تمنع أي باحث جزائري من المشاركة في عمليات  
التنقيب عن الآثار... لكن... ما... لقد كان ذلك بندا عاديا يختلف  
تقدير ثمنه من مسؤول لمسؤول في أي اتفاقية ثنائية... لكن إن تم  
تسريه للعمامة... أو أنه ربما عرف سعر العمولة... أو على الأرجح...  
سحقا! ونفت بقوة محاولا السيطرة على اختلاج أفكاره. ما الذي عرفه  
هذا الصحفي؟ وواصل الآن القراءة بعصبية:

أخبرني هذا الأستاذ المرموق في الجامعة من أنه حرم من تربص  
في انجلترا واستفاد منه صديق للعميد... يا لعار.

كبس يحيى عدة مرات على المنشور حتى يتأكد من أنه انتهى.

- صحح أخطاءك اللغوية قبل أن تدعي أنك صحفي.

- نقول أخرس وليس أحرص. يا للعار وليس يا لعار... إلخ... إلخ...  
صحافة زوج دورو.

- وما دخل وزير الثقافة يا السّي شوف مع وزير التعليم العالي...  
زعمة صحفي انت زعمة.

- واش غاضك الحال على وزير الثقافة؟

- وانت واش دخلك اهدرت معاك وقيل؟

- ياو كيف كيف يا الشيات... قيو.

- قيو تاع امك... أيا امشي رنك.

- روح رنك وحدك... ما تخلينيش نخسرلك في الهدرة.

- ياو ربها واحد يا جماعة.

وتوقف يحيى للحظات ليتأكد مما كان يدور حوله. ثم أطلق قهقهة مدوية بعدما اطمأن على نوعية المنشور الذي كان بصدده، وقد احمر وجهه خجلا من تشكيكه في قدرات علاوة الانبطاحية التي لم تكن تؤهله لفعل مثل ذلك الشيء الذي خطر بباله.

- معليش ما تداوسوش.

وكتب تعليقه متضحكا وهو يسكب لنفسه كأس جاك دانييلز أخرى، قبل أن يبدأ سهرته « الريميتية » كالعادة، وقد اختار لهذه الليلة أنشودة « قُطِع شَرَفٌ » ذات الروح الهمجية المردودة على نفسها. وتابع قراءة التعليقات على ذلك السبق الصحفي الفريد من نوعه :

- هذه التصرفات نعرفها وتعودنا عليها... الفساد مستشري يا صديقي. أنا مثلا حصلت العام الماضي بعد نضال طويل على منحة تربص في المغرب لكنهم أرسلوني في الشتاء وهم يذهبون في الربيع. حسبي الله ونعم الوكيل.

- قل لصديقك أن يستمر في النضال وألا يستسلم.

- وش هو الفرق بين الشتا والربيع في البحث العلمي يا وسمك ؟  
راك رايج تبحت ولا تحوس...

- عندك الحق حبيينا... أساتذة آخر الزمان.

- طهر قائمتك يا سليم من هذه المخلوقات، وإلا لن أعلق مجددا على حسابك. أنا أستاذ جامعي ولدي احترامي ولا...

آ قُطِع شَرَفٌ... قُطِع شَرَفٌ آه...

وهز يحيى كتفيه في تموجات ارتعاشية، وهو يقرأ بغبطة التعليقات مطمئنا على سرية اتفاقية الهوقار التي كان الراعي الرسمي لها.

لم يكن جانلوكا متأكدًا مما كان مقدمًا عليه غير أن الجملة التي نطق بها مهدي للتو بدت وكأنها مستلة من قدر لا بد منه، وغاص الآن في عيني ذلك الشاب الأسود البريء وهو يفكر في الطريقة الأمثل لقذف تلك الفكرة في رأسه، ليمررها لاحقًا لخطيبته الصحفية. ثم ابتسم وهو يضغط بلطف على الكتاب الذي كان بين يديه وانبرى : - أنا سعيد على العموم لأنك أبديت اهتمامًا بقراءة هذا الكتاب. قال برنة استدراجية.

- نعم... نعم... شكرًا... أنا في الواقع... أنا أحب القراءة... والمطالعة... والرسم... والسباحة... وجمع الطوابع... وانخرط مهدي بالتأتأة غير متأكد مما كان يهذر به، إلا أنه كان يذكر أن ذكر هذه الهوايات في برامج الأطفال كان ضروريًا... أو ربما لا... لكنه لم يعرف كيف يرد تمامًا على تلك الجملة.

- جميل... جميل. ولكن هل تحب روايات الخيال العلمي ؟  
- نعم أحب الأفلام. وهتف بابتهاج : « أفلام الخيال العلمي كثيرًا ». لقد كان مهدي متأكدًا من ذلك بالرغم من أنه لم يدخل يوما إلى السينما... كان يود ذلك... لكن لا يوجد في ولايته صالة سينما... أو ربما لا... لا يعرف... لكنه متأكد الآن أنه لا يتقن السباحة، لكنه يحب الخيال العلمي... ولا يعرف ما الذي يعنيه جمع الطوابع...  
« لكن... »

- حسنا... إذن لا بد أنك قرأت رواية لاري نايفن<sup>50</sup> الشهيرة  
« رجل الثقب » ؟

- لا... نعم... لا ! ولم يعرف مهدي كيف يخبره أن كل المكتبات التي يعرفها لا تباع إلا الكرايس وبعض الكتيبات الملونة... و« لا تحزن »... وشيء من المقروط... و... « لكنني أشاهد الأفلام »...  
- لا بأس، لا بأس يا مهدي سأخبرك أنا بمضمون الرواية : « هذا الكتاب يحكي عن قصة مجموعة من المكتشفين يجدون على كوكب المريخ أداة تواصل مع الفضائيين. ويعتقد أحد العلماء أن ثمة ثقب أسود مجهري يقوم بشحن الجهاز بالطاقة. ومن أجل إثبات ذلك يقوم بإطفاء حقل الاحتواء ليتحرر الثقب الأسود بذلك على المريخ ويبتلع الكوكب عن آخره، مهددا النظام الشمسي بأكمله. »  
- هاأ... هاأ... هاأ ! أطلق مهدي بعض الضحكات، معتقدا أن ذلك سيضيف عليه شيئا من الذكاء : « طبعا كل هذا خيال وأمور لا يصدقها حتى الأطفال ». وشعر للحظة بالغباء لأنه صرح منذ قليل لهذا الأوروبي بأنه مولع بأفلام الخيال العلمي. وألحق ضحكاته المتقطعة السمجة تلك بتمتمات غير مفهومة. «

التقط جانلوكا هذا المؤشر الشاذ وتناول هاتفه الذكي وانبرى :

- هل تعلم يا مهدي أن تكنولوجيا الشاشة التي تعمل باللمس مثل هذا الجهاز ظهرت أول مرة كفكرة في إطار قصة خيال علمي لفيليب كاي ديك<sup>51</sup> نشرها بعنوان The Minority Report عام 1956 في مجلة أمريكية موجهة للعامة ؟

- آه... حقا... فعلا ؟ تلعثم مهدي بدهشة : « كنت أعتقد أنه فيلم لستيفين سبيلبرغ ظهر عام 2001 أو 2002 على ما أذكر ». وسحب من جيب سرواله هاتفه وأخذ يقلب صفحاته بخفة محاكيا حركات توم كروز في فيلم The Minority Report المأخوذ عن ذات الرواية

Philip Kindred Dick .51

وقد كان أحد أفلامه المفضلة. « أنظر، أنا أيضا لدى هاتف كهذا ». قال مهدي براءة.

- صحيح ! وابتسم جانلوكا متابعا الفكرة : « فقد راجت هذه التكنولوجيا مع إدخال الآبل لها في منتجاتها، لتتبعها مختلف شركات النقال، وتصبح بذلك هذه الهواتف هي الأكثر رواجاً في العالم ». ثم توقف قليلا واستطرد : « ليس من المخجل إذن أن نقرأ كتب الخيال العلمي، فهي أحيانا تلهم صناع الواقع بأفكارها ».

وهنا احمر وجه مهدي من تلك الضحكات الغبية التي أطلقها على ذكر قصة فيلم « الثقب الأسود »، وقرر الآن أن يكون هو...

- وبالعودة لرواية « الثقب الأسود » عليك أن تعلم بأن الفيزيائيين قد صاغوا نظريات بشأن إمكانية وجود ثقوب سوداء قديمة في باطن الأرض، وذلك منذ سنوات من أجل تفسير لغز الطاقة المظلمة إلى انفجارات أشعة غاما.

ودعا مهدي بحركة من يده إلى حاسوبه ليريه صورا ملتقطة من الفضاء الخارجي عن انفجارات لنجوم رصدتها الإيزا في السنوات الأخيرة.

فتح مهدي فمه في حركة لاإرادية وهو في حضرة صور من الفضاء الخارجي بدت له مألوفة على نحو غريب... صور تشبه ذلك الإشعاع الذي كان يلعب في رأسه حين كان يغمض عينيه في صغره، وهو يتصنع النوم وقت القيلولة، إرضاءً لوالده الذي لم يكن يقبل بغير الصمت المطبق قانونا لتلك السويعة. فيتسلى هو بانفجار تلك الألوان داخل عينيه... ولسبب ما شعر مهدي وكأنه يحمل في داخله منذ الأزل كوكبا أتى هذا الجانلوكا لاكتشافه الليلة.

- وهل تعلم يا مهدي أنه قد تم اكتشاف ثقب في الحقل المغناطيسي للأرض أكبر بعشر مرات من أي ثقب تم اكتشافه سابقا، حيث أنه يسمح بمرور رياح شمسية تسمح بشحن الأجواء المغناطيسية. وهو ما من شأنه تأجيج العواصف الجيومغناطيسية. إلا أن الثقب بحد ذاته لم يكن مصدر الدهشة في ذلك الاكتشاف، وإنما الطريقة التي كان يتشكل عليها الثقب، والتي زلزلت الأفكار الثابتة في الفيزياء الفلكية منذ عقود طويلة، مغيرة بشكل جذري فهمنا لتفاعلات التيارات الشمسية في المجال المغناطيسي.

وانغلق وجه مهدي بشكل تلقائي في هذه الأثناء، بينما واصل جانلوكا كلامه محاولا إثارة اهتمام هذا الشاب البسيط منفرج الشفاه أبدا :

- وهل تعلم يا مهدي أن هناك نظرية تقول باحتمال وجود ثقب أسود داخل الأرض قد يحوّل كوكبنا إلى جهنم حقيقية في أي لحظة؟ ووسع الآن عينيه وهو يطلق تلك المعلومة : « داخل الأرض... نعم ! » وردد برنة ناقوسية : « هذه الأرض أقصد هنا ». وأعاد العبارة وهو يتأكد من دكها جيدا على مسامع خطيب تلك الصحيفة، لكنه لم يجد سوى تعبيرين تائهين على صفحة ذلك الوجه المرهق...

- ثقب أسود؟ من؟ ماذا؟ لاري... لم يعرف مهدي كيف يتجاوب مع هذا الأمر، ولم يعلم إن كان جانلوكا يتحدث عن نظرية حقيقية أم أنه لا يزال يحكي له قصة.

- لا لا، ليس لاري نايفن صاحب الرواية إنما ريفوريو، صاحبة نظرية الثقب الأسود الموجودة في الأرض. إنها باحثة في النازا. وتابع جانلوكا : « وتصف ريفوريو الثقب الأسود كريشة مغناطيسية تنبثق من لب الأرض ذي الحرارة المرتفعة جدا، لتتنطوي حول الأرض على شكل

مصفوفة معقدة من الطاقة المتوهجة، حيث يتفاعل هذا الحقل أيضا مع الشمس وقد يؤدي إلى تغيير تيارات المحيطات. إلا أن تغير الحقل المغناطيسي الذي قد يكون مرده هذا الثقب الأسود المفترض ليس هو فقط ما يشكل أحد تداعياته، وإنما السر الرهيب الذي تكتنفه تلك القوة الفيزيائية التي تمنح كوكبنا الحياة من جهة، وتحمل بذرة انهياره من جهة أخرى». قال جانلوكا بنبرة مأمية: «إنه التجاذب المغناطيسي الهائل المولد لقوة رهيبية أطلق عليها البعض «قلب الظلمة»... الظلمة نفسها التي تقود بالمجرات وتدفع بشظايا النجوم المتفجرة نحو تشكيل الصخور الأولى للعودة للحياة. وهو الأمر الذي قد لا يشذ عنه كوكبنا ليكون مصير الأرض هو الموت من أجل صنع حياة جديدة من قلب ظلمة ينطوي عليها العالم على نحو أصيل... ظلمة تسكن أحشاء أمنا الأرض... ظلمة تسكن أعماقنا». وتوقف الآن وهو يشعر بهول الفكرة.

- نعم... نعم... الظلمة! قال مهدي وهو لا يعرف كيف يعلق تماما على هذه الخطبة.

- ولكن عليك أن تعلم يا ميدي أن أي نجم يحتاج عند موته، إلى أضعاف كتلة الشمس من أجل تشكيل ثقب أسود. واستطرد وكأنه يرد على سؤال افترض أنه سمعه: «لذلك فنحن لا نرجح أن تكون هذه هي العملية التي أعادت إنتاج ثقب أسود داخل الأرض».

- إذن كيف تشكلت الثقوب السوداء؟

في الحقيقة ثمة العديد من النظريات. قال جانلوكا بتأمل: «أحدها أنه وربما في اللحظات الأولى من الانفجار الأكبر (البيبنغ بانغ)...».

- نعم... نعم البيبنغ بانغ ثيوري! قاطع مهدي جانلوكا بحماس مستحضرا عنوان المسلسل الأمريكي الذي كان يتابع حلقاته باهتمام

وكان يحب فيه جوزي تلك الشقراء الظريفة... « آه ربما ريتاج تشبهها ». فكر بحب.

- تماما مهدي ! البينغ بانغ ثيوري النظرية الأشهر لخلق الكون.

قال جانلوكا وهو سعيد لتجاوب مهدي الإيجابي أخيرا، وهو من شعر في حضرة فاهه الفاجر، ونظراته الفارغة أنه ربما لم يكن يفهم شيئا من كلامه، ليستطرد الآن بحماس : « قلت أنه وفي خلال اللحظات الأولى من الانفجار الأكبر، قد يكون الكون بأسره انحسر في جسيم مجهري. وعلى الأرجح فإن هذه الثقوب السوداء الأساسية تكون قد تشكلت منذ خلق الكون، وأنها رافقتنا منذ الأزل ». وصمت قليلا ثم استطرد بصوت أعمق : « لكن ثمة نظريات تقول بأن مصادر الهدرونات الكبير LHC قد يكون قادرا على خلق ثقوب سوداء صغيرة أيضا... ». ط - وما هو الأل إيتش سي ؟ سأل مهدي بتردد.

- آه ! وانتبه الخبير الفلكي إلى أنه قد انجرف قليلا، أو ربما كثيرا في تفاصيل لا تسهل على غير المتخصصين. واستطرد شارحا بنبرة اعتذارية : « الأل إيتش سي هو مجمع تبنت المنظمة الأوروبية للبحث النووي (CERN) بناءه، إيماننا منها بأنه ثمة الكثير مما يمكن اكتشافه عن الجسيمات الأولية لدى إخضاعها لسرعات عالية تقارب سرعة الضوء ». وشرع جانلوكا عينيه في حركة غريزية تجاوب معها مهدي بانفراج آلي لشفتيه، وتابع بحماس أكبر : « وبصفة خاصة التحقق من وجود بوزون هيغز الافتراضي والعائلة الكبيرة من الجسيمات الجديدة التي تنبأ بها التناظر الفائق ».

وهنا انغلق فم مهدي ومعه كل تقاسيم وجهه، وفهم جانلوكا مع هذا التغيير في تضاريس وجهه محدثه أنه تقنيا قد ذهب بعيدا في شرح بعض التفاصيل ليستدرك مبتسما :

- وعلى أي حال يمكنك قراءة رواية Flashforward لروبرت جي. سوير<sup>52</sup> التي يضع فيها مصادر الهدرونات الكبير في قلب الأحداث. فقد يساعدك ذلك في الاقتراب أكثر من فهم وظيفة هذا المجمع. ورسم الآن ابتسامة أبوية على وجهه: « روايات الخيال العلمي قد تكون فعلا مفيدة ». ثم واصل برنة غريبة: « لكن تخيل معي يا مهدي لو أن مسارع الذرات هذا قد تم اختراع شيء مثله في حضارة بائدة، وأن ثقبوا سوداء تم تصنيعها منذ فناء تلك الحضارات لا تزال موجودة تحت أقدامنا؟ ».

- الخيال العلمي رائع! قال مهدي كالمذهول دون أن يركز في الاستطراد الأخير لجانلوكا، وقد انتبه إلى أن هذا العالم الفيزيائي قد أحاله إلى روايتين إلى حد الآن في معرض حديثه. والواقع أن مهدي لم يقرأ الشيء الكثير في حياته وهو ما بدأ يشعره في هذه اللحظات بالدونية، لكنه حمد الله على أفلام الخيال العلمي التي شاهدها: « أفلام الخيال العلمي فعلا خارقة! »

- طبعاً... طبعاً! رد جانلوكا: « وFlashforward أيضا قد تم تحويله إلى فيلم على ما أذكر، وبالعودة إلى... ».

- ماتريكس... مان إن بلاك... ستار وورز... قال مهدي محاولاً أن يستعرض هو الآخر ثقافته السينمائية.

وهز جانلوكا رأسه على مضمض وقد شعر بأن الحديث قد خرج عن سياقه، وحاول أن يعيد الأمور إلى نصابها.

- وبالعودة إلى حديثنا الأول يا مهدي، ومع التغيرات الكبيرة في الحقل الجيومغناطيسي والتحولت الطارئة على لب الأرض التي

---

Robert J. Sawyer .52

تم اكتشافها عن طريق الأقمار الصناعية، وتداول العلماء بالكثير من الدهشة نتائجها فقد أصبحت نظرية الثقب الأسود الموجود في قلب الأرض مرجحة.

- جميل... جميل.

- لا أعلم إن كان هذا الأمر جميلا أم لا. إلا أن السيناريو الأكثر ترويعا هو أن يكون هذا الثقب الأسود متحركا.

- وما الذي يعنيه هذا ؟

- إسمع يا مهدي، بالرغم من أنه قد يكون هناك جزئية ثابتة متواجدة في مركز الكرة الأرضية داخل لبها السائل، إلا أن هناك من ينظر لكون الثقب الأسود الموجود في باطن الأرض متحرك وأنه يرتج جيئة وذهابا في حيز وشاح الأرض. أي أنه عمليا على بعد طبقة واحدة فقط من القشرة. ومع اقتراب الثقب إلى السطح قد يتم جذببه إلى لب الكوكب مجددا... ليقع إلى الخلف متزودا بالسرعة وينزلق من اللب إلى الطرف الآخر من الكوكب.

بدا هذا الوصف بالنسبة لمهدي على نحو ما أقرب إلى لعبة فيديو مسلية منه إلى سيناريو أبوكاليتي يفترض أن يكون ذا نهاية موحشة... - وقد تستمر عملية اللف هذه آلاف السنين إلى حين نفاذ المادة المبتلعة من طرف الثقب بما يكفي لتدمير الأرض كليا !

وتوقف متوقفا ردة فعل مهدي الذي كان يبدو مأخوذا بهالة جانلوكا الطاغية أكثر من اهتمامه بمجرد ثقب... وأسود أيضا. ليواصل جانلوكا كلامه مرفقا إياه بحركات تعبيرية لم يكن غير الإيطاليين قادرين على ارتدائها بتلك الأنفاة :

- وهل تعلم أنه وبمجرد بدء عملية ابتلاع الأرض ستكون مسألة اختفاء كوكبنا مسألة ساعات... ساعات قليلة فقط. ونحن علينا

فقط ألا نسرع هذه العملية. فقد تكون الحياة على الأرض نفسها تعتمد على ثقب أسود يقبع تحت أقدامنا، وهو ما يخلق حقل القوة المغناطيسي الذي يحمي كوكبنا.

- رائع !

- لكن في الوقت عينه قد تكون نهاية البشرية على يد ثقب أسود شره محفوظ في مكان غير بعيد عنا، سيقوم بابتلاع الأرض وما عليها لسبب ما.

نظر مهدي بعينين فارغتين لهذا الشخص الذي كان يقول الشيء وضده في الوقت عينه، فهل كان الثقب الأسود يحمينا أو يقتلنا ؟ وتذكر أنه لم يفهم يوما نظرية « من يقتل من ؟ » الخاصة بالعشرية السوداء هي الأخرى، واستسلم حينها لفكرة أنه لا يجب السياسة ولا كواليسها المعتمدة، كما كان قد استسلم في المدرسة لفكرة أنه لا يجب الفيزياء ولا العلوم التجريبية.

وعاد ليطالع بود وجه هذا الأبيض الطويل الذي كان يشرح له نظرية فيزيائية حديثة بكلمات شبيهة جعلته يشعر بالرغبة في القفز سريعا لغرفته من أجل التهام كتاب فيزياء ما... تبا لماذا لم أحظ بمعلم من هذا النوع في المدرسة ؟ فكر بأسى وهو يشاهد جانلوكا يسرد عليه معلوماته اللذيذة بشغف لا يوصف... أو ربما يوصف بقدر شراسة معلمته نبيلة في المرحلة الابتدائية وبقية أساتذة المتوسطة، الذين كانت تتراوح تصنيفاتهم بين الجودوكا والكاراتيكو والتايكواندوكا... فكلهم كانوا مغرمين على نحو عجيب بالألعاب القتالية.

وحاول مهدي طرح تلك الأشكال الوحشية من عقله، وهو في حضرة لحظة حياتية ممتعة كان يتناول فيها بلذة معلومة علمية. هل يعقل هذا ؟ وهو من كانت جلسات الدراسة بالنسبة له أقرب

إلى جلسات تعذيب نفسية وجسدية، أما فكريا فطالما اعتقد أن المعلومات التي كان يحملها الأساتذة بمجهود سيزيفي واضح، لطحها منجنيقيا على رؤس تلاميذهم الغضة كانت أشبه بكتل إسمنت مسلح يقومون بصبها في قوالب لا تناسبها.

وأخذ مجددا تنهيدة عميقة وهو يستمتع إلى جانلوكا الذي كان يبدو في تلك اللحظة كمدلك فكري بارع تتدفق معلوماته بانسياب بين تلافيف عقله... لا بد من أن جانلوكا كان في حياة أخرى مدلكا تايلانديا ما. فكر مهدي الذي لم يحظ في حياته بأي جلسة تدليك سوى من خلال مشاهداته للأفلام السينمائية من على كرسيه الخشبي الأعرج الذي كان يدك تحت أحد رجليه كرية ورق تثبته على نحو ما، وتردعه عن الإتيان بذلك الصوت المنفر الذي كان من شأنه تشتيت تركيزه من على شاشة الحاسوب التي كانت تحمله إلى عوالم لم يحلم يوما بملامستها على أرض الواقع. وابتسم مهدي في هذه اللحظة محاولا تلبس سحر ويل سميث بشكل ما. لكن سرعان ما تبددت تلك الابتسامة عن وجهه بعد أن بدا وكأن جانلوكا وضع آخر نقطة على تلك الحوارية المونولوجية الدسمة...

- فلا أحد يعلم متى سينتهي الثقب الأسود وسط الكوكب من تناول المقبلات والشروع في تناول الوجبة الرئيسية... إذ قد يتم ذلك في غضون ملايين السنين... كما قد يتم غدا.

- غدا؟؟ كرر مهدي الكلمة وهو يشعر بالأسف لانتهاء هذه المحاضرة الشهية أكثر منه لخوفه من انتهاء حياته على كوكب الأرض مبلوعا من ثقب أسود لا يعرف له قرار: « لكن لماذا؟ أقصد كيف برأيك؟ » سأل محاولا مط الحديث.

- ثمة الكثير من الفرضيات يا ميدي. رد جانلوكا بتأمل. فعدا عن السيناريوهات المتداولة التي ذكرتها، ثمة أيضا سيناريو يركز إلى نظرية ريوفريو التي ترجح أن اللب الداخلي للأرض محاط بإعصار من الجزئيات النووية المشحونة، والتي تدور حول ثقب أسود يلف بدوره حول مركز اللب، وهو ما يؤدي إلى خلق حقل كهربائي هائل. وبحسب هذا السيناريو فإن الشحنة الموجبة من هذا الحقل المغناطيسي ثنائي القطب، قد تكون موجودة في القطب الجنوبي. إلا أن انقلاب هذه القطبية الذي قد يحصل من حين لآخر، من شأنه أن يؤدي إلى تغيرات هائلة على الأرض، بحسب تزايد أو تناقص سرعة الثقب الأسود وتغيير اتجاهه، وهو ما قد يقلب الشمال إلى جنوب والموجب إلى سالب.

- أو الشرق إلى غرب ؟ سأل مهدي بشيء من التوجس.

- ممكن. رد جانلوكا بعفوية.

- تبا سيكون إذن يوم القيامة ! واصطكت ركبنا مهدي فجأة، وهو يتذكر الأحاديث المنقولة عن أشراف الساعة وعلامة اقترابها الكبرى والصغرى. « القيامة ؟ » وتمتم بذعر وهو يشعر بعينيه وقد خرجتا من محجرهما، بينما كان عقله يعيد تصور المشاهد الأبوكالبتية المروعة التي يحتفظ بها دماغه منذ طفولته عن « أهوال يوم القيامة ». تبا كان ذلك عنوان أول كتاب يقرأه. وشعر في هذه الأثناء بنشfan في حلقة وتسارع بنبضات قلبه. « والشعبان الأقرع ؟ » غمغم بجزع.

- عفوا؟! سأل جانلوكا محاولا التلصص على تمتمات هذا الشاب غير المفهومة والذي كان يأتي بحركات غريبة عجيبة مذ دخل عليه الغرفة. حتى أنه قد بدأ يشك أنه قد يكون مصاب بلوثة عقلية، وهو

من حوّل وجهه إلى ساحة لاستعراض مختلف تعابير الفزع والرعب والريبة والخوف والتبلد تارة والدهشة تارة أخرى.

- يوم القيامة؟ هل سيكون يوم الحساب؟ قال مهدي بصوت شبه مسموع وهو غير متأكد إن كان هذا الجانلوكا يدرك هول ما يتحدث عنه... لا بد أنه لم يقرأ عن الشعبان الأقرع... عن أنكر ونكير... عن ظلمة القبر... عن كريات الساعة... عن نوازل القيامة... عن وحشة الصراط... عن عذاب الآخرة... وعن بكاء الميت لحظة ترك أهله له وحيدا في تلك الحفرة... لقد كان ذلك أول ما شاهد على اليوتيوب ومن بعدها انقطع عن الضحك لمدة واحد وعشرين يوما ثم حلف ألا يعود لمشاهدة فيديو ذي عنوان عربي على ذلك الموقع لما تبقى من حياته... ليعيده هذا الحديث على نحو لا واعي لتلك الأجواء الكارثية... ويحس في هذه اللحظات أن الدمعة ستفر من عينيه وأنه سيجلس بعد قليل القرفصاء ليبدأ بالنعيب والعويل والندب والولولة، بينما هذا الجانلوكا كان يقف بشبه لا مبالاة يحدثه بهدوء وروية عن ثقب أسود مستعد لابتلاع الكون في أي لحظة، أو قلب شرقه إلى غرب واستدعاء يوم القيامة.

- نعم ستكون نهاية العالم لا محالة. رد جانلوكا بعدما فهم سؤال مهدي، وقد أتت نبرة صوته حيادية لا تشف عن أي اختلاج للمشاعر. مما جعل مهدي يرغب في الانقضاض على نفسه وصفح وجهه مرة ومرتين وثلاث... لماذا كان يشعر هو برغبة في البكاء في تلك اللحظات... لماذا سيطر عليه شعور الهم والغم وضيق الصدر وانطباع النفس... لماذا يارب. لقد كان يعلم أنه قد ارتكب الكثير من المعاصي في حياته لكنه لم يكن يستحق الحرق... لم يكن يستحق أن يخضع لاستجواب استعماري كما صورته الأفلام الثورية... لماذا قد يعذبه أنكر

ونكير بالأسلاك الكهربائية كما فعل الفرنسيون مع العربي بن مهدي ويسلخوا جلدة رأسه ويقتلعوا أظافره واحدا واحدا... ما الذي فعلته لأستحق كل هذا ؟ فكر مرتجفا وهو يتذكر تماما أنه قرأ في « أهوال القيامة » أن لا أحد يمكنه أن يفر من هذا المصير حتى من شهد بأن لا إله إلا الله... وكاد مهدي يخر صريعا وهو يتصور حجم العذاب الذي يحضره له الله لحظة الحساب. وقبل كل هذا كيفية لقائه بملك الموت الشديد الذي قد يكون أشد قسوة من معلمته نبيلة... يعني عزرينة في الدنيا وآخر على عتبة الآخرة ؟ هل كان يستحق أن ينقض عزرائيل عليه ليقتلعه من الدنيا وهو مرتديا ثيابا سوداء مرهبة مرعبة وهو من قضي طفولته البائسة مروعا من أصحاب المآزر البيضاء ليكون ملخص حياته ومماته فزع في جزع.

وبينما كان مهدي يستعيد شريط الذنوب والمعاصي التي قد يستحق عليها كل هذا العذاب، وآخرها وقوفه في هذا المكان من أجل إغواء ريتاج في وقت لاحق، وقبلها سرقة عنوان كتاب، وقراءته دون الاستئذان من صاحبه. شعر برغبة عارمة في جلوس القرفصاء والانخراط في العويل... عويل قد يصل صدها إلى العاصمة ويرن في أذن حبيبته. تبا ما هذه الأفكار التي تراودني في هذه اللحظات العصبية ! وأخذت شفثاه ترتج على نحو لإرادي :

- أستغفر الله... أستغفر الله... أستغفر الله...

- لا بد أنك متعب يا مهدي ! قال جانلوكا : « آسف لأنني أخذت

الكثير من وقتك ».

- آه... نعم... نعم... أقصد لا شكرا... عفوا... ! وحج ذلك

الكتاب المعصية.

- سأرسله لك كما وعدتك بالنسخة الإلكترونية. رد جانلوكا على نظرات مهدي بأبوية: « وستخبرني لاحقا إذا تمكنت من إيجادها ». - إيجادها؟

ALJAZAIR. ومد له مجددا ورقة التيفيناغ، وقد سجل عليها: أنظر ص 49.

## - 42 -

دخل مهدي غرفته متناسيا « أهوال القيامة », وأخذ يقلب تلك المحادثة الدسمة في رأسه حيث غدا منفصلا تماما عما يجري حوله ليعيش في عالم مواز من الأفكار التي لم تكن تنتمي إلى حياته ذات المشاهد المحدودة. لمس وجهه وهو ينظر إلى المرأة، كأنه يتأكد من وجوده. ثم استلقى على السرير وهو يعيش حالة نشوة خالصة. لم تكن تلك الحالة تتلبس مهدي عادة إلا بعد الانتهاء من مشاهدة أحد أفلامه المفضلة. وأعاد على نفسه مقاطع من تلك اللحظات الشهية. ثم توقف برهة، وهو يحاول جاهدا تذكر عنوان الروايتين اللتين أشار إليهما جانلوكا في معرض حديثه عن الثقوب السوداء. وسرعان ما تلبسته رغبة قوية في القراءة. وفكر أن قراءة رواية في الخيال العلمي قد يكون فعلا أمرا ممتعا، ولكنه لم يعرف أين يمكن إيجاد روايات من هذا النوع فهو لا يذكر عناوين غير « تحفة العروس », و « وصفات خيرة لأشهى سفرة » و « تعلم الإنجليزية في ثلاثة أيام » في آخر مكتبة دخلها في حيه منذ سنوات لشراء الشريط اللاصق. ليخطر بباله أنه قد يجد ضالته على الفيسبوك. ففي النهاية كان ذلك المكان أشبه بسوق شعبي يمكن أن تجد فيه أي شيء وكل شيء وبالمجان. ونقر مباشرة على خانة

البحث عن الروايات الجزائرية لتطل عليه صفحة « روايات جزائرية »  
مرحبة بزوارها :

الجزائر أرض الروايات والقصص والحكايات، فهي موطن أول رواي  
في التاريخ أبوليوس. أهلا بكم في هذه الصفحة المفتوحة لجميع  
الروائيين الأفاضل، والقراء الشغوفين بالحرف الجميل والكلمة الراقية...  
انقبض صدر مهدي من الجملة الأخيرة، وخشي ألا يكون  
من المحسوبين على ذواقي العبارات المخفوقة بالقشطة، والكريمة  
المحلاة المركرة.

نظف حلقة بحركة غريزية، وشعر بحرقه عابرة قرصت بلعومه  
ولسان مزماره ولهاته والغلصمة. إلا أنه استبشر على العموم بإيجاده  
هذه الصفحة التي كانت تضم عشرات الآلاف من المعجبين، وشعر  
بأنه سيجد لا محالة ضالته في بلد كتّابه هم أحفاد أول رواي  
على وجه البسيطة. وابتسم بفخر وانتوثرستي خاص لأنه ابن هذه البقعة  
التي تشد إليها الأجانب وتثير فيهم الرغبة في البحث العلمي أيضا.  
وفكر مزهوا بصديقه الأوروبي الجديد الذي فتح شهيته للقراءة  
والاستمتاع، وباشر رحلة البحث عن رواية خيال علمي :

« اعترافات عورة » قريبا في جلسة بيع بالتوقيع... كونوا في الموعد.  
اعترافات عورة ؟ دمدم مهدي وقد تكورت شفتاه على واجهة فمه  
متابعا منشورات الصفحة.

مقطع من رواية « إثم على إثم » الفائزة بجائزة عبد الحفيظ  
بوصوف للأدب، استمتعوا بها :

كان ذلك الماخور يعج بالعاهرات الحنونات الشغوفات الرؤوفات  
وكنت أنا أجلس على كرسي الحزن والأسى والألم أغب من كأس الشقاء

والتعاسة وأرتشف رشفات طويلة بأسة كئيبه حزينة طويلة من بيرة رخيصة رخص المثقف في هذا الوطن. نظرت إلى تلك الغانية البهية ذات الرموش الحزينة والجفون المنكسرة وأنا أتألم على حال البلاد ومصيره. ثم وقعت عيني على صدرها المرمرى النافر الذي أصبح ينير عتمة دربي وظلمة أيامي منذ تلك اللحظة. لم يكن ذاك بصدر امرأة في الأربعين، بل صدر فتاة في السابعة عشرة. كيف تحدث تلك السمراء الآسرة قوانين الجاذبية يا ترى؟ ها هي تنظر إلي وقررت ألا أخيب ظن نظراتها الملتهبة. ودككت عيني في ثنيات لحمها المقددة بملمح الشهوة وغرست شغفي في جوف روحها المتوثبة ولعقت حبات... وشعر مهدي أن معدته قد انقلبت رأساً على عقب، وفر باحثاً عن منشورات ترطب ريقه من طعم السماجة الذي اندلق على نفسه دفعة واحدة.

- تبا ما كل هذا؟! غمغم باشمئزاز ليصطدم بعنوان رابطٍ بدا مستلاً من إحدى الصفحات الثقافية :

الروائي الجزائري حميد رماني على هامش توقيع روايته الجديدة : رسالتي إلى الروائيين الجزائريين حسنوا مستواكم أيها الفشلة. انفتح وجه مهدي على مستوى الفم في نصف انبلاجة غير محددة، وأطلق على نحو لإرادي ضرورة مدوية. تلملم من كرسيه وهو يحك رأسه بحيرة ناقرا منه القشرة. وفكر أنه ربما قد حط على الصفحة الرياضية من جريدة الحق التي عرفت بخوضها حروب عناوين طاحنة مع زميلتها جريدة « الأنوار » وكذا جريدة « القدر ». وعاد للتأكد أنه يقرأ صفحة ثقافية تعنى بشؤون الأدب، وهو من لم يحاول أن يطلع يوماً على جديد الصفحات الثقافية خوفاً من ألا يكون بمستوى

« الروائيين الأفاضل والقراء الشغوفين بالحرف الجميل والكلمة الراقية ». ليرتطم الآن بعنوان ثقافي آخر :

الروائي مهدي العياشي :

« عيب على سماسرة الثقافة توزيع الدعوات

لحضور الملتقيات بالمعريفة<sup>53</sup> »

ومد مهدي الآن رجليه بشكل لإرادي، وواصل الهبوط بالصفحة  
عله يجد شيئاً يفيد. وكان كلما قرأ عنواناً فما الشك أكثر في نفسه  
وتساءل فيما لو كان سيجد فعلاً ضالته في هذا المكان...

الروائي سعيد بهلوز :

« أنا إضافة هامة للأدب الجزائري وأنصح الجيل القديم

بالتوقف عن الكتابة ».

وعادت رائحة الفسء لتغطي المكان، بعد أن أطلق مهدي العنان  
لأمعائه للتعبير عن نفسها.

- سحقاً أين أنا ؟ غمغم وقد راوده شعور مزعج أن هذه الصفحة  
قد بدأت تنتشله من حالة الوجد المعرفي التي كانت قد تلبسته منذ  
سويعة، لتدكه في أجواء الريح والضراط والفسء والفاصولياء. ليحط  
على منشور آخر :

مقطع من روايتي الجديدة « أوهام منثورة على جدار الشوق »

التي ستكون حاضرة في المعرض الدولي للكتاب

إن لم يخلف الناشر وعده :

وتوهان الليل في أشواق الوجد يصطك خلدا لينمنم حزقات حزني.

رحلت إلى حضنه فارة من الغدر أهفو لمعبد الحنين الآسر

---

53. المحسوبة.

في حزن تلايب الأسي ودروب الوهن. رسمت وشما  
في حزن الحزن والألم أدندن  
على جبين الندم. طلقت مهجتي ومضيت أشق درب الغم  
والهم والكدر...

وشمشم مهدي المكان في هذه اللحظة بتوتر واضح، وشعر أنه  
إن استمر الأمر على هذه الحالة، فقد يضطر لنقع نفسه لأيام في عصير  
الطماطم حتى يقتلع من أنفه هذه الرائحة. وقرر أخذ زمام المبادرة :

أنا أبحث عن روايات خيال علمي ؟

ونشر سؤاله على الفور، لكن سرعان ما تملكه الخجل وقد فكر أنه  
ربما قد قصر في حق اللغة بعد مهرجان الكلمات الذي صادفه منذ  
لحظة، ليتلقى الآن إشعارا بوصول أول رد على استفساره :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه،  
أما بعد :

قال ابن أبي العز الحنفي في مقدمة شرحه على العقيدة الطحاوية :  
علم أصول الدين أشرف العلوم، إذ شرف العلم بشرف المعلوم،  
وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع. وقال ابن رجب :  
أفضل العلم : العلم بالله وهو العلم بأسمائه وصفاته وأفعاله،  
التي توجب لصاحبها معرفة الله وخشيته ومحبته وهيئته  
وإجلاله وعظمته والتبتل إليه والتوكل عليه والصبر عليه  
والرضا عنه والانشغال به دون خلقه. انتهى. وقال ابن القيم  
في إعلام الموقعين : ولما كان العلم للعمل قرينا وشافعا  
وشرفه لشرف معلومه تابعا كان أشرف العلوم على الإطلاق  
علم التوحيد وأنفعها علم أحكام أفعال العبيد،

ولا سبيل إلى اقتباس هذين النورين وتلقي هذين العلمين  
إلا من مشكاة من قامت الأدلة القاطعة على عصمته وصرحت  
الكتب السماوية بوجود طاعته ومتابعته وهو الصادق المصدوق  
الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. أه. وفي رد المحتار  
في الفقه الحنفي في الكلام عن فضل الفقه : وفضيلته كونه أفضل  
العلوم سوى الكلام والتفسير والحديث وأصول الفقه.  
أه. روى ابن عدي بإسناده أن الأعمش -  
وهو من كبار أئمة المحدثين - قال : يا نعمان - يعني أبا حنيفة -  
ما تقول في كذا ؟ قال : كذا، قال : ما تقول في كذا ؟  
قال : كذا، قال : من أين قلت ؟ قال : أنت حدثتني عن فلان عنه،  
فقال الأعمش : يا معشر الفقهاء أنتم الأطباء ونحن الصيادلة.  
وقال نحو ذلك يحيى بن معين لأبي ثور، كما في المحدث  
الفاصل للرامهرمزي.

وقف مهدي دقيقة صمت أمام هذا الشيء الخطابي المهيب  
واستشعر حدوث أمر جلل.

ما الذي قرأته للتو ؟ فكر وهو يشعر بالخدر، بعد أن فقد لدقائق  
إحساسه بالزمن وهو يقرأ ما كان يقرأ دون أن يفهم أو يعلم ما دخل  
كل هذا بذاك. وسرعان ما عادت لذهنه أهوال القيامة وانكماش بدنه  
على نحو لإرادي. ولم يجرؤ على إعادة قراءة ما مرق على عينيه للتو  
خشية أن يتبدل حسه كلياً أو أن ينخرط ربما بالبكاء. وقبل أن يصعد  
للتأكد من ماهية هذه الصفحة وإن كان قد أخطأ في طرح استفساره  
فيها بالأساس، أتاه إشعار آخر يرد على منشوره :

- أنصحك بـ« رحيق الجسد ». ليست رواية خيال علمي ولكنها  
رواية رائعة تتحدث عن معاناة المرأة من خيانة واضطهاد الرجل.

روعة. تهلل وجه مهدي ولم يشعر بنفسه إلا وهو ينط إلى وجه هذه الفيسبوكية التي اختارت صورة ممثلة هندية لبروفائيلها، وطلب صداقتها وقلبه يخفق بقوة... لكنه تلقى إشعارا آخر على منشوره :  
- أختاه عليك بقرأة حصن المرأة المسلمة بدل قراءة الروايات قتاله قد يأتي عليك يوم لا تنفع معه توبة ولا ندم. يوم يشيب له الولدان وتقشعر له الأبدان. التوبة التوبة النار تلتهم الأجسام... جهنم في الانتظار تالله تالله لا تندمن ندما لن ينفع معه توبة ولا يرجى منه غفران...

وأحس مهدي أن حجرة مدببة قد قذفت للتو على رأسه من مصيابة يدوية. ليغالبه مجددا الشعور بالبكاء...  
- امسح تعليقك أيها المتخلف.

ما الذي يحصل هنا ؟

- دع عنك روايات الأطفال. أنصحك بقراءة الروايات الفلسفية العميقة مثل « وهم السعادة ». رواية جميلة للراشدين طبعاً.  
- ارتقوا إن القاع مزدحم.

لم يفهم.

- أي علم... وأي خيال... وأي رواية... روح بول وارقد.  
وشعر مهدي أن المكان الأنسب بعد هذه الجولة الروائية التي سببت له تلبكا معويا حادا، هو لا محالة بيت الراحة. وتوجه إلى المرحاض على أمل إصلاح ما يمكن إصلاحه من هذا اليوم الذي كان مثيرا للاهتمام قبل نصف ساعة فقط.

- سلام أخي مهدي.

ارتعش قلبه لصوت هذا الإشعار الذي أثاره كرسالة على الخاص.

إنها ريتاج.

- وألصق مهدي مؤخرته على الكرسي بسرعة.

- سلام. رد على الفور مؤجلاً دخول الحمام من أجل الرد على حبيبته التي يبدو أنها لا تقدر على فراقه طويلاً.

- هل من جديد ؟

- لدي أخبار هامة ! وتخيل حجم الانبهار الذي ستصاب به هذه الصحفية العاصمية إذا ما أخبرها عن الحديث الذي دار بينه وبين ذلك الأوروبي رفيع المستوى.

- 43 -

- ما وراء ذلك الجرذ الحقير يا ترى ؟

تمتم موحوش وهو لا يزال يفكر في تحركات ذلك الزبال الأسود المرية، وهو من لم يكن تغيب عنه أي حركة داخل القاعدة. نظر إلى الساعة، وعاد لمراقبة الوحدة السكنية المجهزة الخاصة بمهدي والتي لا يزال نورها مضاء بعد خروجه من عند جانلوكا الذي أمضى عنده أكثر من ثلاثة أرباع الساعة.

- 44 -

- لقد طلبت منك في المرة الماضية أن تترك لي قصة أخرى عن الجن في حدود الأربعمئة كلمة.

- أه نسيت ! رد مهدي بحرج دون أن يفهم إصرار ريتاج على الأرقام : « لكن ربما أفضل أن أتكلم فهو أسهل بالنسبة لي... لو تسمحي لي بالاتصال بك فلدي شيء آخر هام لأخس... ».

- لو سمحت يا أخي لا تتجاوز حدودك...

- آسف... لكن...

- أنا لا أتكلم مع أحد في هذه الساعة. القليل من الاحترام

لو سمحت !

- عفوا... لم أقصد...

وسرعان ما انتبهت رتيبة إلى أنها قد تنفّر هذا الشاب منها وتخسر مقالها. سحقا! فكرت في نفسها وقررت التنازل قليلا والتخفيف من لهجتها ومعها طلباتها.

- أكتب لي لو سمحت حكاية ما عن الجن تعرفها.

- أنا في الحقيقة لم ألتق بأي من الجن بنفسي. وحاول مهدي التهرب من الموضوع وهو يشعر بالانزعاج : « ليس لدي الشيء الكثير لأقوله عن الأمر، لكنني أردت أن أخبرك عن... ».

- أي قصة سمعتها لو سمحت ! كتبت باستعطاف.

- حسنا... حسنا! فكر مهدي على مضض وبدأ بالكتابة : « في نهار

مشمس من أحد الأيام قامت امرأة سوداء... ».

- تقصد طارقية ؟ عقبته رتيبة وهي تشعر لسبب ما بالإهانة.

- لا بل سوداء. أجاب مهدي بشراسة وتابع دون أن ينتظر الرد :

« قامت بجمع الحطب من واد آداغ إيتيغارن، ليقوم إعصار شديد على بعد حوالي المائة متر عنها حيث بدأ الغبار بالالتفاف بقوة إلى أن شكل دائرة مكتملة أخذت في الارتفاع شاقوليا وهي لا تزال تلف وتلف بأقصى ما يمكن للمرء أن يتخيله من سرعة. وعندما بلغ الإعصار ارتفاعا معيناً بدأ بالسير بخطى مترددة، وكأنه يفكر في الوجة التي كان لا بد له من أخذها. وفي النهاية قرر التوجه جنوبا وهو

يترنح مصفراً بابتهاج... ولفرط انذهال المرأة من المشهدية بأكملها أطلقت العنان لحلقها بزغاريد تعبر بها عن فرحتها مما رأته. فاقترب الإعصار منها وألقى عليها الذهب شاكرا إياها مشاركته فرحته لأن اليوم كان يوم زفاف « عندهم ». وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي سمع بها الطوارق عن حادثة طيبة نجمت عن التقاء إنسي بأحد أفراد قل السوف «.

يا عمري على هذا الفال! فكرت رتيبة وهي تنسخ القصة على ملف وورد منفصل، وقد شعرت بالاستبشار لكونها تتحضر بعد بضعة أيام فقط لحفل زفافها.

- إلا أنه وبعد فترة من هذه الحادثة، توجهت المرأة ذاتها إلى المكان عينه الذي شهد لقاءها بالإعصار الأول، وصادفت إعصارا ثانيا، وأملا منها في أن يغدق عليها الجن بالذهب مثلما فعلوا في المرة الماضية. انخرطت في زغرودة قوية بمجرد مرور الإعصار من أمامها معبرة عن زهوها وفرحتها... لكن ما حل بها لم تكن لتتوقعه في أسوأ كوابيسها. فقد وجدت نفسها محمولة إلى أقصى ارتفاع بلغته في حياتها، حيث رجاها الإعصار رجا عنيفا وهوى بها على حين غرة على الأرض لتتهشم بذلك عظامها... وسمعت بعدها صوتا عظيما يجلجل في أذنها :

وتوقف مهدي عن الكتابة لحظة ثم كتب دفعة واحدة :

- هذا هو جزاؤك لسخريتك من حزننا ونحن نمر بموكب جنازة.

- اسم الله حم حمين... اسم الله حم حمين... اسم الله حم حمين. لهجت رتيبة في سرها وقد انقبض صدرها من هذه القصة المأتمية، بينما تابع مهدي حكيه دون أن يبدو وكأنه يأبه لما كان يحدث في الجهة الأخرى :

- وقد روت المرأة تفاصيل ما حدث لها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة لإحدى القوافل التي مرت من المكان ووجدتها أقرب لكومة عظام منها إلى امرأة حية.

- اسم الله حم حمين... اسم الله حم حمين... اسم الله حم حمين. تمتت رتيبة وهي تنقر على لوحة مفاتيحها بأصابع مرتعشة :

- وهل تعرفون شيئاً ملموساً عن الجن يمكنه إثباته ؟ طرحت رتيبة سؤالها على نحو دفاعي.

- لا ! رد مهدي وهو لا يرغب في الحفر في ذكرياته لإيجاد أي شيء يقوله لها عن هذا الموضوع ثم استطرد : « لكنني أحسن العد إلى عشرة بلغة قل سوف ». وانطلق في كتابة تلك الأرقام التمامية التي ذكرها لجانلوكا وتوقف عند السبعة...

- خلاص... خلاص ! قالت رتيبة وقد استبد بها الفزع لسبب ما : « يكفي يكفي لنهار اليوم. شكرا ».

- لكن كان لدي شيء مهم لقوله.

- لا أريد الحديث عن هذا الموضوع. انتهى شكرا.

- لكن الأمر مختلف... فقط لحظة. الأمر مهم جدا

- قل باختصار.

- هناك ثقب أسود... أقصد... نعم ثقب... وشعر مهدي بالارتباك

ولم يعرف كيف يختصر...

- ما الذي تقوله ؟

- جانلوكا... أقصد امرأة... تبا... ونسي اسم عاملة النازا تلك...

اكتشفت ثقباً أسوداً... امرأة... أقصد هو موجود ثقب...

- احترم نفسك... مشي مربي.

كلب... خامج! ودمدمت رتيبة باستياء وهي ترسل حساب مهدي إلى المقلصة الفيسبوكية، بعد أن تأكدت من حفظ التعديلات على ملف الورد الذي نسخت إليه قصصه الصحراوية عن عالم الجن. كل ذلك قبل أن يبدأ ذلك الحقيير في الحديث عن أمور شبقية... ثقب... أسود... امرأة... ما يسواش... رخيس... ولد حرام... سبته عشرات المرات في نفسها وهي تراجع طول القصة التي أتاها اليوم بها. سيكون مقالها طويلا على أي حال. ابتسمت وهي تستعد الآن للنوم بعد أن دهنت المرهم المبيض على وجهها. سيكون طويلا بما فيه الكفاية. وغرقت بهناء في حلم زفافها.

- 45 -

لطالما لاحظت أننا نحوي ثلاثة أنواع من الروح تتنازعها دواخل مختلفة، وها أنا ذا أجد نفسي أكرر بأقل قدر ممكن من الكلمات أنه وإن بقي أحد أجزاء هذه الروح راكدا غير متحرك فهو سيتوقف عن العمل بشكل طبيعي وسيضمحل لا محالة، في حين أن الجزء المدرب باستمرار سيكون قويا. وعليه لا بد من أن نسعى لأن يكون عملنا الروحي بكافة أجزائه متوازنا وألا يطغى أحدها على الآخر...

كان مهدي منشغلا بتقليب هذه الكلمات في رأسه من المحاوراة الأفلاطونية التي أمضى الليل معها، بعد أن أنهت رتيبة الدردشة معه على نحو غير متوقع دون أن يهتم كثيرا للأمر، وهو من كان مشغولا بالرغبة في العثور على تلك الكلمة التي وعده جانلوكا بها. ليجد نفسه يقف هذه الوقفة غير المتوقعة إطلاقا أمام موحوش دون مبرر واضح...

- ما الذي كنت تفعله أمس على الساعة العاشرة؟

- كنت أقرأ. رد مهدي بشيء من الارتباك دون أن يفهم تماما ما الذي كان يحصل معه، إلا أنه تذكر ببهجة تلك الجملة...

وعلينا أن نعلم بأن الله قد منح السيادة لأحد هذه الأجزاء من الروح ليكون إلها عليها كلها وهو ذلك الجزء الذي يسكن في قمة الجسد.

- تقرأ؟ قال بنبرة استخفاف مستدعيا بعض الحركات المخبرانية التي طالما حلم بتمثلها في مكان ما على أرض الواقع، وما هو يعيش تلك اللحظة بكامل تفاصيلها من خلف مكتبه، رامقا بقسوة ذلك الزبال الأسود وقد لمح الآن فرائصه المترعدة.

- أقصد... كن... كن... كنت أعمل. رد بصوت خفيض دبت فيه رعشة خفيفة وهو لا يعرف سياق هذه اللحظة الاستجابية المريية، ونظر برعب لعيني موحوش المتأججتين...

أما عندما يكون المرء منشغلا بسد شهواته ورغباته وطموحاته، ومنكبا انكبابا كاملا على إرضائها فإن كل أفكاره تكون متعلقة بعالم الإنسان الفاني، فتصبح كل ذرة فيه معبرة عن الفناء...

- كنت تعمل إذن؟ قال موحوش بخبث وهو يطالع جسم مهدي الضئيل باستخفاف وواصل بذات النبرة الحضراتية: « وأين كنت تعمل؟ ».

- ما... لا... أعتقد... وارتعشت الأفكار في رأس مهدي ولم يعد يفهم إن كان موحوش يقصد العاشرة صباحا أم العاشرة ليلا... فهو كان في الليل قد انكب على إكرام عقله... كان الفرق كبيرا... يعلم... وتذكر أفلاطون لمواساته...

فمن كان منكبا على حب المعرفة والحكمة الحقة، وقام بتمرين عقله  
أكثر من أي جزء آخر في روحه فهو يكون حاملا لأفكار تنتمي لعالم  
الفناء والسماء معا...

لكن موحوش يقصد لحظة قبل الكتاب... فأين كان على العاشرة  
صباحا ؟ ... وتلعثم...  
- هنا... هنا... أعتقد...

لتباغته الآن صفة خاطفة اعتقد أنه نسي طعمها منذ أيام  
المدرسة. « ربما كنت أساعد عمي بالمطبخ... نسيت ». رد وهو يغطي  
وجهه ببطن مرفقه.

- على العشرة تاع الليل يا حمار.

- كن... كنت نائما. لا أدري. نعم ! وأدرك في هذه الأثناء أن صوت  
أفلاطون قد انقفل في رأسه. وعليه أن يدافع بيديه عن وجهه.  
- كنت نائما إذن ؟ وأشعل ببطء سيجارته وهو يستدعي حركة  
مخابراتية أخرى رآها في فيلم ما... أو مكان ما... أو حلم ما... وسأل  
برنة مربية. ومع من كنت نائما ؟

- ما... لا... في... ماذا تقصد ؟ ماذا تريد ؟ ماذا حصل ؟

- أنا أعرف كل شيء أيها الجرد... قل الحقيقة... ماذا كنت تفعل  
في غرفة ذلك الإيطالي ؟

- أنا... وما هي إلا لحظة أخرى حتى شعر أنه في حضرة المدرسة  
مرة أخرى... أقفل عينيه... قوس ظهره... حمى وجهه...

- ماذا كنت تفعل أيها الكلب... قال بصوت متهدج وهو ينهال  
بالصفع والركل على جسم مهدي الضئيل

- كان يخبرني... وبدا صوته مكتوما وهو يحاول حماية وجهه.  
كان يقول... توقف... ثقب أسود... ثقب...  
وتوقف موحوش فجأة عن الضرب وقد خرقت رأسه تلك  
الكلمة. ثقب أسود. كان يعلم أن حدسه لا يخيب البتة. ونظر  
إلى الشباك بحركة تلقائية وهو ينظر إلى المخابر المغلقة لتلك العصبية  
الأوروبية التي أمر في وقت سابق بالتجسس عليها... كان يعلم أنهم  
يخفون في هذا المكان أسراراً هامة. فكر وقد ارتسمت الابتسامة  
على وجهه الصغير ذي التقاطيع الضيقة، وعرف أنه سيرفع تقريراً دسماً  
في الساعات القادمة.

#### - 46 -

فتح بريده الإلكتروني بشيء من الترقب، ثم دخل إلى حسابه  
على الفيسبوك وهو يستعد لقراءة آخر ردود الأفعال على الصفحة  
الجديدة التي ساهم في إنشائها مؤخراً، والتي جمعت مئات الآلاف  
من المتابعين في أيام قليلة فقط.

وبالرغم من أن يحيى كان مؤمناً بذكائه الاستشراقي في تطوير  
استراتيجيات التدجين الإعلامية، إلا أنه لم يكن ليتصور أن تطويره  
لأمثلة « مد لهم يدا ليطالبوا بالذراع كاملة » أيام المؤسسات الإعلامية  
للحزب الواحد وتنقيحها في عصر التعددية الإعلامية بـ « مد لهم بدلا  
عن ذلك الأصبع الوسطى » قد يصل بهذه السرعة في عصر الفيسبوك  
إلى : « وإن لم تكفهم الوسطى أضف لهم خوازيق عابرة للقارة ».  
وأطلق ضحكة مجلجلة وهو يتأمل ذلك الخازوق الشاب،  
ذي الملامح الجزائرية الصرفة والمتموضع على طريقة نجوم الكرة. وفكر

أن مثل هذا الشيء هو الأنسب حالياً لقيادة صوت المعارضة بعد طي صفحة معارضة المنابر التي انتهت صلاحيتها، تماماً مثلما تنتهي صلاحية فتيات الإعلانات، وكل ذلك حتى لا يشعر « السيتويان » بالملل.

وضغط يحيى فرقاني على آخر إدراج نشرته صفحة « وسيم لابوانت إيطاليانو»، والذي لم يكن له أن يطل في وقفاته القتالية الإلكترونية دون ضبط شعره على تسريحة لزجة تضيء أجواء نجومية خاصة على مفهوم الشراسة النضالية الحديثة، بالإضافة إلى بث صورته المختارة على مدار الساعة أمام معالم لندن الشهيرة، وذلك بالرغم من أنه جزائري وإيطاليانو وابن قرية ومنافح عن الدين وقيم الأمة وعلى الموضة وعاشق « للميمية » ووسيم ويحب الكرة ومحب للعربي بن مهدي واسمه علي لابوانت ويرتدي نظارات « الراي بان » وينشر كل أسبوع « جمعة مباركة » ومعجب بتشي غيفارا كل هذا في الوقت نفسه... لتصبح هذه الخلطة الأشبه بالقيء هي الوصفة الجديدة لقيادة معارضة طليعية، تخلف المعارضة الكلاسيكية التي لم تعد اكسسوارتها من قميص ولحية وسواك ولغة خطابية تجذب الذوق العام للشباب.

وابتسم يحيى برضا وهو يقرأ التعليقات الواردة على آخر منشورات صفحة « وسيم لابوانت إيطاليانو » والمتمثل في صورة لوشم مبتذل سُرق من أسفل ظهر ابنة وزير الصناعات الفلكلورية المقيمة في لندن، وهو ما كان ليرضي رغبات أصحاب شهوة التلصص والتي كانت بحسب آخر أبحاث خلية الأبحاث الاجتماعية والنفسية هي إحدى الانحرافات الجنسية الأكثر شيوعاً في البلد. لُتُرفَع على هذا الأساس التوصيات بمنح الشعب فرصة التلذذ بلحظات اغتصاب تجسسية جماعية على بنات المسؤولين بكميات مدروسة، من شأنها امتصاص

الطاقات الشبابية التي كان يمكن أن تنفجر في ثورة حقيقية لا سمح الله. وابتسم يحيى وهو مستمتع بقراءة التعليقات الشتائم الواردة على الصورة والتي أتي جملها بأسماء مستعارة، وتخيل كيف أن كل واحد من هؤلاء الأشاوسة كان لينهي سهرته التلصصية بقفزة مباشرة لأحد المواقع الإباحية، يستيقظ بعدها صباحا متجها للبلدية من أجل استخراج وثيقة حالة مدنية لتكوين ملف طلب وظيفة حكومية، وهو يدك رأسه في الأرض خوفا من أن ينهره لأي سبب ما موظف قذر في البلدية. « لقد كان لا بد من منح هؤلاء فرصة لتفريغ كراهيتهم بطريقة ما ». غمغم يحيى بكلية وهو يفكر في ردود فعل أصدقائه الأفاضل، وهم يتربعون في أي لحظة نشر صورهم الخاصة وتشاركتها مع الرعاع على مواقع التواصل الاجتماعي، والتي كانت تعني أنهم أصبحوا كباش فداء في معارك كانت تدور في القمة بين كبار الآلهة. ومر على ذهنه خنخان الأب الذي كانت تتواتر أخبار عن تحالفاته الجديدة ضد الرب الأكبر. ثم عاد لفحص بريده الإلكتروني منتظرا أي أنباء جديدة عن نزيح خنخان الذي كان آخر ما وصله عنه، صور سيلفي من ملهى بلوم بميامي وهو يرقص مع بعض المتحولين جنسيا، وقد حولها بدوره إلى غيره.

هل قرر أن يصحو كليا من سكره يا ترى ؟ وفكر كيف أن ذلك الأبله قد طلب منه إلغاء الملف الصحفي الغبي الذي أراد أن يروج به لصفقاته في الصحراء وهو على الأرجح تحت تأثير الحبوب المهلوسة. ليذكره الأمر برمته بسعيد شكيكن. هل سيستخدم تلك الصور التي أرسلها له يا ترى ؟

ابتسم ابتسامة ماكرة وهو يضم فكرة لا يشبهها سوى كأسه المربعة ذات القاعدة السمكية. وغب منها غبة طويلة وقرر أن يكفي بهذا القدر. فقد آن الأوان للتفرج من بعيد على صراع الجبابرة.

في ذلك الزمن كان يقطن البلد طبقات عدة من المواطنين. فكان الحرفيون، والرعاة، كما كان هناك أيضا المحاربون الذين تم فصلهم من طرف رجال الدين عن البقية.

وتوقف مهدي عن القراءة، وتحسس يده اليمنى بأسى دون أن يستوعب سبب تعرضه لذلك الاعتداء المفاجئ، وما الذي كان يقصده موحوش وهو يهدده بأن يفضح أمره لعمه إن هو تجرأ على الحديث عما فعله به... هل مر فعلا بهذا أم أنه عاش كابوسا ما؟ وأحس بتكتل في الحلق، لفظ معه صوت مكتوم نرّ من نصف قلبه. وشعر لبرهة، أنه وجع بأثر رجعي عاد به لأيام المدرسة. من يكون ذلك الموحوش الكلب، ولأي صنف من الوحوش ينتمي؟

هؤلاء كانوا يعيشون معزل عن الآخرين، وكان يتوفر لهم كل ما يلزمهم من غذاء وتربية. ولأنهم لم يكونوا يملكون لأنفسهم شيئا فقد كانوا يعتبرون كل ما كان بحوزتهم ملكية عامة، كما أنهم لم يطالبوا ببقية المواطنين بشيء سوى الغذاء اللازم.

عن أي غذاء وأي تربية وأي مواطنين وأي محاربين يتحدث هذا الكريتياس؟ وماذا لو كان هؤلاء بشراة موحوش مثلا... فهل سيكفيهم بلع ما فوق البلاد وتحتها أم أنهم سيسرطون أيضا عبادها؟؟

أما فيما يتعلق بالبلاد نفسها فقد وصفها الكهنة المصريون أنه ليس من المرجح فقط بل هي حقيقة جلية أن حدودها كانت بين...

ما كل هذا؟ غمغم مهدي باستياء وقد وجد نفسه يخوض في شيء يشبه السياسة. ومن هذا كريتياس الأوليغاري الذي نقل لنا أفلاطون كلامه... وما هي الأساس الأوليغارية؟ أهذا ما قاله جانلوكا؟

- لا يهم؟ ... غمغم مطالعا يده المنتفخة. تذكر موحوش...  
لكن لماذا؟

IDIOT

ودوى مجددا ذلك الصوت الداخلي في رأسه من أيام المدرسة. لا! فهو كان متأكدًا أنه ليس معنوها. ليجد نفسه ينقر بطريقة هستيرية الكلمة على محرك البحث... لقد كان ذلك وصف يطلقه الإغريق على أمثاله من «السيثويان» الذين لا يتعاطون الشأن العام ولا يفقهون في أمور السياسة. صر ما بين عينيه، وقد بدأت مشاعر الحقد تعتمل في صدره، وواصل النقر على الكلمة تلو الأخرى... أوليغاركية... بلوتوقراطية... أناركية... رأسمالية... اشتراكية... كلبتوقراطية ما كل هذه الكلمات المعتمدة التي كانت تحاصره في كل جهة... ويوجد أيضا الديمقراطية... هذه يعرفها:

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

ديمقراطية: ديموس كراتوس: حكم الشعب

هذا ما كتبه المعلمة على السبورة في درس التربية المدنية وهو لم يكن له لينسى أي كلمة كتبت على السبورة... حتى «اسمه» ماهدي موخطر مثل ما كتبه لفرع ذات مرة... لكن ماذا لو أن الدولة أخطأت ببساطة في كتابة اسمها مثلما تخطئ في جميع الأوراق الثبوتية لمواطنيها وقد أخطأت هي الأخرى في شهادة ميلادها؟ ماذا لو كان الأمر يتعلق بخطأ مطبعي وأنا لسنا سوى الجمهورية الجزائرية البلوتوقراطية الشعبية أو باختصار شديد كليبتوقراطية... فهو في النهاية لم يكن مهديا أيضا ولا مختارا... وقد يكون فعلا نكرة شيئا هلاميا لا دال ولا مدلول عليه... ماهدي موخطر مثلا... أو «يا حمار» أو «إيديو» على رأي معلميه في المدرسة الابتدائية... وانصرف عن الكتاب الذي

كان يقرأه بصورته الإلكترونية على نحو انتقامي غير مفهوم... لكنه أراد العودة... لقد كان يبحث عن شيء فيه سابقا لكنه لم يعد يفهم شيئا البتة... ولسبب ما وجد نفسه يدخل إلى حسابه على الفيسبوك. لم يكن يفكر في Rita Haq Ben الصحفية... تلك المجنونة المتعالية... والجريدة التي تعمل فيها أساسا معتوهة... لم يشعر بالرغبة في التفكير بها... أو في أي شيء آخر... كان يشعر بالألم... كان يرغب في الهرب... في الفرار... في الهجرة... ووجد نفسه يحط على منشور شاركه أحد أصدقائه من صفحة « وسيم لابوانت إيطاليانو » السياسية التي لاحظ في اليومين الأخيرين أن العديد من منشورات أصدقائه منتشلة منها :  
- أنظروا خاوتي هوما كيفاه عايشين واحنا كيفاه...

نظر مهدي إلى الصورتين المنشورتين جنبا إلى جنب وهو يفكر في السبب الذي جعل موحوش ينهال عليه كالمجنون بالضرب... شيخ متهاك يقتات من مزبلة في حي شعبي من الجزائر العميقة، وشابة يقال أنها ابنة مسؤول نافذ في البلد ترقص في ملهى ليلي باذخ... هل كان عليه أن يعلق على تلك الصورة ؟ ونظر إلى يده المنتفخة التي كان يحمي بها رأسه من ضربات موحوش، وسرعان ما وجد نفسه يعود إلى أفلاطون وكأنه يفر من شيء ما...

الآلام المفرطة والملاذات المفرطة تعتبران بالتساوي أكبر العلل التي يمكن أن تصيب النفس. لأن المرء الذي يعيش لذة مفرطة أو ألما مفرطا وفي سعيه انشغاله للحصول على اللذة أو الهروب من الألم يكون غير قادر على سماع أي شيء صحيح، لأنه مجنون. وهو في هذه اللحظات لا يكون قادرا على إشراك عقله في أي شيء.

وعاد لتأمل يده التي أخذت النصيب الأكبر من الركل، ومسح بحنو على رأسه وكأنه يطمئن على جمجمته التي حماها على نحو غريزي من ضربات موحوش الحاقدة.

لكن لماذا؟

ووجد نفسه يعود لتلك الصفحة على الفيسبوك حتى يقرأ شتيمة انتقامية ما، مجففا عرقه الذي أخذ يزداد على نحو غير مألوف...

- ربي يجيبنا نفية من هاد البلاد.

لم يدر إن كان بحاجة فعلا لقراءة شيء كهذا...

- أه يا الرخاس كرهتونا في هادي الكلبة.

وشعر الآن برغبة في التقيؤ....

- ياكلني الحوت وما يكلنيش الدود... تفو.

لكن لماذا كان يقرأ هذا؟

- هذه بنت خنخان... أه يا الطحان ولد الطحان.

وهل ضربه موحوش لأنه يقرأ؟ لتعود لرأسه تساؤلات المدرسة.

فكل ما قاله له أنه كان يقرأ... أما في المدرسة فلم يكن يسمع... لكن ما

دخل هذا بذاك؟ ولم يعد يتذكر تماما ماذا قال له بعدها وماذا فعل...

سوى أنه كان يحاول حماية رأسه.

- لا حياة مع هؤلاء الفاسدين... الهجرة هي الحل.

- إن شاء الله كامل نطلعوا لـEurope...

وعاد مباشرة إلى أفلاطون، وهو يقاوم إحساس الدوار الذي استبد

به فجأة...

إنه لمن الخطأ أن نفترض بأن العالم مقسم إلى منطقتين، العالم السفلي الذي يميل إلى حمل كل الثقل، والعالم العلوي الذي ترتفع إليه الأشياء بغير إرادتها.

وابتسم وقد شعر أن أفلاطون يخاطبه على نحو ما...

ذلك أنه وإن كان العالم ذا شكل كروي فجميع أطرافه تبعد عن المركز بنفس المسافة...

ونظر إلى يده الشاحبة بشرود وهو يهبط بالصفحة...

كما أن المركز الذي يبعد بالمسافة ذاتها عن كل الأطراف يعتبر الطرف المعاكس لها جميعا.

وأحس للحظة أنها لم تعد مرتبطة بذراعه، أم أنه كان يهذي أم ماذا؟

ولأن هذه هي طبيعة العالم، ألا يبدو أن استخدام عبارة « ثمة شيء تحت، والآخر فوق » هو ببساطة استخدام خاطئ؟

وأغلق صفحة الفيسبوك تلك وقرر مواصلة محاورته الأفلاطونية، بينما كان الجميع هناك منخرط في الحديث إلى نفسه معتقدا أنه مركز العالم على نحو ما...

ذلك أن مركز العالم لا يمكن أن يوصف أنه في الأعلى أو في الأسفل، لكنه ببساطة المركز ولا شيء غير ذلك. أما محيط الدائرة فليس هو المركز، كما أنه ما من نقطة فيها تختلف المسافة بينها وبين الأخرى عن المركز أيا كان مكانها في المحيط (...). وبناء على ما سبق ذكره فإن من يتحدث عن ما هو فوق وما هو تحت في شيء ذي شكل كروي ليس بإنسان عاقل.

تماما! رد مهدي على كريتياس وكأنه منخرط فعلا في محاورته...  
لكن ما

السبب من وراء استخدام هذه الأسماء والظروف التي تفرض علينا

تطبيق التقسيمات الاعتيادية ؟

آه كم هو رائع هذا الكتاب الذي يقرأ أفكاره، وي طرح الأسئلة التي أريد ويجيب عنها...

يمكن تفسير الأمر كالتالي :

وابتسم مهدي براءة...

فإذا ما كان علينا أن نقف في ذلك الجزء من العالم المدعو نارا حيث تتجمع الأجسام النارية في أكبر كتلة من النار (...). ولو كنا نملك القدرة على فصل جزيئات النار ووضعها في موازين لقياس وزنها ورفع هذه النار إلى عنصر الهواء، لوجدنا أنه من الطبيعي أن الكتلة الأصغر هي من سترتفع بسهولة أكبر بدل الكتلة الأكبر، ذلك لأنه وإن حمل شيئان في الوقت عينه بذات القوة فالجسم الأصغر يرتفع بالضرورة بسهولة أكبر بدل الأكبر لأن الجسم الصغير يستسلم بسهولة أكبر للقوى الأعلى عكس الجسم الكبير. فيطلق على الجسم الكبير اسم ثقيل ويبقى في الأسفل. أما الجسم الصغير فيطلق عليه اسم خفيف ويرتفع للأعلى. هل يعني هذا أنني خفيف لسبب ما إن كنت أرغب في الصعود إلى فوق...

ويمكن أن نلاحظ بأننا على الأرض نقوم بالشيء ذاته تماماً...

ووجه مهدي نظره في هذه اللحظة إلى ورقة التيفيناغ التي أخذها من جانلوكا، وتذكر خيبته من عدم إفادته بأي معلومة عن هذه العبارات. أين ضاعت هذه اللغة، وكيف تم فقدانها يا ترى ؟ وفرك رأسه بأسى وشعر للحظة بفراغ عقله... خفته... ثقب أسود... قل السوف... خفاء... موحوش... مدرسة... ظلمة... وأغمض عينيه وهو يحاول تركيب كل ما حصل معه... لماذا كان يشعر أنه فقد ثقله في مكان ما هنا... لا بد أنه ضيع نفسه... والأكيد أنه يرغب

في إيجادها... وتذكر أنه حمى رأسه في لحظة ما... تذكر قصص جده...  
تذكر أنه لا يزال يقرأ...

أنظر ص 49

أين هي ؟

- 48 -

نظر هينريك إلى الساعة وهو يقلب صفحات كريتياس، مترقبا  
اتصالا من مساعده في أي لحظة...

لقد كان هناك عدد هائل من الفيلة في الجزيرة، ذلك أن البيئة كانت  
تساعد على عيش مختلف صنوف الحيوانات...

الكثير من الحيوانات ولا يزال ! وفكر في نزيم خنخان والاجتماع  
العاجل الذي طلب عقده بخصوص مشروع الهوقار. لم يكن ذلك  
شريكا عاديا حتى يستخف بالاجتماعات معه على أي حال، فهو  
في النهاية ابن واحد من أهم رجالات الدولة هناك...

وقد كان لأطلس عائلة كبيرة وعريقة حكمت المملكة وتوارثها خلفه  
على مدى أجيال، حيث جمعوا ثروات هائلة لم ولن يمتلك مثلها  
على الأرجح أي ملك أو امبراطور على مر العصور.

لكن هل يعقل أنهم قد عرفوا طبيعة المشروع بشكل ما ؟ وضم  
هينريك يديه إلى صدره بقوة في حركة شبه تضرعية...

فقد كانوا يستخرجون من الأرض ما كانت تزخر به من ثروات صلبة  
وسائلة، لا سيما الأوريكالم ذلك المعدن الذي لا نعرف عنه سوى اسمه  
الآن وقد كان متواجدا في مناطق عدة من الجزيرة... وقد كان معدنا  
نفيسا في تلك الأيام إلا أنه لم يكن ليتفوق على الذهب بأي حال.

لقد كان هؤلاء لا يعرفون من الطاقة إلا البترول والغاز، ومن غير المرجح على الإطلاق أن يفكروا فيما أفكر فيه أنا. فكر هينريك محاولا بث الطمأنينة إلى نفسه، وهو مقتنع أن لا أحد يمكنه تصور حجم الاكتشاف الذي كان مقدما عليه في تلك البقعة المنسية...

وفي وسط القصور كانت هناك قلعة بني في وسطها المعبد المقدس لكيتو وبوسيدون ولم يكن مفتوحا لأحد وقد كان مسيجا بالذهب، وقد كانت هذه هي البقعة التي رأى فيها الأمراء العشرة للمرة الأولى وميضا من النور.

وغمغم هينريك : « لقد كان الأنوناكي على الأرجح يزورون أطلنطس عبر تلك النقطة... ».

وقد كان ذلك هو معبد بوسيدون (... ) ذي المنظر الوحشي الغريب... وأسطورة الإله تمّو « سيد البحار » عند شعب الدوغون في مالي على حدود الجزائر، والمطابقة تماما لصورة بوسيدون إله البحر في النص الأفلاطوني ليست سوى دليل آخر على ذلك ! تتمم هينريك وهو يسترجع الصورة التخيلية لهذه الحضارة البائدة كما أعاد تشكيلها الباحثون بحسب أوصاف أفلاطون، حيث كانت مجموعة جزر اصطناعية بنيت على شكل حلقات بتقنية البالم آيلاندز على ساحل دبي. Djazair. ولفظ اسم البلد بنطقه العربي، وهو جمع غير مألوف لمفردة جزيرة لا يعرف لها الجزائريون تفسيراً إيتيمولوجياً مقنعاً. وتدبر في اللفظة. لكن ماذا لو بدؤوا بالتفكير ؟ ليقطع صوت أفكاره رجة عميقة من هاتفه. كبس بلهفة على زر الإجابة.

- انتهى الاجتماع مع خنخان.

- ماذا يوجد وراءه ؟

- المسألة أخطر بكثير مما كنا نتوقع.

توجه مارك ويبر بسرعة إلى غرفة العمليات مباشرة بعد تلقيه رسالة جانلوكا في تلك الساعة من الليل. لم يكن يدري ما الذي ينتظره. لكن كان عليه تنفيذ بروتوكول الطوارئ. فتح الباب وتأكد من سماع هسيس غير معهود في القاعة.

- ما الذي تفعله هنا؟ صاح رئيس البعثة العلمية بصاحب ذلك الوجه الأسمر ذي النظرات الغبية وهو لا يكاد يصدق بأنه ضبطه متلبسا في حضرة المكان الأكثر سرية من القاعدة. ثم حطت عيناه بشكل تلقائي على الحاسوب المركزي، وهو لا يزال ينتظر إجابة واضحة قد تشكل في مكان ما من تلك الرأس الصغيرة، التي بدت في هذه اللحظة كحبة تفاح مرتعشة تنتظر أن تسقط من تلقاء نفسها.

- ما الذي تفعله هنا؟ كرر سؤاله وقد ساوره شعور غامض بالأمن، فهو في النهاية ليس صاحب المكان على هذه الأرض غير القابلة للتنبؤ.

تسمر موحوش في مكانه وهو لا يكاد يميز نورا في عيني ذلك الأملاني المتجهم... ولم يدر ما الذي كان عليه فعله بتلك الكاميرا.

تأمل صحفي الحق الطموح الصور التي وصلته للتو، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

- ثقب كبير كهذا لا أحد يعرف حقيقته الآن غيري!

غمغم برنة كلبية، وهو يفكر بالطريقة المثلى لتوظيف هذه المادة على النحو الأنسب، لكن ليس قبل تحييد المصور المغامر الذي تمكن من اختراق مكتب العمليات العتيد ذاك. وهو الأمر الذي لم يكن له

ليتم على أي حال لولا انتهاجه أساليب استقصائية لا يقدر عليها إلا صحفي من طرازه، تمكن بها من كشف الأسرار الدفينة لتلك الغرفة. وها هو يحصل على توثيق بالصور لها.

أخذ سعيد شكيكن نفسا عميقا وهو ينقر صفحة « وسيم لابوانت إيطاليانو » على الفيسبوك. وتؤكد من عدم نشر الأخير لصور ابن الوزير خنخان في ميامي والتي وصلته من طرف جهة مجهولة في وقت سابق. ودس نظرة ازدراء في وجه ذلك الوسيم ذي الشعر اللزج قبل أن يغلق الصفحة. لقد كان مقتنعا أنه ليس سوى مخنث آخر يعمل لجهات لا يعرف شيئا عنها. ثم عاد لتأمل الصور التي أخرجها بنفسه من قلب ظلمة الجزائر، وهنأ نفسه على المادة « الحصرية » التي كانت بين يديه، مكلفة جهوده الحثيثة في مهنة المتاعب، التي بدأ يستمتع في هذه الفترة بكواليسها. وقرر سعيد أنّ وقت صعود السلم المهني قد حان لا محالة.

## - 51 -

- كارثة مكتملة الأركان !

نقر يحيى على الرابط وهو لا يكاد يتصور مضمون رسالةٍ تصله بهذا العنوان من شخص أبله، لا تصله غالبا منه سوى الرسائل الهزلية : هل أنت مستعد فعلا لما سأقوله لك ؟ إنها ببساطة كارثة مكتملة الأركان... سترى ما يتجاوز الكتابات والصور المأخوذة من كتب التاريخ... ما يتجاوز التغطيات الإعلامية إلى معاشة الظروف الحقيقية... ستدخل ببساطة إلى عين الإعصار... ستفهم معنى الخراب وتستعد لمواجهة مختلف ضروب الرزايا... وبلع ريقه وهو يقرأ تلك الأسطر الجنائزية :

« لطالما كان كوكب الأرض مسرحا لكوارث عدة بداية من هلاك الديناصورات، مروراً بضياع مملكة أطلنطس، وانسحاق مدينة بومباي، وصولاً إلى... ».

ديناصورات وأطلنطس وبومباي؟! لم يستوعب يحيى ما الذي كان يقرأه إلا أنه قد بدأ يشعر بالارتباك.

كبس على نثرته بطرف إبهامه وواصل قراءة هذه الرسالة الإلكترونية الغريبة بحذر، دون أن يفهم في أي سياق يمكنه وضع هذا الكلام.

ما الذي يحصل مع نزيـم خنـخان؟؟

- 52 -

قرأ التقرير الأخير بيدين مرتعشتين وهو لا يكاد يستوعب تلك المعطيات المفاجئة. كانت جميع القياسات الزلزالية تشير إلى معدلات طبيعية في الطبقات الأرضية للمنطقة، هذا عدا عن تعطل مستقبلات صور نبيرو بشكل كلي، مما جعل مهمة متابعة المشروع اعتماداً على صور القمر الصناعي مهمة مستحيلة.

- أين اختفت الثقوب السوداء... ما الذي يعنيه هذا؟ سأله هينريك مساعده وهو يحاول امتصاص الصدمة.

- قد يكون الأمر ناجماً عن تغيرات مفاجئة في الحقل المغناطيسي...  
- ماذا تقول؟ قاطع هينريك بنفاد صبر وهو يبخلق في عيني فرانك كحشرة آكلة للحوم، جعلت الأخير يتسمر كصخرة: « أم أن الأمر علاقة بالمعلومات الأخيرة التي أبلغنا بها خنخان؟ ».  
- قد يـ...

- لا تبدأ جملك بهذا القمد معي مجددا ! صاح هينريك وهو ينهض من مكانه، وقد دك عينيه كمن أصابه مس في مقلتي مساعده الذي لا يزال يقف كشجرة أصابتها صاعقة : « علينا أن نتصل حالا بذلك الكا... كا... » وعاد ليتعثر مجددا بذلك اللقب المفتاحي لأساس ذلك المشروع.

- خنخان...

- لا بد أن هناك من يعبث معنا من داخل القاعدة !

وتهادى في هذه اللحظة على كرسيه، وهو يتذكر كيف أن السلطات الجزائرية لم تسمح لهم منذ البداية بتوظيف طاقم أمني مسلح خاص وهو الأمر الذي طالما أثار قلقه، ليجد الآن نفسه يواجه احتمال وجود جاسوس من جهة منافسة، وقد يكون جانلوكا يحاول سرقة أبحاثه وتسليمها لجهة معينة، أو ببساطة العبث بالمسار الميداني لها...

- وما هو وضع فيرو في هذه الفترة ؟

- تقنيا يستحيل الدخول لقاعدة بيانات الحاسوب المركزي من غير ويدر. رد فرانك وهو يحاول تفهم حالة البارانونيا التي كان يشعر بها فورتسنبورغ حيال الفلكي الإيطالي، الذي طالب بنشر نتائج قياسات « نيبيرو » رسميا في مجلة علمية خلال اجتماع جنيف قبيل إرسال البعثة : « كما أن مارك ويدر أكد لنا أنه محيّد تماما كما أمرت عن بقية التفاصيل الأركيولوجية و...

- وماذا لو أن ويدر تعرض للتهديد... ؟

- لكن بروتوكول الطوارئ من شأنه...

- أو أن ذلك البرميل القدر يعبث معنا... أتراه لم يشبع ؟

- خنخان لم يبلغنا سوى بمخاوف أمنية... لا أعتقد أن أحدا يعلم

بتفاصيل المشروع...

- وماذا عن تلك الاتفاقيات التي ذكرها... ورجل الظل... ذلك...  
ال... ال... سحقا... ذكرني بأسمائهم... ألا يكون من المحتمل أنه يود  
سرقة مشروعنا لصالح جهة ما...  
- لا أدري... لكن...

وفي هذه اللحظة وصلت رسالة مشفرة من مدير المشروع.  
- لقد تم تشغيل بروتوكول الطوارئ !  
ما الذي يحصل في الهوقار ؟

- 53 -

تناول خنخان الأب الكتاب اللازوردي عن الهوقار دون اهتمام  
كبير، وتأمل للحظة وجيزة غلافه اللامع.

- الجميع لاحظ أنه أصبح منذ فترة غارقا في القراءة.  
- ربما يستعد لأيام تقاعده القريبة ! علق رجل الدولة المخضرم  
بتهكم وهو يتصفح ذلك الكتاب الذي كان رجل الظل الأكبر يحتفظ  
بنسخة نادرة منه، ليقع فيه على أسطورة يشبه طعمها الحقيقة :  
كان يمكن ملاحظة نقوش صخرية حول جميع منابع الماء  
في الهوقار، يعلم الطوارق جيدا أنها تنتمي إلى زمن آخر. ويعزونها  
بحسب تقاليدهم لشخصيتين أسطورتين هما إلياس وآملان.

- حتى أنه طلب أيضا قراءة أساطير إغريقية.

- كتب أساطير إغريقية ؟

- شيء عن أطلنطس على ما أذكر.

- هكذا إذن ؟ ورد بشيء من التهكم : « قد لا يكون من السيء  
أن يقرأ عن مصير أطلس ليحضر نفسه للنهاية ! » وتابع القراءة

من الكتاب الفرنسي بدفع مغناطيسي، وقد استغرب في سره من ذلك  
الاهتمام بالأساطير :

فمنذ زمن بعيد، بعيد جدا سبق الطوارق إلى هذا المكان شعوب  
لا يعرف أحد عنها اليوم شيئاً البتة. كل ما نعرفه هو أن بعضهم كان  
فاحش الثراء لأن الأرض كانت خصبة ولأن المطر كان كريماً في هذه  
البقعة من الأرض. وحيث كان القادة محترمون كما تدل على ذلك  
قبورهم. كما كانت سلطتهم على الأذهان كبيرة لأنهم كانوا يتقنون لغة  
أهل الخفاء « قل سوف ». إلا أن كل ذلك قد ولى وليس من الجيد  
العودة للحفر في ماض منسي.

- أنا هو ربها ! وصاح خنخان جونيور فجأة وهو يضحك كالممسوس،  
بينما كان منخرطاً في الكتابة على هاتفه الذي.  
حدجه الأب بنظرة باردة وتابع القراءة بلا مبالاة مصطنعة،  
وهو يتابع مسار الأسطورة :

في ذلك الزمن كان يعيش رجل اسمه أملان وهو رجل نبيل ووثري كان  
يملك حشداً من البعير من شأنه أن يملأ منطقة الهوقار بأسرها.  
ثم واصل طرح أسئلته على تابعه الجديد، وهو يهنئ نفسه  
على هذه الغنيمة البشرية :

- وما هي أحوال كتفه في هذه الفترة ؟  
- ليس بخير تماماً.

- ربما أن الآوان أن يحط القبة السماوية على الأرض ! دمدم بخبث  
وهو يراجع المسار الحافل للرب المتهالك ذي السيجار الذواوي :

لا أحد يعلم من أين تعلم ذلك إلا أنه كان يملك مهارة كبيرة  
في النقش على الصخور أشكالاً مختلفة للحيوانات التي كان يراها  
حوله. كما كان يحسن أيضاً رسم البشر. وكان غالباً ما يرسمها

على الصخور الملساء ويلونها. وقد كان لآملان ابن أخت ذكي، قوي وشجاع كان عادة ما يصطحبه في تنقلاته. وقد تعلم إلياس منه وبسرعة كبيرة فنون النقش على الصخور وتكرست مواهبه مع مرور الزمن لدرجة غدا فيها أشد مهارة من خاله نفسه. وأصبح الجميع يمدح مهارته وبراعته الفائقة في النقش...

- نقش... نقش... نقش... صاح نزييم مخاطبا كالمخبول هاتفه الذي مجددا، وهو شبه مستلق على الأريكة الجلدية في مكتب والده.  
- واش كايين ؟

- هداك النقش تاع « يحيى ليزافير »... يجي النهار وين نهبطلو السروال.

تجاهل تهديدات ابنه الاعتيادية. ولكنه بدا في هذه الأثناء وكأنه يترقب أمرا هاما. ثم دعا محدثه بحركة طفيفة من رأسه إلى متابعة حديثه. لقد كان مستمتعا بتحويل ذلك العبد المحسوب على الكائنات العسكرية إلى مُخبر صغير... مجرد تابع مطيع. لقد كان ذلك شيء بسيط مما يستطيع المال تحقيقه. لقد كان ذلك هو ببساطة سر السلطة...

- 54 -

لقد رويت لك باختصار يا سقراط، ما الذي سمعه كريتياس المسن عن سولون ونقله لنا. وعندما كنت تتحدث أمس عن مدينتك ومواطنيها، أتت هذه القصة التي ألقيتها على مسامعك مباشرة إلى ذهني، وقد لاحظت بدهشة إلى أي مدى اتفقت كل جزئية مما ذكرت بتطابق عجيب مع ما ذكره سولون، إلا أنني لم أرغب في الحديث حينها (...). ولكن حقا، كما يقال دوما، الدروس التي نتعلمها في طفولتنا تترك انطباعات بالغة الأثر في ذاكرتنا...

وتدفقت على ذهن مهدي في هذه اللحظة صور من طفولته المدرسية. فتح على نحو لاشعوري صفحة « وسيم لابوانت إيطاليانو ». لم يكن يدري ما الذي كان يبحث عنه بين صور أبناء المسؤولين واحتفالاتهم الباذخة. وعادت مشاهد الحفلات التي كانت تقام في نهاية السنوات الدراسية، لتمر على ذهنه بالعرض البطيء واحدة واحدة... كان كل ما يتذكره أنه كان يشعر خلالها بالسعادة. وذلك بالرغم من أنه كان يشتهي تذوق ما أحضره زملاؤه من حلوى ومخبوزات ومشروبات يأكلها المعلمون مع بعضهم البعض، بينما يكتفون بتوزيع حبات البسكوت الرخيصة عليهم... لكنه كان يشعر بالسعادة، لأنه ببساطة يعلم أنه لن يتعرض للضرب من المعلمة التي كانت مشغولة بك ما صنعته أمه للمناسبة في حلقتها وهي تقهقه بهجة... ذلك لأنني متأكد أنني أستطيع تذكر خطاب أمس بكامل تفاصيله، إلا أنني سافجاً إذا ما نسيت أياً من هذه الأشياء التي سمعتها منذ وقت طويل. لقد استمتعت بشغف طفولي لحكاية الرجل المسن، والذي كان مستعداً لتعليمي، فسألته مرارا وتكرارا لأن يعيد كلماته. وهكذا بقيت ملتصقة في ذهني على نحو يستحيل محوه.

وأغلق مهدي الكتاب باستسلام. فقد كان ذلك درساً من الطفولة لا يمكن أن ينسى... أن يخرس وهو يشاهد طعامه يتلغ أمامه ثم يحمد الله لأن عينه لم تفتقاً بالمناسبة. لقد حفظ الدرس تماماً... فكل ما كان يريد هو ألا يضرب... وأغمض عينيه بحسرة... تذكر تلك الصبيحة مع مدير الموارد البشرية... موحوش... أقفل صدره بقوة... نسي أفلاطون... هل سيتركني بسلام؟ لم يعد يذكر سوى تلك الركلات الموجهة... لم يعد يذكر حديثه مع جانلوكا... كان خائفاً... متألماً... مروعا...

ليخرق سمعه في هذه اللحظة أصوات غير مألوفة... هل كانت تلك طلقات نارية؟

دك خنخان الأب عينيه مجددا في الهاتف مترقبا مكاملة ما، ثم تابع في سره القراءة :

وقد كان يشاع عن إلياس بأنه يملك قدرات خارقة للعادة إذ يحكى أنه وأثناء نقشه على صخور جبل تفركيت بالقرب من تيفيديست لاحظ أن الجديان التي ترك الرعاة حراستها ترضع الماعز. فحاول مناداة العبيد لفصلها لكن دون جدوى فشعر بالغضب وسحب سيفه. وبضربة واحدة قص رأس جبل تيفيركيت وألقاه في وسط واد أدنيك. وبفصله الماعز عن الجديان بهذا النحو عاد للرسم بهدوء. وتسللت إلى روحه خيوط متعة خفية...

ليبدأ شعور أماملان بالغيرة يتسرب إلى نفسه (...). فتملكه احساس قوي بالحسد أخذ يكبر معه يوما بعد يوم (...). وأخذ يتمنى الموت لإلياس. ولأنه لم يتمكن من قتل ابن أخته بشكل مفضوح حتى وإن كان ذلك على حين غرة دون أن يثير حفيظة البلد بأسره. وجد طريقة للتخلص منه دون أن يثير شبهات أحد. فاختار أماملان لأداء المهمة عبدا فتيا وقويا يطيع دوما الأوامر دون أن يفكر في فهم طبيعة أفعال معلمه.

- وماذا عن جماعته في الجنوب ؟

- الأمور مستقرة. رد وهو يلمح طيف لا مبالاة في سؤال خنخان أعزاه إلى انخراطه في القراءة، حيث بدا الأخير غارقا تماما في ذلك الكتاب الذي حاول التلصص عليه في هذه اللحظة...

- لكن ذلك الواد بعيد جدا نحو الجنوب. وبعيد عن المسالك العادية وعن القبيلة.

- أعلم، لكن هذا ما أرغب فيه. إذ أن هناك مساحات واسعة وممتازة  
للرعي.

وصمت لبرهة منتظرا بقية الأسئلة بعد أن عجز عن التسلسل  
إلى صفحات تلك الأسطورة...

ووافق العبد الأسود على طلب سيده الذي أمره بمرافقة إلياس  
في هذه الرحلة. وأخبره عن بقية تفاصيلها بصوت منخفض.  
- لكنني سمعت بتحركات غير طبيعية له هناك. سأل على نحو  
تمويهى وهو يتابع القراءة :

ثم واصل همسا شرح ما عليه فعله، وعندما انتهى من شروحاته كانت  
تعابير الذهول قد نقشت على وجه العبد الذي بقيت عيناه مسمرتان  
في الفراغ للحظات ولم يعده لوعيه سوى ضربة على ظهره أعادته للواقع.  
وشق الآن رنين الهاتف صوت الظلمة...

- 56 -

شعر يحيى بتسارع دقائق قلبه وهو يقرأ رسالة نزيح خنخان، دون  
أن يخطر بباله في تلك اللحظات شيء سوى عداوة والده برجل الظل  
الأكبر. قد يكون لهذه الرسالة الناقوسية علاقة بالصراع الدائر منذ  
مدة بين الرجلين. هذا كل ما كان يفكر فيه، كون الجميع غدا يعلم  
في دوايب السلطة أن الرجلان قررا لسبب ما نقل حربهما الخفية  
الطاحنة إلى ساحة العلن :

« كارثة مكتملة الأركان، هذا ما سنقدمه لك على ضمانتنا.  
« ديزاستر توريضم » تمنحك فرصة فريدة لعيش تجربة غير مألوفة،  
إن كنت قد مللت العطل العادية واستنزفت الوجهات السياحية



- هل أرسلوا أحدا غيري إلى هنا؟ ورمى تلك الكاميرا من يده وهو يشعر بالخوف... بالذعر... بالخيبة... كان يعتقد أنه أهم شخص في هذا المكان... نظر حوله بجزع... أين مارك؟ أين اختفى؟ هل يمكن أن يكون هؤلاء إرهابيون حقيقيون... وتذكر تيقنتورين... سحقا... ما الذي كان يحصل هنا؟ ...

- أنا تاعكم... أنا...

واستقرت تلك الرصاصة في مقدمة رأسه كحفرة.  
كان يعتقد أنه يعرف لون الظلمة...

- 58 -

دفع باب مكتبته بشراسة شيرد جرمانى وهو لا يكاد يصدق ما وصله لتوه من أخبار من موقع الهوقار.  
- هل انتهى فعلا كل شيء؟

لم يكن ليصدق أن عملية إرهابية مفتعلة من شأنها وضع حد لمشروع حياته. واندفع وسط مكانه الحميم كحطام قبلة يدوية على نحو لا يشبه انسيابية تدفقه المعتادة في حضرة مقتنياته الأركيولوجية الفريدة وهو لا يلوي على شيء.

كان يفكر بأنه قد أخذ احتياطاته لمنع ذلك الإيطالي من ممارسة هواية الخيانة وكسر قانون صمته العلمي. لكنه لم يتوقع أن تأتي النهاية على يد أبناء عمه النتنين... الكسالى... المستسلمين.

لقد أرادوا سرقتي! صاح بصوت هز جدران بدنه وهو يفكر في كرونولوجيا السطو على مشروعه العظيم. كانت السلاسة التي تم فيها شراء ذلك الموقع والحصول على التراخيص للعمل في تلك الحظيرة

المغلقة محل ارتياب مستشاريه منذ البدء، ذلك أن صحراء الجزائر  
بالأساس كانت تقع تحت سيطرة حبر اتفاق قديم، أكده خنخان  
في اجتماعه الأخير :

- رجل الظل الأكبر غاضب... قد تخرجون من الهوقار على طريقة  
تيقنتورين.

لقد كان الجميع يعلم أن محاولة اختراق ذلك الاتفاق أشبه بمحاولة  
إعادة تشكيل التاريخ. إلا أن هينريك كان مقتنعا أن وصفة حشو أمعاء  
بعض البراميل كافية لإعادة تشكيل عناصر الانفجار الأعظم وليس  
إعادة ترتيب تاريخ المصالح الاقتصادية في تلك المنطقة فحسب.

- لكنني أخطأت ! ورجت الكلمة في رأسه حتى كاد يسمع صوت  
ارتظام الفص القحفي بالفص الجبهي من دماغه، وبقي الآن جامدا بلا  
حرك وقد سُحب النور من عينيه الجاحظتين اللتين حطتا فجأة على  
وجوه الأنوناكي المشؤومة التي بدت وكأنها ترمقه بعيون ثعبانية لاسعة  
من وراء الواجهة الهشة للخزانة الزجاجية. لم يشعر في تلك اللحظات  
بأي قدرة على التفكير. نظر إلى علبة الدواء التي كانت موضوعة بعناية  
على طاولة مكتبه. هل كان يكفي أن يقترب ويبتلع حبة من مثبت  
المزاج ذاك مع رشفة ماء، وهو ما كان من شأن إبقاء مرض الهوس  
الاكتئابي الذي كان يعاني منه منذ سنوات تحت السيطرة، أم أن ما كان  
يعيشه في هذه اللحظات لم يكن هناك مجال من تداركه البتة. لقد  
وقعت خلايا دماغه ضحية قطاع طرق محترفين. هذا كل ما كان يعرفه.  
وما هي سوى لحظات حتى وجد نفسه يهوي على تلك الخزانة الجليلة.  
لم يكن يعرف ما الذي كان يصنع بيديه المضمومتين لصدره أبدا...  
يداه اللتان كانتا تهيآن في أي لحظة لتملّك مطرق الإله تور. ولعلع  
صوته كالرعد المهذار...

كان يعلم أن قدره هو أن تكون نهايتها على يديه...  
وانهال على كبير الآلهة اللعين بالكسر والتحطيم.  
ليشعر في هذه الأثناء وكأنه يهوي في شيء يشبه الثقب الأسود...  
ثقب كان يود أن يضح يده عليه، ليجد نفسه وقد سحبه إليه مبتلعا  
خلايا رأسه ذرة ذرة... أين هو ؟ ... لم يكن يشعر الآن بأي شيء... وقد  
تبدد من أمامه كل شيء...



## القسم الثالث



تناول الكتاب الذي كان منخرطاً في فك شفراته منذ مدة متحسراً على نحو ما لكونه وصل إلى صفحاته الأخيرة. ودون أن يعلم السبب وجد نفسه يعتمر قبعته العسكرية في لحظة غريبة للاحتفاء بنهاية بدت لوهلة مآتية.

عندما حلت الظلمة، وخبث نار القربان، ارتدى الجميع زيهم السماوي... جلسوا ليلاً على أنقاض القرايين التي أقسموا عليها... وبعد إطفاء كل نيران المعبد... كتبوا القواعد على لوح ذهبي وقدموها كتذكارات للمعبد رفقة زيهم... كان ثمة العديد من القواعد المتعلقة بالحكام المسجلين في المعبد إلا أن أهمها كان عدم حمل أحد السلاح على الآخر، وأن يهبوا لنجدة أي مدينة يتم الانقلاب على حاكمها. وكان عليهم على غرار أسلافهم الاتفاق على شؤون الحرب وبقية المسائل معطين الأولوية لسليبي الأطلس.

وأخذ نفساً عميقاً وهو يحاول ترتيب الأحداث الإرهابية الأخيرة ببعضها...

لم يكن على الحاكم أن يبت في حياة أو موت أحد من الإخوة دون موافقة الأغلبية. هكذا كانت السلطة التي منحها الله لهؤلاء موزعة في جزيرة أطلنطس الضائعة...

لم تنته الأمور في الهوقار حتما كما كان يتوقع، وثمة أمور عدة قد أخذت في الإفلات مؤخرا من بين يديه. كان يشعر برائحة الخيانة من حوله لا محالة. وأخرج زفرة حارة...

فعلى مر أجيال عديدة... كان (الحكام) يبديون احتراما كبيرا للقوانين التي تجمعهم... لأنهم كانوا يحملون الحقيقة ونفوسا عظيمة... فكانوا يترفعون على كل شيء عدا الفضيلة، إذ لم يكن لهم أن يفكروا بمكانتهم. ولا جمع الذهب وتخزين الممتلكات كان من اهتماماتهم. كما لم تكن حياة الترف تعني لهم شيئا، ولا ثروتهم نزعت عنهم رصانتهم وحكمتهم، فقد كانوا معتدلين ومقتنعين أن كل متاع الدنيا هذا لا تزيده سوى الفضيلة...

ولسبب ما شعر بضيق في نفسه، وثقل غريب في هواء غرفته المغلقة... إلى أن بدأت النفخة الإلهية تخبو شيئا فشيئا لتضمحل نهائيا في نفوسهم، بعد أن علت فوقها روح النفس البشرية البائدة وأصبحت لها الكلمة العليا. وغدا حمل ثروتهم أكبر من طاقة تحملهم. ليضيّعوا إزاءها توازنهم كونهم بدؤوا بتضييع أرفع خصالهم. إلا أن من كان ينظر دون أن يبصر لم يكن يرى في حياتهم سوى سعادة ومجدا ومسرات في الوقت الذي كان الطمع والجشع يأكل أرواحهم...  
وشعر وكأنه قد بدأ يفقد توازنه في هذه اللحظة...

ولأن رب الأرباب زيوس الحاكم العادل القادر على النفاذ إلى القلوب، قد لاحظ انغماس سلالة كريمة كهذه في أرذل الخصال، قرر أن يسومهم سوء العذاب عليهم يتعظون...

لكنه لم يكن يتوقع ذلك التسارع غير المبرر للأحداث في هذه المرحلة بالتحديد... كانت النهاية قريبة... قريبة على نحو غير متوقع... فجمع حول عرشه المجيد وسط الكون حيث كان يتحكم في كافة المخلوقات، جميع الأرباب وأحاطهم من حوله وقال...

وهنا فتح باب مكتبه على حين غرة :  
- لقد تم الأمر بإقالتك وقد أمرت بإخلاء مكتبك...  
لم يركز مع ما سمعه لتوه، لكنه لم يستوعب لم كانت صفحات  
الكتاب قليلة في هذه اللحظة... ما الذي قاله زيوس...  
- لو سمحت تفضل معنا...  
- هل يعقل أن تكون هذه هي النهاية ؟

\*\*\*

تلصص على مكتب رئيسه السابق منذ هذه اللحظة بريية.  
من الواضح أنه أخذ الأمر بفلسفة ؟ فكر وهو يتناول المحاورة التي  
سلمها له في عتمة مكتبه اللذيذة قبل أشهر ليجد نفسه اليوم مشاركا  
في صنع المشهدية الأكثر دراماتيكية في تاريخ البلاد المعاصر. إقالة رب  
الجزائر الأعلى. تأمل مقصلة سيجاره العتيد، وتسلسل إلى نفسه شيء  
يشبه الرعشة.

- هكذا بكل بساطة ؟

قلب صفحات الكتاب ذي النهاية غير المكتملة وهو لا يزال يفكر  
في حلقاتها المفقودة.

بقية محاورة كريتياس ضاعت أو أنها لم تكتب قط...

أية نهاية مخيبة !

- 2 -

خرج يحيى فرقاني من باب الطائرة عابرا النفق المؤدي إلى القاعة  
الشرفية وقد فرد صدره بتلقائية على الطريقة الفرعونية. مر على رجال  
الشرطة وهو يلبس وجه القيادة وحرص على سد أقفال وجهه بإحكام.



وبلع داخل رأسه ضحكة مدوية...

تحيا الجزائر العاصمة

ودندن في سره تلك الكلمة...

داوني داوني

وكاد لفرط حماسته أن يرفع بها عقيرته...

يا داوني داوني

وأخذ كل جسده يرتج بعد مرور السيارة على طريق شبه معبدة...

داوني داوني

كان يشعر على نحو غريب بالإثارة

يا داوني داوني

وشعر الآن وكأن سكرة اللحن قد بدأت تعبث بعقله

يا داوني داوني

وبدأ يهز أكتافه بطرب متذكرا الأخبار القادمة من الصحراء...

يا داوني داوني

لم يكن افتعال انفجارات هناك بالفكرة السيئة...

يا داوني داوني

فقد كان يمكن أن تُستغل المنطقة بعدها كمحج سياحي على غرار

تشيرونوبيل...

يا داوني داوني

وبقيت الكلمة الوحيدة للأغنية ذات السبع دقائق تلف في رأسه

كفأر هامستر...

داوئي داوئي

كانت نغمة النحيب الخنوعية استثنائيةً في تلك الأغنية الخطية  
أحادية الكلمة...

داتنا الحكووووومة

- 3 -

أخذ جانلوكا رشفة من التينيانيلو المعتق الذي كان يشتهر به  
مطعم ميديو إيفو، ولم يفته الانتباه لصفاء كأس الكريستال الخالي  
من الرصاص، والذي كان الزنك وأكسيد المغنيزيوم فيه قد ساهما  
في زيادة حدة انكسار الضوء عليه، مما عزز بريق ذلك المشروب  
القرمزي. وتنهى الفيزيائي الإيطالي الآن مستذكراً بأسف تعليق مشروع  
الهورقار لأجل غير مسمى غداة تلك العملية الإرهابية المروعة، وهو لا  
يكاد يستوعب الطريقة العبثية التي أتت لوضع حد لكل تلك الأحلام.  
- هينريك فورتسنبورغ !

لفظ جانلوكا فيرو الاسم بارتخاء وكأنه يخلع عنه هالة قدسية  
من نوع ما، وهو من كان يربط على نحو لاشعوري صورته الذهنية  
بأجواء صنمية لا تناسب سوى المتاحف الأركيولوجية. مع أن هينريك  
في النهاية لم يكن في النهاية إلا إنساناً آخر يملك نفساً هشة هشاشة  
كأس كريستال.

والواقع أن جانلوكا كان مقتنعا منذ لقائه بفورتسنبورغ أول مرة  
أنه بصدد التعامل مع كائن يحمل رأساً أتت من عالم آخر. لكنه  
لم يكن يتصور أن الرئيس التنفيذي للفيوتشر إينيرجي كوربوريشن  
مصاب باضطراب عصبي مزمن كان ضمن جملة أمور أخرى مسؤولاً

عن جحوظ عينيه، وهو ما أدى لإصابة ذلك الألماني الصلب بانهييار عصبي أعقب تعرض مشروع الهوقار لتلك العملية الإرهابية الغامضة. وللحظة تراءى له تمثال إيبيح الثاني وهو يتهاوى من عليائه ويتشظى لألف قطعة وقطعة، بينما بقيت عيناه تتطلعان بيقين ثابت لشيء سديمي يشبه العدم. وسرعان ما ذكرته هذه الفكرة بتلك العملية الإرهابية التي نجحت السلطات الجزائرية لحسن الحظ في إدارتها، عكس تيقنتورين أو على غرار تيقنتورين. لم يعد يذكر لأنه قرأ أمس تحليلات كثيرة أعقبت العملية... وكانت جميعها مقلوبة على نحو متشابه أو متشابهة على نحو مقلوب. والمهم أن الجميع قد نجى. وطرده تلك الصور المشؤومة من ذاكرته، وتأمل طبق المقبلات الذي وُضع أمامه للتو والذي أتى على شكل بيضة مشوية. نظر مطولا إلى الطبق بإعجاب خالطه شعور لذيذ بالحيرة. كان ذلك مطعما نباتيا يقدم أطباقا قائمة على الحمية القروسطية المخصصة لأيام الصيام والخالية من المنتجات الحيوانية، ولا بد من أن يكون ذلك إذن شيء يشبه تماما البيضة المشوية لكنه ليس بيضة.

- بقدونس، فليفلة، زعفران وتين! عدد النادل مكونات الطبق بعظمة.

أوما جانلوكا وتذكر لسبب ما شبيهه تمثال الملك إيبيح الثاني، وتهكم على نفسه وهو لا يصدق أن مكانا ما في عقله كان يربط لسنوات بين صورة ذلك الألماني غريب الأطوار وتمثال اللوفر المهييب. أخذ لقمة من ذلك الطبق المنمق. وأخذت الصورة الأسطورية لرئيس إحدى أهم الشركات الطاقوية في العالم تتلاشى من ذهنه لتحط محلها الصورة المصفرة لمستري بيرنز صاحب مصنع سبرينغفيلد للطاقة النووية من مسلسل ذي سيمسونز. ليشعر جانلوكا بجفاف مفاجئ في حلقة حاول ريه بغبطة طويلة من الماء... ولكن ماذا عن مادي... ميدي... مهدي!

لم يعد يذكر. ما الذي حل بذلك الفتى البسيط يا ترى ؟ فكر جانلوكا وقد انتبه أن النادل الذي اقترب بهدوء لإعادة ملء كأس الماء أمامه، كان ذا ملامح شمال إفريقية ودبعة... تماما مثل خادمه الغرير في الجزائر والذي لم يكن غالبا يفهم تسعا وتسعين بالمائة من حديثه... وعلى الأرجح أيضا أنه لم يقرأ كتابا واحدا في حياته... أما الأكيد فإنه لم يشعر حتى بالفضول لفتح ملف « تيمايوس وكريتياس » الذي أرسل له، على الرغم من أنه كان يأمل بأن يكون قد قرأ على الأقل شيئا يشبه كتاب « خفايا المريخ » الذي صاحبه في الطائرة على متن الرحلة AFR 874 التي حملته لتمنغاست أول مرة.

تنهد جانلوكا وهو يشكر النادل بود وفكر أن ميدي كان يمكنه إذا ما فكر بالهجرة أن يصبح نادلا في مطعم كهذا في أوروبا وهو ما من شأنه أن يساعده على بناء مستقبله. وتساءل عن حاله يا ترى وخطيبته الصحفية التي كان متأكدا من أنه لم يفتح معها موضوع الثقوب السوداء بأي طريقة. وضحك حين تذكر كيف سجل له رقم صفحة محاورة كريتياس في نسختها الورقية ليسهل عليه فك شفراتها بينما أرسل له بعدها النسخة الإلكترونية... الأكيد أنهما لم يكونا على نفس الصفحة. فكر بلا مبالاة.

- والمهم أن يكون بخير !

غمغم بأبوية عابرة وطلب الآن طبق « البريمو » وهو يحضر نفسه لمفاجأة جديدة في الطعم. ربت على شفثيه ثلاثا بذلك المندبل القطني الأبيض ذي إطار الساتان الأنيق وهو يشعر بالامتلاء من هذه التجربة القروسطية الفريدة. وأخذ يفكر في صحة النظرية القائلة بأن مصطلح العصور المظلمة لم يكن يشير إلى سوداوية هذه الفترة من التاريخ الأوروبي وإنما لكونها ببساطة فترة بقيت الكثير من كواليسها مجهولة ومدفونة في العتمة.

وابتسم وهو يتربقب قدوم طبق الأرز اللومباردي، وهو وصفة إنجليزية من القرن الخامس عشر طلبها جانلوكا بلون أسود كخيار صحي اصطلاح عليه اسم «الأرز الإمبراطوري». وأخذ رشفة أخرى من مشروبه التوسكاني المرهف وهو يشني على تفاني طباطخ هذا المطعم الفريد الذي أخرج مثل هذه الصفات المائزة من سراديب كتب التاريخ السحيقة إلى أنوار مطاعم إيزولا المرهفة. ثم أطبق فمه على لقمة من الأرز المحرم طاردا من ذهنه تلك المغامرة الجزائرية المنهكة. وقرر الإستمتاع بطبقه القروسطي العجيب الذي أتى في عز الظهيرة بطعم الظلمة.

- 4 -

لم يكن يدرك أين كان في تلك اللحظة، وكم مضى عليه من يوم وهو يركض ويركض دون أي وجهة أو هكذا خيل له لأنه كان عمليا في هذه اللحظة يجر ساقيه جرا. لكنه كان يعلم على الأقل أنه أصبح بعيدا عن القاعدة. كان يتمنى لو أنه يستطيع الركض لمسافة أكبر، ويتعد عن ذلك المكان أكثر فأكثر... لكن هل هناك من يبحث عنه الآن يا ترى... ومن أين خرجت وجوه الموت المثلثة تلك؟ وما الذي حل بالجميع هناك؟ لقد سمع طلقات نارية كثيرة... بل وخرق سمعه أيضا شيء يشبه الصرخة. من كان أولئك؟ وكيف دخلوا تلك المنطقة المحصنة؟ وما الذي كان يجري بالأساس هناك طيلة تلك الفترة؟

توقف مهدي وقد انغرزت قدماه في تلك الرمال المحترقة. لم يشعر بنفسه إلا وهو يتهاوى. كان جسمه قد جف من السوائل، وأدرك أنه على وشك إفراغ مخزونه من الحياة. كان على وشك الانطفاء، تماما مثلما ستطفى النجوم يوما ما بعد إفراغ وقودها وهي تتباعد عن بعضها... كان سعيدا على أي حال باكتشاف نظرية تمدد الكون

قبل حصول كل هذا... نظرية المادة المظلمة... ليفهم أخيرا سر تباعد  
خنخان عن جاره رضوان... تباعد جانلوكا فيرو عن صحفية الحق  
المتعالية... تباعد ويبر عن موحوش مدير الموارد البشرية... كان هناك  
الكثير من الظلمة تفسر تباعد المجرات عن بعضها... هل كان اسم  
ذلك الثابت الكوني أم ثابت الظلمة ؟

وشعر بنفسه تستعد للعودة إلى عناصرها الابتدائية... أين كان  
ذاهباً في تلك اللحظة ؟ أين أمضى حياته كاملة وأين هو ماض الآن...  
تذكر الجزائر... هل فهم فعلاً اسمها ؟ لم يكن متأكداً من أي شيء  
في تلك الآونة... لكنه كان يدرك أن الشمس بصد حرق ما تبقى  
في جسده من خلايا حية، لينقلب في النهاية إلى حجرة باردة.

نظر من بعيد إلى مرتفعات الآتاكور الشاهقة. فكر في إلياس الأسطورة  
الذي اختار مثواه الأخير وادي الزيب بتاييسا. هناك استلقى ولفظ  
أنفاسه الأخيرة، ليبقى جسده موجوداً إلى يومنا هذا بين تلك المرتفعات  
الغرائبية الوردية يستخدم الطوارق قطع منه لأغراض الطبابة.

وأغمض مهدي عينيه لآخر مرة وفكر بأنه أصغر من أن يتحول  
في حياة أخرى إلى محج للسواح أو متسلقي المرتفات، ولا جسده  
سيستحيل يوماً ما دواء مقدساً لأي قبيلة... وتساءل إن كان سينتهي  
كصورة بائسة على صفحات الجرائد الوطنية تنعي ميتته العبثية...  
أم أنه سيستحيل بصمت إلى حصى مفتت أو ذرة رمل متطايرة  
في وديان منسية...

- 5 -

كان وصول الأوامر بنشر صور رجل الظل الأول الذي كان الخوض  
في اسمه ممنوعاً قبل أربع وعشرين ساعة فقط في أي وسيلة إعلامية،

حدثا باهرا هز صفحات مواقع التواصل الاجتماعي الكبرى. وذلك بعد إحالته على التقاعد غداة عملية الهوقار الإرهابية بالرغم من نجاة جميع العاملين في المشروع بحسب التقارير الإخبارية. إلا أن عملية اختراق قاعدة كتلك كان بحد ذاته يشكل فضيحة وطنية استدعت التضحية بالرب الأكبر. لكن ميلود الآن كان مشغولا بأمر أهم وأكبر من حروب الآلهة.

- أنا هو باباها ! تمت مصور الحق السابق بفخر وهو من أصبح المشرف الفني للجريدة الأكبر في الجزائر في وظيفة استحدثها رئيس التحرير الجديد، الذي كان هو نفسه سبب حصوله على تلك الترقية. إذ لم يكن ميلود غيبا ليفهم أنه وبعد أسابيع قليلة من تصويره للحاج في مكتبه بأمر من سعيد شكيكن وهو منخرط في ممارسة غير أخلاقية والعياذ بالله، حصل هذا الأخير على منصب رئيس التحرير في ما يبدو وكأنه صفقة بين شكيكن والحاج من نوع ما.

- والمهم أن الجريدة تمشي في خط محافظ والحمد لله ! والأهم أنه طبق قول الرسول عليه الصلاة والسلام كما قال له السعيد ولم يفضح عبده المسلم الحاج علاوة، الذي قد يكون ذلك الفيديو الذي صوره له وهو يمارس فعل الشذوذ في مكتبه قد أدى لهداياته.

- الحمد لله ! غمغم ميلود وهو يغالب النعاس دون أن تبدو عليه علامات الاستياء من البقاء مستيقظا لحد هذه الساعة من الليل وهو من أمضى يومه متسكعا في شوارع العاصمة، ذلك أن مسؤولياته الجديدة لم تعد تتطلب منه الدوام الكامل على غرار بقية المهنة الهامة. فقد أصبح ميلود اليوم يكتفي بالذهاب إلى المكتب وقتما شاء وتوجيه أوامر عامة لمن يعتبرهم أقل رتبة. فتخلص بذلك أخيرا من عمله كمصور لـ « وجوه الشر » و « الحابسين » كناية عن الكتاب والشعراء الذين كانت تصطحبه رتيبة لتصوير حواراتها معهم.

وكش بانزعاج ما خُيل له أنها ذبابة مرت من أمامه بمجرد عبور خيال زميلته القاتم على ذهنه. نفض صورة وجهها المنحوس من رأسه، وحمد الله أن أخبارها قد غابت عن الجريدة بعد زواجها. ثم انتعش من جديد وهو يحفظ التعديلات على آخر صورة التقطها لنهار اليوم في وسط العاصمة وحملها على الصفحة التي فتحها منذ أسابيع قليلة على الفيسبوك، والتي أصبحت تنافس صفحة « وسيم لابوانت إيطاليانو » في شعبيتها بين الشباب، خصوصا بعد تنويه جريدة الحق بها في إحدى مقالاتها.

والواقع أن ميلود لم يتوقع النجاح الكبير الذي حققته الصفحة التي أنشأها بإيعاز من سعيد شكيكن حاصدة آلاف الإعجابات في الأيام الأولى فقط من إنشائها، لتصل اليوم إلى ما يقارب المائة وعشرين ألف معجب.

وتأمل مصور الحق بإعجاب الصورة التي انتهى للتو من العمل عليها ماطا بدنه بكثير من الامتلاء. لقد كان تعديل الصور بالفوتوشوب مهمة دقيقة تستدعي تركيزا كبيرا إذا ما كان يود أن تظهر الصور طبيعية، لكنه كان مقتنعا أن الله يسانده في مسعاه الديني والأخلاقي بالدرجة الأولى، وهو السر من وراء النجاح الساحق الذي حققته الصفحة قياسا لشخص كان يعتبر نفسه دوما نكرة في الفضاء الأزرق. وكبس على زر النشر وهو يبتسم برضا. لتبدأ الإشعارات على الفور بالوصول إلى حسابه :

- منشورك الأخير حصل على إعجاب... اثنين... ثلاثة... عشرة... سبعة عشر... خمس وعشرين... خمسين وتوقف الآن عن العد. كان متأكدا أن الصورة التي نشرها لتوه على صفحة : « استري نفسك يا أخيتي أو سنصور مؤخرتك » تستحق كل تلك الإعجابات. وكان ميلود

قد التقط الصورة صبيحة اليوم في شارع لاري شاراس لفتاة، يرجح أنها طالبة في الجامعة المركزية، كانت ترتدي جينزا وقميصا قصيرا وهو ما لم يكن يرضي الله. ومن أجل ذلك فقد قرر مصور الحق نذر مواهبه التصويرية لردع الفتيات عن ارتداء السراويل الضيقة بتصويرهن من الخلف خلصة، وعرضهن على صفحة يشاهدها عشرات الآلاف من المتابعين في الجزائر والوطن العربي. لتتلقى الصور التي تنشر عليها مئات الشتائم كل يوم. وعليه فمن لم تكن تود أن تُفضح على مستوى الوطن لم يكن عليها سوى أن تتحجب. فكر باقتناع. وقد كانت تلك هي فكرة الصفحة والسبب الرئيسي من وراء عرض الخلفيات عليها. - والله من وراء القصد ! تتم ميلود وهو يغلق صورة لمثلة إباحية استعار من تموضعها زاوية الرؤية.

وقد كان مصور « الحق » يستعين بصور مؤخرات من مواقع إباحية لتعديل الصور التي كان يلتقطها لفتيات العاصمة. ذلك أن صور من كان يطلق عليهن اسم « الموسطات » لم تكن تبدو بعد تنزيلها على حاسوبه فضائحية بما فيه الكفاية. ولم يكن يعلم تماما لماذا كانت مؤخرتهن تبدو عادية بعدسة تلك الكاميرا... مسطحة قليلا أو عريضة كثيرا، لكنها ليست حتما مؤخرات تستحق صاحبته أن تشتم عليها لأنها تنشر الفتنة... فتنة من طراز وضعيات عارضات البلاي بوي أو ممثلات المواقع الإباحية.

وهكذا قرر ميلود تعديل صورته بنفخ المؤخرات أكثر، وتعديل الوضعيات الملتقطة لها بما يجعلها أكثر استفزازا، وبما يتناسب أكثر مع تيمة الفضح التي كانت تقوم عليها الصفحة. - استري نفسك يا أختي أو سنصور مؤخرتك « تتلقى إشعارا آخر.

- ويحك أيتها الفاجرة. استري عورتك يا قبح الله وجهك، ألا تخافين من يوم تشخص فيه الأبصار... لا حول ولا قوة إلا بالله.

كان ذلك تعليق لـ « أبو حذيفة الجزائري المعتصم بدين الله ». ابتسم ميلود بعبور. فقد كان المعتصم بدين الله صديق وفي للصفحة يعلق دوما على صور المؤخرات التي كانت تنشر عليها مذكرا بطلاتها بالعذاب الأليم الذي كان ينتظرهن. كما كان يحرص على مشاركة تلك الصور على حسابه الخاص، وهو ما كان يفعله الآلاف للمساهمة في حملة فضح الفتيات المتبرجات، وكل ذلك في سبيل إصلاح الأمة. وهي المهمة النبيلة التي أخذتها صفحة « استري نفسك يا أختي أو سنصور مؤخرتك » على عاتقها.

والآن تلقى ميلود رسالة جديدة على الصفحة. فتحها على الفور. ابتسم بخبث. وكبس على زر النشر.

\*\*\*

أقفل حسابه في الفيسبوك بذلك الاسم المستعار، وهو يشعر بالكثير من البهجة. لقد كان يعلم أنه أقدم لتوه على خطوة ستحوطه إلى شهيد التنوير الحي في وطنه الغارق في الظلمات. والأهم أنه ستجعل منه نجما لا يقل وزنا عن كيم كاردشيان بين جماهير مواقع التواصل الاجتماعي، ليس فقط في الجزائر بل ربما في العالم أيضا. فكر وإحساس النشوة قد بدأ يخامرهم وهو ينقر بحماس اسمه ويدخل على ذات الموقع الأزرق بهويته الحقيقية. اتجه بسرعة نحو تلك الصفحة التي كان يدمن متابعتها منذ أن فتحت قبل أسابيع قليلة فقط وارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه.

- تماما كما كنت أتوقع. وسارع لحفظ صورة لآخر منشور نزل على صفحة « استري نفسك يا أختي أو سنصور مؤخرتك » ليشاركها لاحقا على حسابه.

كانت تلك صورة أرسلها للتو إلى مدير الصفحة من على حساب مزيف، سبقها برسالة تهديدية :

أشكركم على المجهودات الكبيرة التي تقومون بها على صفحتكم من أجل فضح الفاسقات. وأدعوكم ألا تقتصر حملتكم على فضح الفاجرات من النسوة بل ومن الرجال أيضا في مجتمعنا. إذ لا بد من أن نضع حدا للأنايش الذين أخذوا يعيشون فسادا في الأمة. وأنا لدي صورة التقطتها لأحد الفسقة المجاهرين بالمعصية وهو أحمد غيباري والذي يدعو نفسه على الفيسبوك « أنوار الحداثة »، فهل أرسل لكم صورة مؤخرته لنشرها ؟

وها هي صورة مؤخرته كما كان يتوقع مرفقة بتعليق من مدير الصفحة :

هذه صورة مؤخرة الشاذ المدعو « أنوار الحداثة »... سنفضحكم أينما كنتم أيها الفجار. كاميراتنا تصل إلى كل مكان.

ابتسم غيباري لعرض تلك المؤخرة...

ابتسم أبو حذيفة لفضح تلك المؤخرة.

كان الجميع منغمسا في المؤخرة.

- 6 -

نظرت إلى الصورة بعينين فارغتين، لم تر من خلالهما سوى أجواء ضبابية وثقبا أسود متجانس الأطراف، لا يحوي شيئا في قلبه سوى الخواء.

لم تكن رتيبة قد أخذت عطلة مرضية، وخلال تلك الفترة الحرجة من التغطيات المكثفة لعملية الهوقار الإرهابية، من أجل الوقوع على صورة شعاعية لا منطقية كالتى كانت تحملها بين أطراف أصابعها. فكرت وهي لا تصدق حجم الفراغ الذي كان يسكنها.

تحسست بطنها بحركة بطيئة بينما كانت كلمات طبيبة النساء والتوليد تمر كرصصات جانبية من على صدغيها دون أن تصيب مقدمة الرأس... لم تكن تدري إن كانت تعيش نفسها حقيقة ذلك المشهد أم أنها كانت بطلنة مستعارة في لقطة عرجاء من فيلم رعب ما. أشاحت نظرها عن الطبيبة بريية، وعادت لتدك عينيها في تفاصيل الصورة الإيكوغرافية بحذر. لقد كان ذلك الرحم رحمها. رحمها البليد الأعرج السقيم... بل الكاذب.

هذا ما قالته لها الطبيبة :

- حملك حمل كاذب !

وعادت لدس عينيها في تلك الصورة الإيكوغرافية.

- واسمه أيضا الحمل الهستيري، ويصيب النساء لكنه يصيب بالدرجة الأولى إناث الحيوانات الثديية كالكلاب والفئران...  
- والقطط ! قالت على نحو ريبوتيكي، وكأنها تؤمن على نحو ما على كلام الطبيبة.

- القطط على نحو أقل. أجابت الطبيبة النسائية بحذر وهي ترصد ردود الفعل الهادئة حد الريبة لمريضتها.

لم يكن ذلك تشخيصا يتم عادة تقبله بهذه الرصانة خصوصا أن المريضة تعيش بتصورها الشهر الخامس من حملها، حيث شهدت انتفاخا واضحا لبطنها وانتهت حتى لوجود كلف على وجهها، بل قد بدأت المريضة تشعر منذ أيام فعلا بحركة في أحشائها.

- ليست سوى حركة الأمعاء. فسرت الطبيبة بنبرة يقينية.

- وماذا عن التحاليل المخبرية ؟

- التغير غير الطبيعي في هرموناتك ذي المنشأ العصبي هو المسؤول عن كل هذه الأعراض الفيزيولوجية. ونظرت إليها محاولة تبين سر الضغط النفسي الذي تعيشه هذه المرأة من أجل الإنجاب، والذي أثر على عمل الغدد المسؤولة عن مبيضها وأنتج لها كل أعراض الحمل التي كان من الواضح أنها تريدها بشدة... لتحت عينها بحركة آلية على رأسها. وانتبهت أنها في صدد التعامل مع امرأة تربت على الأرجح على فكرة أنها آلة ولادة ومن الصعب أن تتقبل الآن حقيقة كونها آلة خربة...

- أم أنك تقصدين أنني فقدت الجنين ؟

- لا لم يكن هناك بالأساس جنين يا سيدة. إنه حمل كاذب... إنها حالة مرضية.

- لكنني شعرت منذ مدة بوجع في « كرشى الصغيرة »، وبما أنني لم ألاحظ شيئاً آخر لم أتوقع أنني كنت قد فقدت حملي... ربما فقدته دون أن أشعر... ربما شربت الزعتر دون أن أنتب...

- انقباضات الرحم تلك لا بد أنها كانت عصبية. قاطعت الطبيبة مريضتها بنفاد صبر.

- لقد فقدت جنيني أنا متأكدة، لكن كيف ؟ وسألت رتيبة كالمنومة وهي تواصل البهلقة في صورة الأشعة.

- لم يكن هناك جنين يا سيدة بالأصل، ومن الأفضل أن نبدأ بالعلاج الهرموني لإعادة الدورة الشهرية لحالتها الطبيعية.

وردت شبه مشمئزة وهي تفكر في صعوبة إقناع هذه السيدة، التي يبدو من طريقة لباسها أنها قروية ولا تفهم طبيعة مرضها المعقدة. وانكبت على وصفتها تسجل أدوية مختلفة.

لم تكن تلك على أي حال حالة مرضية شائعة. ولم تذكر طبيبة التوليد تلك أنها واجهت مثل هذه الحالة سابقا طيلة حياتها المهنية بالرغم من أنها كانت مرضا معترفا به علميا. إلا أن هذه هي أول حالة تقف فيها على حمل كاذب مكتمل الأركان، لم يتم اكتشافه سوى في مرحلة السونار للتأكد من النمو الطبيعي للجنين الذي يفترض أن يكون مكتملا، ويتم فيها عادة إبلاغ جنس المولود للسيدة. وهمت على نحو روتيني بطرح بعض الأسئلة :

- هل خضعت لعلاج عقم ما ؟

- لا.

- هل...

.... -

كانت رتيبة ترد على الطبيبة دون أن تسمعها وهي تعيد شريط اكتشافها لخواء رحمها، منذ أن استلقت على السرير تستعد لسماع بشارة الصبي يقينا منها بأن الله تقبل دعواتها، إلى غاية إخبارها عن اسم هذا المرض غير المعقول والانطلاق في الحديث عن الكلاب والجرذان والقطط... لا... القطط لا ! وكأن هذه المتعجرفة تود أن تشعرها بأنها أقل شأنًا من قطة ؟ لا، بل وحتى كلبة فجميع حيوانات القرية التي نشأت فيها رتيبة قبل نزوح عائلتها للعاصمة أيام العشرية السوداء كانت على حد علمها ولودة... ولم تذكر يوما أنها سمعت أن حيوانة ما أو حشرة قد عجزت عن إنجاب صغار لها.

وعادت بحسرة لتذكر القلط التي لم ينقطع نسلها يوما في أحياء العاصمة... تلك الحيوانات ذات العيون الملونة الصافية أم المحززة، والتي كانت تفكر أن تتوحم على وجه واحدة منها وتنجب طفلا بعينين زرقاوين أو في أسوأ الأحوال بنتا يشفع لها في الحياة شقارها، حتى أنها لم تتوقف منذ اكتشاف حملها عن نشر الصورة تلو الأخرى لأطفال بملامح اسكندنافية على فيسبوكها، أملا منها في أن تتوحم على واحد منهم أو واحدة. وفركت عينيها بحركة لاشعورية. وتذكرت كيف أنها حققت حلم تلوين نفسها بشراء عدسات زرقاء يوم زفافها، وتشقير شعرها... لكن من أين لها استعارة رحم هرة أو حتى فأرة ؟

أخرجت ورقة نقدية خضراء وضعتها على مكتب الطبيبة وخرجت وهي تفكر في طلب الرُّقية وتخليصها من اللعنة التي حطت في رحمها. فهي قد فقدت جنينها بسبب عين حاسدة أو حجاب ساحرة لا محالة. ركبت سيارتها بعنفوان مفتعل، لم يكن لشيء آخر أن يبثه في نفسها سوى إيبيزتها البيضاء. نظرت من حولها متأكدة إن كانت هناك نظرات عانس خرقاء ما تراقبها... لقد كان الجميع يحسدها. فكرت باقتناع وهي تراقب الكلف الذي ظهر على وجهها من جراء حملها. نعم لقد كنت حاملا لا محالة. غمغمت وهي تفرك بعصبية وجهها. وإن لم تظهر صور الجنين في الصورة الشعاعية فذلك لأنها فقدته في غفلة عنها. حدثت نفسها وهي تحاول تذكر الحادث الذي تسبب في إجهاضها. لكن ذاكرتها لم تسعفها سوى بصور الحاسدات اللواتي حضرن حفل زفافها... ابتداء من بنات عمها العوانس مروراً بجارتها الدميمة، وصولاً لسلفتها البطالة، إضافة إلى زميلاتها في مؤسسة الحق كافة. لا بد أن الوقع المدوي لعرسها قد أثار غيظ بائرات العائلة والحي وزميلات العمل واحدة واحدة.

تنهدت بلوعة وهي تدور محرك سيارتها ليدها انقباض قوي  
خرق جنات نفسها. لا بد أن ما يحصل أكبر من مجرد إصابتها بعين  
حاسدة. وارتجت رتيبة من أعماقها، وهي تتذكر تلك الكلمات المملغة  
التي أرسلها لها ذلك الأسود قبل حظره على حسابها.

- باسم الله الرحمن الرحيم... سم الله الرحمن حمين... اسم الله  
حم حمين...

وتداخلت بسملاتها ببعضها البعض... وتراكت فوق كل هذا وذاك  
أفكارها. لم تكن تلك الكلمات التي ادعى ذلك الأسود أنها الأرقام  
بلغة الجن إلا طلاس بثها عليها حتى يتملكها. فكرت وقد اقشعر  
كامل بدنها وهي تفكر أن ذلك المهدي قد لا يكون سوى جن انتقم  
منها بسبب زواجها، وسرق منها جنينها لأنه قد وقع على الأرجح  
في غرامها. فكرت وهي تنتحب فالمرأة كلها فتنة. وبالرغم من التزامها  
بحجابها، وعدم نسيان أذكار خلع الثياب ودخول الخلاء والاستحمام  
التي من شأنها أن تبعد الشياطين والجن من التلصص على عورتها،  
إلا أنها وقعت في المحذور من بوابة الانترنت اللعينة.

وانهارت رتيبة بالبكاء وهي تشعر بالندم لانخراطها في تلك الخلوة  
غير الشرعية. ضربت جبهتها على المقود، وانخرطت في النحيب مدركة  
أنها لقيت عقابا من الله على تجاوز حدودها، وليس أمامها الآن  
سوى التوبة ونشدان الرقية المناسبة للتخلص من لعنة ذلك الأسود  
الذي عشقها، والذي لا تعرف بالأساس إن كان إنسيا أم جنيا وإن  
كان لا بد من أنه قد مارس عليها طقوس سحر شيطانية. وصرخت  
من قمة رأسها وصورة ذلك الثقب الأسود الفارغ لا تفارق ذهنها بينما  
كان الخواء يمزق أحشاءها...

ارتسمت في نفسه ابتسامة داخلية وهو يتأمل خريطة توزيع المعدن الأصفر في تلك القارة السوداء سواد محطات خفية من تاريخها، لتنتابه لبرهة لحظة تجلٍ صافية.

- هل تعلم يا دكتور أن ذرات الذهب إذا ما سافرت بسرعة 99,999 بالمائة من سرعة الضوء وانصهرت ببعضها البعض، فإن البلازما التي تنتج عنها تكون محملة بكم رهيب من الطاقة يجعل مكعباً ضئيلاً منها لا يتجاوز حجمه ربع سماكة شعر الإنسان، يمكن أن تزود بلداً بحجم الولايات المتحدة الأمريكية بطاقة كافية لمدة عام كامل ؟  
- لا، لم أكن أعلم !

أجاب دكتور الأعصاب الخاص بفورتنسبورغ وهو يدخل غرفته للاطمئنان على صحته، دون أن يستغرب من رؤيته مستغرقاً في القراءة، وقد لمح العنوان الكبير على الصفحة الرئيسية من المجلة الإقتصادية التي كان يطالعها تلك الصبيحة :

« حمى التنقيب عن الذهب في دول الساحل ».

- وهل تعتقد أن الذهب سيكون بذلك مصدر الطاقة في المستقبل القريب ؟ سأل الدكتور وهو يحاول مجازاة هينريك بينما كان يثبت جهاز الضغط على ذراعه.

- وهل تعتقد فعلاً أن هناك جهة في الوقت الحالي تملك تكنولوجيا مسارعةٍ للذرات من شأنها تغيير بلازما الذهب بهذه البساطة ؟ رد بصوت متهدج وهو يشعر بوخز مزعج على مرفقه، صاحب ارتفاع الشريط بالهواء وأردف : « عن نفسي لا أعتقد أن تطوير جهاز كهذا ممكن على المدى القريب ».

- الأمر يتعلق بمعادلة رياضية نظرية لا علاقة لها بالجيوستراتيجية  
إذن؟ سأل الطبيب مبتسما وهو شبه مقتنع من أن المعلومات  
المجردة التي يخيل لنا أن لا علاقة وحيثية تربط بين بعضها البعض  
لا وجود لها فعليا في دماغ هينريك. ونظر مجددا إلى ذلك العنوان.  
إذ لا بد من أن فورتسنبورغ كان يفكر في شيء لن يتمكن هو من  
فهمه في تلك اللحظة، كونه الأدرى بحالة هينريك وغيره من الأشخاص  
الذين يعانون من أمراض عصبية محددة تجعلهم يقومون بفترة  
المثيرات العقلية على نحو يختلف عن البقية، مما يمنحهم قدرة فورية  
على إيجاد روابط بين أفكار متناقضة، والانتباه للعلاقات غير الظاهرة  
بينها، والتي يعتبرها العقل الباطن في أدمغة غالبية الأشخاص غير  
صالحة لأن تطفو على سطح الوعي.

ونظر دكتور الأعصاب على نحو تلقائي لرأس هينريك. لقد كان  
يعلم أن الدماغ التي كان يشرف على خدمتها منذ سنوات لا تؤمن  
سوى بإيجاد العلاقات الخفية بين كل شيء وأي شيء. ذلك أن غزو  
الوعي مما يبدو لأغلبنا أنه محض هراء قد يكون تجربة مخلخلة،  
إلا أنه قد يكون من جهة أخرى أمرا خلاقا على نحو استثنائي، تماما  
على طريقة الربط بين حركة المجرات وسقوط التفاحة أمام نيوتن.  
لقد كان ذلك ببساطة هو سر العبقرية.

فكر الطبيب في سره وهو شبه متأكد من أن جين 32 DARP  
المسؤول عن « رفع القدرة على التفكير » كما يطلق على ذلك العلماء  
توخيا للموضوعية، والذي تم إيجاده في الخريطة الوراثية لهينريك،  
موجود أيضا لدى نيوتن وأينشتاين وفرويد وبقية العباقرة... العباقرة  
الذين عانوا جميعهم كما كان معروفا من اضطرابات عصبية مختلفة.  
فكر الدكتور ماكسيميليان وهو يزم شفتيه بحركة خفيفة. فهذا الجين

هو نفسه المسؤول عن مراقبة الشبكة العصبونية الرابطة في الدماغ بين القشرة الأمام جبهية ومنطقة أخرى من المخ هي النواة المخططة والتي تظهر نشاطا مختلفا لدى الأشخاص المصابين بمرض الشيزوفرينيا أو مرض الهوس العصايي الذي كان الرئيس التنفيذي للفيوتشر إينيرجي كوروبوريشن يعاني منه.

- هل كل شيء تحت السيطرة ؟

سأل هينريك بشيء من القلق بالرغم من أنه يدرك تجاوزه لمرحلة الخطر منذ أسابيع بعد تلك الليلة الجهنمية، والدليل التدفق السلس للأفكار على رأسه منذ الصبيحة. لقد كان فورتسنبورغ يعرف حالته جيدا. إذ يكون المصابون بهذا المرض المعروف أيضا بثنائي القطبية في قمة نشاطهم العقلي بعد الخروج من حالة اكتئاب عميقة فيخف النشاط في الجزء الأدنى من الدماغ والمعروف باسم الفص الجبهي ليرتفع بشكل ملحوظ في الجزء الأعلى منه. وهي نفس النقلة التي تحصل في دماغ المرء لدى ممارسته لنشاط فكري خلاق من نوع ما، لتكون بذلك حلقة الوصل بين العبقرية والجنون.

- أنا أشعر أنني بخير ! أردف وهو يتناول مجددا المجلة.

- نأمل ذلك ! رد الدكتور ماكسيميليان. ستأتي روز بعد قليل

لمرافقتك إلى الغرفة الشعاعية لتصوير الدماغ.

أوماً هينريك دون أن يسأل عن تفاصيل الفحوصات السابقة. لقد كان يعاني من حالة « العبقري المعذب ». كان يعلم ذلك. بل كان ممتنا للأمر. فهذا أفضل من أن يكون برمبلا أجوف مفرغا من العقل. وتذكر على نحو تلقائي ذلك الخنخان.

- سحقا ! تمتم في سره وهو يحاول أن ينسى أنه قد يكون تعرض

للخيانة من عبد المال ذاك بطريقة كاد يكون مقتنعا بها. لم تكن تلك

سوى عملية إرهابية مفتعلة. وكز بقوة على أسنانه لكنه عاد ليطالع ذلك الخبر ويتأمل خريطة الذهب في العالم.

صحراء الساحل وجنوب إفريقيا.

ابتسم بصمت وهو يتذكر أساطير الهوقار عن قوم قل السوف الذين كانوا يعيشون الذهب، والطوارق الذين حرّموا ذلك المعدن الأصفر على أنفسهم بالرغم من توفر هذه المادة النفيسة على بعد أمتار قليلة من أقدامهم.

لقد كان من الجلي أن الأمر يتعلق باتفاق خفي لا يعرف سره سوى الطوارق لا محالة. ولا يبدو أنهم يرغبون في إطلاع أحد على حيثياته. وتراءى له خيال طارقي يلف وجهه بوشاح الصمت. ثم تنهد بعمق وهو يفكر في ذلك الوشاح الأزرق الملمغز الذي قد لا يكون سوى قفلا رمزيا يدرأ عن الطوارق تسريب الأسرار. وعاد لمشاهدة خريطة الذهب في العالم بخشوع بالغ.

- لقد مروا دون أدنى شك من هنا! وتلمس موقع صحراء الساحل وجنوب إفريقيا متذكرا نظرية سيتشين عن الأنوناكي القادمين من مكان آخر في نظامنا الشمسي، والذين استنزفوا بحسب النظرية عينها مواردهم الطبيعية قبل مائتي ألف عام، وأتوا للبحث عن مصادر الطاقة على الأرض. الذهب...

- أهلا بالخائن الأعظم!

قال هينريك داغيا مساعده للدخول، وهو الذي بدأ بمناداته على هذا النحو بعد أن عرف أنه كان يبلغ الدكتور ماكس أولا بأول بتغيرات سلوكه في الأشهر الأخيرة.

- بل قل لوزتك الدماغية! رد فرانك مبتسما وهو يقدم لرئيسه تقريرا ملخصا عن آخر قرارات نائبه على رأس الشركة.

تناول هينريك الملف وهو يلوح بيده مفتعلا الانزعاج.  
كان صاحب الفيوتشر إينيرجي كوربوريشن يعلم أن نظام الإنذار  
المستشعر للأخطار الخارجية في جملته العصبية، والذي حل محله  
مساعدته الأمين هذا، قد أقدم على تحركات أخرى غير تواصله بالدكتور  
ماكس خفية في الأشهر الأخيرة... كان يعلم أن مستقبلات « نيبيرو »  
لم تتعطل وأن قياسات الحقل المغناطيسي في الهوقار لا تزال هي هي.



## إيبيلوغ

تحسس الحجارة الذهبية الشئزة بين أصابعه المتصلبة وهو لا يكاد يصدق أنه يحمل عمليا ثروة لا تزن أكثر من كيلوغرام واحد. فرك بوجد تلك الأحجار المغبرة بحركة منتظمة. لقد كان ذلك ذهباً حقيقياً... ذهباً خالصاً... ذهباً يتعاطى السعي وراءه الجميع في هذه الأيام... وتذكر تلك القصاصة التي وجدها في قاعدة مشروع تمنغاست أثناء حملة التمشيط التي أعقبت عملية الهوقار الإرهابية التي لم يفهم أحد حيثياتها.

- هل تمكن أحدهم من فك شفرات تلك العبارات ؟ فكر وبطيظ اللحظة لا يزال يستولي عليه. وإلا ما الذي جعل الجميع يصاب بحمى التنقيب عن المعدن الأصفر في هذه البقعة من الأرض ؟ ... غمغم وهو لا يزال يفرك تلك الأحجار. هل تمكنت عصابات الذهب في الصحراء من فك أغلاق حروف التماهاق المشفرة تلك ؟ وأخرج الورقة التي كان يحتفظ بها بعناية من جيبه وتأملها. أم أن الصحراء كانت عملياً تلفظ أحشائها قبل أن تستقر في قبر النسيان ؟

وقبل أن يغرق في لجة كل هذه التساؤلات أطفأ النور وقد أغوته فكرة الاستضاءة بنور هذا المعدن، عله يترجم له شيئاً من ألوان الظلمة.

\*\*\*

كانت لا تزال تبحث عنه وسط السواد بعين زائغة.  
كان لا بد أن جنينها يقبع في مكان ما كخلية صغيرة مجهريّة لا ترى  
في تلك الصورة الشعاعية البشعة.

لكنه موجود ! تمت ممسدة بطنها وهي تكاد تجزم باستشعارها  
للحركات المباغطة لطفلها داخل أحشائها. ابتسمت بحنان، ثم غمغت بثقة :  
- موجود لكنه ينمو بشكل مختلف !

وعادت للتركيز في تلك الصورة معيدة تذكير نفسها بأقوال العلماء  
عن مدة الحمل عند المرأة : « ستان حسب مذهب الحنفية. وثلاث  
سنين بحسب قول الليث بن سعد. وأربع سنين، عند الشافعية،  
والحنابلة، وأشهر القولين عند المالكية. وخمس سنين كاملة في رواية  
عن الإمام مالك . بل وست سنين عن الزهري، ومالك. وقد تصل  
إلى سبع سنين وهو رأي ربيعة وهي رواية أخرى عن الزهري، ومالك ».   
وأما هي فلم تكن متأكدة أي رأي سيصدق على جنينها الذي لم يكن  
ينمو يقينا كبقية أولاد التسعة أشهر. والحمد لله أنها مؤمنة وإلا فقد  
كانت لتنهار في العيادة لدى سماعها التشخيص العبثي لتلك المتعجرفة  
المتبرجة والتي لا تستبعد أن تكون ملحدة كافرة.

وزفرت رتيبة وهي تخشى أن تتجاوز مدة حملها السبع سنوات لأن  
الأمر وارد بحسب قول أبي عبيد، والشوكاني، اللذان أكدا أن مدة الحمل  
قد لا يكون هناك حد لها وهو ما وافقهما عليه العلماء المعاصرين  
كالشنقيطي، وابن باز، والعثيمين. رضي الله عنهم جميعهم وأرضاهم.  
تمت رتيبة وهي تواصل دعواتها وتضرعها للخالق من أجل تقريب  
خروج مولودها...



أنجز طبعه على مطابع  
باتنة - chihab print -